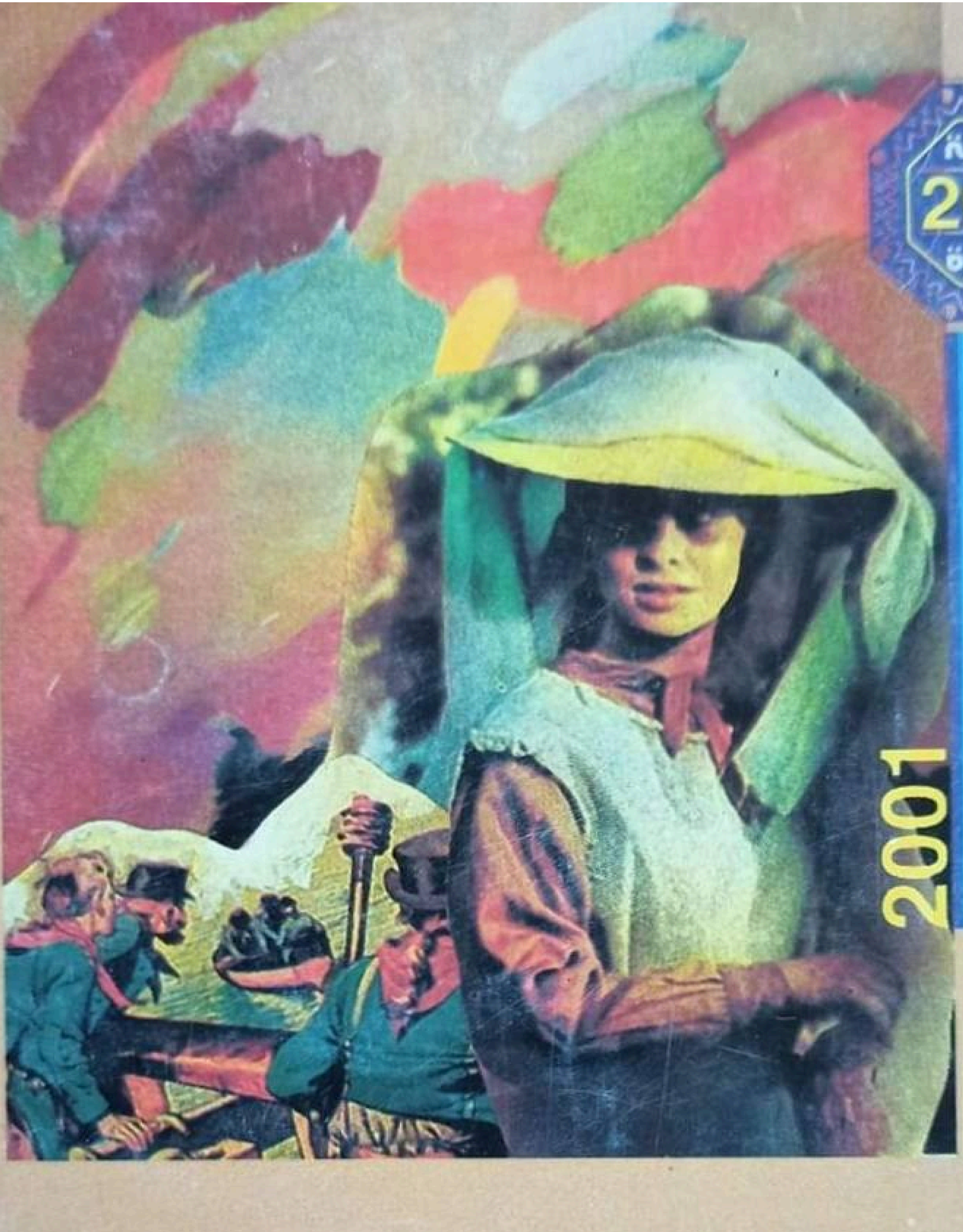

مكتبة الأسرة
2001
مهرجان القراءة للجميع 2001

روائع الأدب العالمى للناشئين

ابنة الزعيم مونتزيوما

تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد

مراجعة : مختار السويفى

ترجمة : الشريف خاطر

الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

إبنة الزعيم مونتزيوما

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: ابنة الزعيم

التقنية: كولاج

المقاس: ٢٥ × ٣٥ سم

محمود الهندى

فنان تشكيلى مصرى ومصمم جرافيكى، يقيم معارضه الفنية داخل صفحات الكتب: حصان حلاوة شعر محمد بهجت، قافية بين امرئ القيس وبينى شعر د. أحمد تيمور، كتاب الأناشيد والتهجى شعر أيمن حمدى، ذكر مقتل الحلاج لابن زنجى، ابن عروس (السيرة اللوحات النصوص) ... الخ. وفى مرحلته الأخيرة يقوم بعمل كولاج/ جرافيك، واللوحة المنشورة على الغلاف تمثل واحدة من مجموعات المرحلة الأخيرة.

إبنة الزعيم مونتزيوما

تأليف: سير هنري رايدر هاجارد
ترجمة: الشريف خاطر
مراجعة: مختار السويفى

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع الأدب العالمى للناشئين)

ابنة الزعيم مونتزيوما

تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد

ترجمة: الشريف خاطر

مراجعة: مختار السويفى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخًا تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

هذه ترجمة لرواية :

MONTEZUMA'S DAUGHTER

By : SIR H. RIDER HAGGARD

مقدمة

هنرى رايدر هاجارد

١٨٥٦م - ١٩٢٥م

كاتب إنجليزى مشهور. نشر العديد من الأعمال الروائية المتنوعة، التى تجرى أحداثها فى مناطق مجهولة مفقودة فى أفريقيا، وفى أماكن أخرى من العالم مثل أيسلندا وكونستانتبول والمكسيك ومصر القديمة. ومن الأعمال التى أكسبته شهرة واسعة رواية «كنوز الملك سليمان» ١٨٨٥، التى تحولت أكثر من فيلم سينمائى.

ولد هنرى رايدر هاجارد فى برادنهام هول بمقاطعة نورفولك بانجلترا عام ١٨٥٦، وكان الابن الثامن لوالده ويليام هاجارد الذى كان يعمل محاميًا، وأثناء طفولته كانت ترى فيه عائلته خاصة والده أنه يتسم بالغباء. تلقى هنرى تعليمه فى مدرسة داى الابتدائية، ثم

فى مدرسة إبويش جرامر الثانوية. وبعد فشله بالالتحاق فى الجيش سافر إلى جنوب أفريقيا وعمل سكرتيرًا للسير/ هنرى بلوير حاكم إقليم ناتال. وفى عام ١٨٧٧ عين رئيسًا لبعثة خاصة، وبعد عام واحد أصبح أمين سجل المحكمة العليا فى الترانسفال، حيث عمل تحت رئاسة واحد من أعظم حكام الأقاليم تفهمًا وهو سير. ثيوفيلسى شبستون، الذى كانت قبائل الزولو تعتبره (سمستن) أى بمثابة أب الجميع.

خلال فترة إقامته بأفريقيا تفهم طبيعة وجهة النظر البريطانية إزاء مستعمراتها، وتعايش مع عادات وتقاليد وقيم قبائل الزولو، وكانت له علاقة حميمة بامرأة إفريقية، انعكس تأثيرها على بعض أعماله وخاصة رواية «هى».

وفى عام ١٨٨٨، عاد إلى إنجلترا ودرس القانون وعمل بالمحاماة، وتزوج من سيدة تدعى ماريانا لويس ماريجنسون. لكن وفاة ابنه عام ١٨٩١، كانت بمثابة صدمة شديدة له، فاعتزل بمنزله الريفى فى نورفولك، وعمل بالزراعة التى كان له اهتمام كبير بها، وأغرق نفسه فى الكتابة.

فى البداية نشر دراسة عن تاريخ أفريقيا المعاصرة، وبعض الروايات الناجحة. ويحكى أنه عندما ظهرت رواية الكاتب روبرت

لويس ستيفنسون، «جزيرة الكنز»، راهن هاجارد بخمس شلنات أن يكتب رواية أفضل منها. وكانت الثمرة رواية «كنوز الملك سليمان» التى حققت له شهرة واسعة وحققت مبيعات كبيرة وطبعت فى كافة الأنحاء.

عاود هاجارد نجاحه من خلال ثلاث روايات تجرى أحداثها فى أفريقيا: «هى»، «چيس»، «ألان كوارتز مين». وأصبح اسمه ذا ثقل فى الأوساط الأدبية. وواصل هاجارد كتابته من خلال أنواع أخرى فكتب الرواية النفسية، مثل «وصية السيد ميسون» والتاريخية «كليوباترا» والفانتازية «ستيلا فرچيليوس». وكذلك رواية «ابنة الزعيم مونتزيوما» التى تجرى أحداثها فى المكسيك فى القرن السادس عشر، وهى تقوم على حقائق تاريخية. فشخصيات مثل مونتزيوما، وكورتس، وبرنال دياز كلها شخصيات حقيقية، فقد كان مونتزيوما أول امبراطور لدولة الأزتيك الأولى فى المكسيك. وقد قام القائد الإسبانى كورتس عام ١٥١٨، بقيادة حملته الثالثة فى أمريكا الجنوبية، واستطاع بمعاونة قبائل التلاسكان التى ثارت على الإمبراطور، القضاء على هذه الإمبراطورية.

وتتميز أعمال هاجارد الروائية، بأنها مليئة بالأحداث والأماكن الجديدة، حيث يكتشف أبطاله أماكن غريبة، ومجتمعات مجهولة، ويتعرضون لأخطار كثيرة، وقوى غريبة. كما يتسم أسلوبه بالغزارة،

والاهتمام بالتفاصيل الصغيرة إلى حد كبير، حتى أن النقاد، وصفوه بأنه يكتب لفئة الشباب. إلا أنها تعتبر اليوم من الأعمال الأدبية العالمية البارزة.

فى عام ١٨٨٢، كتب هاجارد عن أسرار حياته الشخصية، ورغم أنه تزوج ثانية، إلا أنه كان يعيش لصيقًا بالمرأة التى أحبها دائمًا، كما أنه كان شخصية معقدة جدًا، رغم القناع الذى يبدو به كرجل مهذب من العصر الفيكتورى، الذى كان يبدو به أمام الناس.

«المترجم»

الشريف خاطر

الفصل الأول

قدوم الأسبانى

عندما كنت فى الثامنة عشرة والنصف من عمرى، تصادف أن مر صديق لوالدى، ذات مساء من شهر مايو عام ١٥٠٠، على منزلنا وهو فى طريقه إلى يارموث، وأثناء كلامه ذكر بأن هناك سفينة إسبانية رست فى المرفأ[١]. تفكر أبى فى هذا الكلام، وسأل عمن يكون ربانها، فأجابه صديقه بأنه لا يعرف اسمه، لكنه رآه فى ساحة السوق، رجل طويل فخيم يرتدى ملابس فاخرة، ووجهه مليح وعلى جبهته علامة.

شحب لون أمى عند سماعها هذه الأنباء، وقالت بصوت خفيض بالاسبانية (فقد كانت إسبانية):

---

(١) المرفأ: مكان تستطيع السفن الرسو فيه بالقرب من الشاطئ.

- «أيتها العذراء! أرجو ألا يكون هو».

بدا الخوف على والدى أيضًا، وأخذ يسأل ضيفنا باهتمام عن شكل الرجل، لكنه لم يصل إلى معرفة شئ جديد، بعد ذلك ألقى الرجل التحية وركب حصانه وانصرف.

لم تنم أمى فى تلك الليلة على الإطلاق، قضت ليلتها جالسة على الكرسى الهزاز، تفكر فى شئ لا أعرف كنهه. وكما تركتها عندما ذهبتُ إلى الفراش، وجدتها كما هى عندما نهضت عند الفجر. أستطيع أن أتذكر أننى عندما دفعت الباب قليلاً، رأيت وجهًا شاحبًا فى ضوء صباح ذلك اليوم من أيام شهر مايو، بينما كانت جالسة وعيناها مثبتتان على النافذة.

قلت: «لقد نهضت مبكرًا، يا أمى».

أجابت: «أنا لم أنم على الإطلاق، يا توماس».

- «لماذا؟ مما تخافين؟».

- «أخاف من الماضى ومن المستقبل، يابنى. أرجو أن يكون والدك قد عاد!».

فى حوالى الساعة العاشرة من ذلك الصباح عاد والدى. فهرعت أمى لملاقاته، وقد كانت تترقب وصوله عند النافذة.

قفز من فوق حصانه وأحاطها بذراعه، وقال: «فلتهدأى، يا حبيبتى، فلا يمكن أن يكون هو. فهذا الرجل له اسم آخر».

فسألته: «هل رأيته؟».

- «كلا، فهو لم يبرح سفينته هذه الليلة، وبالتالى أسرعت بالعودة إليك لأطمئنك، لأننى أعرف مخاوفك».

- «كان من الممكن أن أطمئن تمامًا لو أنك رأيته، يا زوجى. فربما انتحل اسمًا آخر».

فأجاب أبى: «أنا لم أفكر فى ذلك أبدًا، يا حبيبتى. لا داعى للخوف. ولو جرؤ وخطا خطوة واحدة فى هذه القرية، فسوف نعرف كيف نتعامل معه. لكنى متأكد أنه ليس هو».

قالت: «شكرًا للمسيح إذن!» ثم بدءا يتكلمان بصوت خفيض.

ولما شعرت بأنهما ليسا بحاجة إلىّ، تناولت عصاى الغليظة وسرت عبر ممر الجياد متوجهًا إلى الجسر العمومى، وفجأة سمعت أمى تنادينى بالعودة.

قالت: «قبلنى قبل أن تذهب، يا توماس، ربما تتساءل عما يعنى كل ذلك. فى يوم ما سيقول لك أبوك. الأمر يتعلق بشبح يُحلق فى سماء حياتى منذ عدة أعوام، وقد كنت أظن أنه انتهى إلى الأبد».

قلت لها وأنا أضحك وأهز عصاى: «لو كان ذلك بسبب رجل، فمن الأفضل له أن يظل بعيدًا عن هذه».

فأجابت: «إنه رجل بالفعل، لكن ينبغى على المرء ألا يتعامل بالضرب يا توماس، لوحدث وقابلته».

. «من الممكن يا أمى، لكن القوة هى أحسن وسيلة فى النهاية، لأن الأشطر لديه حياة لا يود أن يخسرها».

قالت وهى تبتسم وتقبلنى: «أنت جاهز تمامًا لاستخدام قوتك، يابنى، لكن تذكر المثل الأسبانى القديم الذى يقول: (إن من يضرب بشدة، هو الذى يضرب أخيرًا).

فقلت لها، وأنا أنصرف: «وهناك مثل آخر يا أمى يقول: «إضربه قبل أن يضربك».

بعدما سرت بضع خطوات، شىء ما جعلنى أتطلع إلى الخلف، لا أعرف لماذا. كانت أمى تقف بجوار الباب المفتوح، وتراقبنى بحزن وبعينين مليئتين بإحساس الوداع.

لم أرها ثانية حتى ماتت.

بعد ظهر ذلك اليوم، فيما بين الساعة الرابعة والخامسة، وبينما كنت أسير بجوار التل الصغير على الطريق الذى يؤدى إلى

منطقة الأشجار، رأيت رجلاً فوق ظهر حصان أخذ يتطلع إلى الممر، ثم استدار ناحية اليمين، ثم عاد إلى ا لخلف حيث الأراضى العادية، ثم مضى فى الطريق وبدا كما لو أنه لا يعرف إلى أى اتجاه يسير. ولما كنت قوى الملاحظة، فقد اكتشفت على الفور أن هذا الرجل غريب عن البلد، رغم أن ذهنى لم يكن فى أحسن حالاته.

كان فارع الطول ذا مظهر نبيل، يرتدى عباءة فخمة من القطيفة، تشدها سلسلة ذهبية معلقة فى رقبته. قدرت عمره بحوالى الأربعين، لكن وجهه بصفة خاصة هو الذى لفت نظرى، إذ كانت تكتسيه فى هذه اللحظة مسحةٌ مرعبة. كان طويلاً ورفيعًا وذا انحناءة كبيرة، عيناه واسعتان، تبرقان مثل الذهب تحت أشعة الشمس، وفمه صغير وشكله جيد، لكنه كان يكتسى بسخرية شيطانية قاسية، أما جبهته فكانت عريضة تشير إلى أنه رجل ذكى وبها أثر جرح خفيض. أما باقى هيئته فكانت داكنة كأهل الجنوب، وشعره الأسود المتجعد كان يشبه شعرى، كما كانت له لحية مدببة بنية اللون.

فى الوقت الذى كنت أرى فيه كل ذلك قادتنى قدماى لأصبح بالقرب من ذلك الغريب، فرآنى لأول مرة. تبدل وجهه على الفور، وتلاشت عنه قسوته وأصبح لطيفًا بهى الطلعة. رفع قبعته بكثير

من الاحـتـرام وقـال بضع كلمـات بإنجليـزيـة ركيكة، اسـتطعت أن ألتقط من كل مـا قاله كلمـة يارموث؛ ولما تبين أننى لم أفـهم منه شـيـئًا لعن اللغـة الإنجليـزية وكل من يتكلم بهـا، بصـوت عـال بلغـة اسبانية جيدة.

فقلت له بالاسـبانيـة: «هل يتكرم السيد ويتحدث بالاسبانيـة، فربما يكون فى مقدورى مساعدتك».

فقال باندهاش: «ماذا! أنت تتكلم الأسبانية، أيها الشاب!. رغم أنك لست أسـبـانيًا، إلا أن وجـهك من الممكن أن يوحى بذلك! يا إلهى! لكن ذلك شىء غريب!» ثم رمقنى باهتمام شديد.

أجبته: «ربما يكون الأمر غريبًا، يا سيدى، لكننى فى عجلة من أمرى.

سأكون سعيدًا للإجابة على سؤالك، ودعنى أنصرف».

أعطيته إيحاء بأننى سأنصرف، فتكلم.

- «أنا لن أعطلك كثيرًا. هل تتكرم وتدلنى على طريق يارموث، لأننى لست متأكدًا منه، وسرت فى طريق آخر، وبلدكم الإنجليزى ملىء بالأشجار، ولا يستطيع المرء أن يرى لمسافة ميل أمامه».

سـرت عـدة خطوات على الممـر الذى يتصل بالطريق فى هذا المكان، وأشـرت إليـه على الطريق الذى يجب عليـه أن يسلكه بعـد الكنيسـة.

بينـمـا كنت أشرح لـه، لاحظت أن الغـريب يراقب وجـهى بعناية وبخـوف داخلى، كـمـا بدا لى. عنـدمـا انتـهيت، رفع قـبـعتـه ثانيـة وشكرنى، قائلاً:

- «هل من الممكن أن تتكرم علىّ وتخبرنى باسمك، أيها الشـاب؟

أجـبت بـجـفـاء، لأننى لم أسـتلطف هذا الـرجل: «ومـاذا يعنى اسمى بالنسبة لك؟ أنت لم تقل لى عن اسمك».

قال: «كـلا لا داعى، فأنا أسـافر تحت اسم مـستعار أنا كنت أود فقط أن أعرف اسم الشـخص الذى قـدم لى معـروفًا، لكن يبـدو أنه ليس ودودًا، كما كنت أظن» وهـز لجام حصانه.

قلت: «أنـا لسـت خـجـلاً من اسـمى. إنـه اسم شـريف إلى حـد كبير، وإذا أردت أن تعرف اسمى، فهو توماس وينجفيلد».

صـاح قـائلا: «لقـد خـمنت ذلك». ومـا إن قـال ذلك حتى تحـول وجهـه إلى وجه شيطان. وقبل أن تتاح لى الفـرصـة لكى أعى ذلك، قفز من فوق حصانه ووقف على بعد ثلاث خطوات منى.

قـال: «ياله من يوم سـعـيـد! الآن سـوف نرى مـدى صـحـة النبوءات»ثم سحب سيفه الفضى من غمده، وأردف قائلاً: «اسم مقابل اسم؛ چوان دى جارسيا يقدم تحياته إليك، يا توماس وينجفيلد». الآن فقط وقد يبدو ذلك غريبًا، دار بذهنى كل ما سمعته عن الغريب الإسبانى، والأنباء التى نقلها من جاء من يارموث، وأقلقت أبى وأمى إلى حد عميق.

قلت لنفسى: «لابد أن يكون هو». لم أقل شيئًا آخر، لأنه اقترب منى شاهرًا سيفه، وطرفه المدبب مصوب نحوى، فقفزت جانبًا بنية الفِرار، لأننى، كنت غير مسلح فيما عدا عصاى، فعلت ذلك دون خجل، لكن قفزتى بقدر ما استطعت لم تجنبنى طرف سيفه، فقد كان مصوبًا نحو قلبى، كما مزق كُم ذراعى الأيسر، وأصاب لحمى إصابة خفيفة. إلا أن ألم الجرح بدد كل ما لدى من رغبة فى الفِرار، وتملكنى غضب مكبوت، دفعنى إلى الرغبة فى قتل ذلك الرجل الذى هاجمنى هكذا دون مبرر. كانت عصاى البلوطية الثقيلة فى يدى، وإذا تحتمّ علىّ أن أقاتله، فلابد أن أستخدمها بمهارة على قدر ما أستطيع.

كان الأسبانى رجل سيف بارع، ولم أكن مدربًا على هذا الفن، الذى لم يكن منتشرًا فى انجلترا، وأنا فى هذه السن. لكنه عندما رأى العصا الثقيلة تتماوج فوق رأسه، نسى براعته، ورفع يده

ليتحاشى الضربة. نزلت الضربة على ظهر يده، وياللعجب! سقط سيفه على العُشب. لم أعطه فرصة، لأن الدم كان يغلى فى رأسى. أصابته الضربة على شفتيه، فكسرت إحدى أسنانه، وأوقعته على الأرض. أمسكته من ساقه وأوسعته ضربًا بلا رحمة فى كل أنحاء جسمه فيما عدا الرأس، لأننى لم أكن أود أن أقتل إنسانًا اعتقدت أنه مجنون.

شرعت أضربه فى الحقيقة، حتى كلت ذراعاى، فبدأت أركله، وكان أثناء ذلك يتلوى مثل الحية الجريحة وهو يسب ويلعن بفظاعة، لكنه لم يصرخ أو يطلب الرحمة. أخيرًا توقفت وتطلعت إليه، لم يكن منظره يُغرى بالنظر إليه.. فى الحقيقة، بسبب جروحه وقذارته بوسخ الطريق، كان من الصعب التعرف على ذلك الشخص الوسيم الذى التقيت به منذ خمس دقائق مضت. لكن الأقبح من كل ذلك، تلك النظرة الوقحة فى عينيه وهو ملقى على ظهره، ويتطلع إلىّ فى غضب.

قلت: «والآن، يا صديقى الأسبانى، لعلك تعلمت درسًا، خاصة وليس هناك ما يمنعنى من أن أفعل بك مثلما كنت ستفعل بى، أنا الذى لم أسبب لك أذى على الإطلاق؟».

أخذت سيفه ووضعته على حنجرته.

فقال بصوت واهن: «لقد آذيتنى بشدة، أيها الكلب اللعين!. من الأفضل أن أموت على أن أحيا وأتذكر هذا الموقف المخجل».

قلت: «كلا، أنا لست قاتلاً أجنبيًا حتى أقتل رجلاً أعزلاً. سوف تقف أمام القاضى لتدافع عن نفسك. والجلاد لديه حبل لأمثالك».

قال بصوت خفيض مشحون بالألم وأغمض عينيه كما أنه سيغمى عليه: «إذن، فلابد أن تجرجرنى إلى هناك».

كان حصانه على بعد عشرين ياردة يرعى العشب، فاتجهت إليه وفككت لجامه وقيدت به الأسبانى إلى شجرة صغيرة على جانب الطريق بقدر ما استطعت.

قلت: «والآن، لتبق هنا، حتى أعود إليك، وآخذك».

ترك توماس الاسبانى مقيدًا، وذهب ليرى صديقًا يعيش بالجوار.

عندما انتهيت من مهمتى مع صديقى، تذكرت الأسبانى. عدت لآخذه وأتوجه به إلى القاضى، الأمر الذى كان سيسعدنى القيام به. لكننى عندما عدت إلى المكان الذى تركته فيه، اكتشفت أن شخصًا أحمق قد تعاطف معه، لأن الأسبانى لم يكن موجودًا، ولا يوجد سوى عبيط القرية، المدعو بيلى مينز، الذى كان واقفًا ينظر ببلاهة إلى الشجرة التى كان الأسبانى مقيدًا إليها، وإلى قطعة نقود فضية فى يده.

سألته: «أين الرجل الذى كان مربوطًا هنا، يا بيلى؟».

أجاب: «لا أعرف، يا سيد توماس، إنه الآن فى منتصف المسافة إلى المكان الذى يتجه إليه، على ما أعتقد، قياسًا إلى السرعة التى يسير بها، لأننى وضعته على حصانه».

- «وضعته على حصانه، أيها الأحمق؟ منذ متى كان ذلك؟».

- «منذ متى! آه، منذ ساعة تقريبًا، أو ربما ساعتين، أنا لا أهتم بالوقت. أوه! ياللسرعة التى انطلق بها. الشىء المثير للدهشة، أن هذا الرجل المسكين، لم يكن يستطيع الكلام، لكنه كان يبكى مثل النعجة. لكن بيلى فك رباطه وأمسك حصانه ووضعه عليه، وحصل على هذه القطعة من النقود مقابل عمله الطيب. أوه! كم كان سعيدًا لإطلاق سراحه. وياللسرعة التى انطلق بها!».

صحت فى غضب: «أنت أكبر مغفل عرفته فى حياتى، يا بيلى مينز. هذا الرجل كان سيقتلنى، فتغلبت عليه وقيدته، ثم تأتى أنت لتفك قيده».

- «هذا الرجل كان سيقتلك، يا سيدى، وأنت تغلبت عليه وقيدته! فلماذا إذن لم تقف إلى جواره تراقبه حتى أحضر أنا، وكنا حملناه سويًا إلى القاضى؟ وكان سيصبح أضحوكة بلا شك. أنت تقول إننى عبيط... لكن ضع نفسك مكانى، عندما تجد رجلاً

مغطى بالدماء والجروح ومقيدًا إلى شجرة، ألم تكن تفك قيوده؟. وعلى أى حال فلقد ذهب، ولم يبق منه سوى تلك». ثم قذف بقطعة النقود فى الهواء.

اكتشفت أن كلام بيلى معقول وأن الخطأ خطأى، فانصرفت دون أن أنطق بكلمة.

سرت على الممر المتاخم لشاطئ النهر، حيث تنتشر الأعشاب موازية للشاطئ. أثناء سيرى رأيت شيئًا أبيض ملقى فوق الأعشاب، فدفعته جانبًا بطرف سيف الأسبانى، دون اهتمام. لكن شكله ظل عالقًا بذهنى، حتى تجاوزت المكان بثلاثمائة ياردة تقريبًا، وعندما اقتربت من البيت، عاودنى شكله ثانية وهو ملقى بلونه الأبيض الرقيق فوق الأعشاب. حدث نوع من التداعى فى ذهنى، إلى سيف الأسبانى الذى نحيت به هذا الشىء جانبًا، ومن السيف إلى الرجل نفسه. وما الدافع لوجوده فى القرية؟... لابد أنه دافع شرير.. بلا شك.. ولماذا أخذ يتفرس فىّ كما لو أنه ارتعب منى، ولماذا انقض علىّ عندما عرف اسمى؟.

وقفت مكانى بلا حراك، أتطلع إلى أسفل، فوقعت عيناى على آثار أقدام مطبوعة على رمل الطريق المبتل. أحد هذه الآثار كان لقدم أمى. الذى أكاد أقسم بأننى أستطيع أن أميزه من بين ألف

أثر، إذ لا توجد امرأة فى هذه الناحية لها قدم أمى الصغير. واكتشفت أثناء تتبعى له، وجود أثر آخر تصورت فى البداية أنه لامرأة أخرى، لكنه كان مضمومًا من الأمام. واكتشفت فى تلك اللحظة أنه أثر لحذاء لا يشبه أحذية شاهدتها من قبل، فطرفه مدبب من عند أصابع القدم. وعلى حين فجأة تذكرت أن الأسبانى كان يلبس حذاء من هذا النوع، رأيته بينما كنت أتكلم معه، وأن آثاره هى التى كانت تتابع آثار أقدام أمى. ثم عرفت أيضًا، قطعة القماش البيضاء التى نحيتها جانبًا. كانت غطاء رأس أمى، ولم أتعرف عليها لأننى كنت أراها بشكل جميل على رأس أمى. وداهمنى وأنا أقترب من البيت.

● ● ●

إحساس بخوف مروع مؤلم. لماذا كان هذا الرجل يتابع أمى، ولماذا كان غطاء رأسها ملقى هكذا على الأرض؟.

استدرت وأخذت أعدو مثل الغزال عائدًا إلى المكان الذى وجدت فيه شال أمى. كانت آثار الأقدام تسبقنى، حتى وصلت إلى المكان. نعم الشال يخصها، لكنه ممزق بيد وقحة؛ لكن أين هى؟.

انحنيت فوق آثار الأقدام مرة أخرى وقلبى يدق بشدة لفك معالم آثار الأقدام. هنا اختلطت الآثار ببعضها، كما لو أنهما وقفا

قريبين من بعضهما، ثم تحركت الآثار فى ذلك الاتجاه مما يدل على أنه كان هناك صراع. ثم أخذت أطوف بالمكان مثل كلب صيد، وتوجهت ناحية حافة النهر، ثم إلى الجسر. وجدت الآثار مرة ثانية. آثار أقدام هارية تتبعها آثار أقدام أخرى. سارا على الجسر لمسافة خمسين ياردة أو أكثر، حتى وصلا إلى شجرة بلّوط كبيرة، واختلطت الآثار مرة ثانية، لأن المُطَارِدَ لحق بالمُطَارَدَة.

الآن خمنت كل ما حدث وغدوت مجنونًا من الرعب. أخذت أتلفت يمينًا ويسارًا، حتى عثرت على مزيد من آثار الأقدام، كانت للأسباني. كانت آثار الأقدام غائرة، كما لو أن صاحبها يحمل حملاً ثقيلاً. تتبعت الآثار؛ فقادتنى فى البداية إلى أسفل التل باتجاه النهر، ثم انحرفت جانبًا إلى منطقة توجد بها أعشاب كثيفة. فى أبعد جزء من هذا المكان كانت الأفرع منسدلة إلى أسفل، وبحيث يمكن إخفاء أى شىء فيها. أزحت الأفرع جانبًا، فوجدت شيئًا يشع بياضًا تحت الضوء المتسرب من خلال الأفرع، كان وجه أمى الميتة.

● ● ●

وتحت الضوء رأيت وجه أمى الميتة!

الفصل الثانى

قَسم توماس

وقفت برهة متخشبًا من الذعر، أنظر بعينين متسعتين إلى وجه أمى الحبيبة الميتة. ثم انحنيت لأرفعها فوجدتها مطعونة فى الصدر.

أدركت كل شىء فى هذه اللحظة. كان ذلك من فعل الأسبانى الغريب، الذى قابلته، وحاول قتلى بسبب حقده الدفين، عندما عرف أننى ابن هذه المرأة. هذا الشيطان كان بين يدى، لكنى تركته يهرب منى، أدركت ذلك وأخذت أذرف دموع الأسى والغضب والندم. ثم عدت مسرعًا إلى البيت كشخص مجنون.

قابلت أبى وأخى چيوفرى عند الباب، بعد أن عادا من سوق بانجاى، وما إن شاهدا وجهى، حتى سألانى فى نفس واحد: «ماذا حدث بحق الشيطان؟».

نظرت إلى وجه أبى ثلاث مرات قبل أن أستطيع الكلام، خشية أن تقتله المفاجأة. لكن كان لابد أن أتكلم فى النهاية، ولطالما سأتكلم فسيكون الكلام لأخى چيوفرى. قلت له: «أمنا ترقد مقتولة بجوار تل ڤاين يارد. رجل أسبانى هو الذى فعل ذلك، اسمه چوان دى جارسيا». عندما سمع أبى هذا الكلام إسودّ وجهه وانعصر قلبه من الألم، وتدلى فكه، وصدرت من فمه صرخة ألم. فرفع وجهه الشاحب، وقال: «أين ذلك الأسبانى؟ هل قتلته؟».

- «كلا، يا أبى. حدث أن قابلته صدفة فى جريزول، وعندما سمع اسمى كاد أن يقتلنى، لكننى ضربته وأخذت منه سيفه».

- «وماذا بعد ذلك؟».

- «بعد ذلك تركته ينصرف، ولم أكن أعلم شيئًا عن فعلته التى نفذها ضد أمى، فيما بعد سأقص عليكما كل شىء».

- «تركته يذهب، يابنى! تركت چوان دى جارسيا يذهب! ليكن فى علمك يا توماس، أن لعنة الله ستحل عليك، حتى تجده، وتنهى ما بدأته اليوم».

- «لا تلعنى، يا أبى، فضميرى يعذبنى، خذا فرسيكما واتجها إلى يارموث، حيث ترسو سفينته، فقد توجه إلى هناك منذ ساعتين. ربما يكون فى استطاعتكما القبض عليه قبل أن يبحر».

دون أن ينطقا بكلمة، ركبا فرسيهما وانطلقا بأقصى سرعة خلال الظلام.

ركضا بسرعة، لجودة حصانيهما، ووصلا إلى بوابة يارموث بعد ساعة ونصف تقريبًا. لكن الرجل كان قد اختفى. تتبعا أثره حتى مياه الشاطئ، واكتشفا أنه أبحر قبل قليل فى قارب صغير كان فى انتظاره، أوصله إلى سفينة كانت راسية فى المرفأ، وعلى استعداد للإبحار، وبالفعل كانت قد أبحرت وتاهت فى الظلام.

بعد أن مضى أبى وأخى، استدعيت الخدم وأخبرتهم بما حدث. ثم ذهبنا بالمصابيح لأن الظلام كان دامسًا، ووصلنا إلى منطقة الأعشاب حيث يرقدجسد أمى. اقتربت أنا أولاً، لأن الرجال كانوا خائفين، وكنت أنا كذلك أيضًا رغم أننى لا يجب أن أخاف من جسد أمى الميت، التى كانت تحبنى وتعطف علىّ عندما كانت حية، لكننى لم أعرف لماذا. رغم إدراكى لذلك، إلا أننى اقتربت منها ورأيت عينيها تلمعان، وسمعت صوت تحطم أعواد الأعشاب، فكدت أسقط من الخوف، رغم تأكدى أن ذلك قد يكون مجرد ثعلب أو كلب ضال جاء إلى مكان الميتة.

تماسكت وناديت الآخرين، وفى النهاية أرقدنا جسد أمى فوق لوح باب خُلع من مفصلاته، وحملناها إلى البيت للمرة الأخيرة. وأصبح هذاالمكان بالنسبة لى مكانًا كريهًا.

وصلنا إلى البيت حزانى بحملنا هذا، وتسلمتها النسوة باكيات، وبدأن في تجهيزها. في هذا الوقت لم يكن عليّ أن أتغلب على أحزانى فقط، بل كان عليّ أيضًا أن أواسى أختى مارى، التى كنت أخشى أن تجن من الحزن والرعب، أخيرًا ألحت على نفسها لتنام، وذهبت أنا إلى الرجال الجالسين فى المطبخ حول النار وبدأت أتحرى منهم عن الموقف. علمت منهم أنه قبل أكثر من ساعة لمقابلتى للأسبانى، شوهد رجل غريب يرتدى ملابس فاخرة يسير على الطريق المجاور للكنيسة، وكان قد ربط حصانه على قمة التل، ثم وقف مرتبكًا، حتى خرجت أمى، فتتبعها، كما عرفت أيضًا أن أحد الرجال الذين كانوا يعملون فى الحديقة سمع صراخًا، لكنه لم يُعر أهميته لذلك. وفى الحقيقة بدت لى قريتنا دتشنهام فى هذا اليوم بمثابة حضانة ممتازة للمغفلين والحمقى، الذين كنت أنا أولهم وأكثرهم حمقًا.

عندما طلع النهار، عاد أبى وأخى من يارموث على خيول مستأجرة، لأن خيولهم أنهكت تمامًا. بعد الظهر جاءت الأخبار بأن السفينة التى انطلقت فى إثر السفينة الأخرى على أمل القبض على الأسبانى، قد عادت لسوء الأحوال الجوية.

بعد ثلاثة أيام حل موعد الجنازة، حيث كفنت أمى فى ملابس بيضاء ناصعة وتم دفنها فى ساحة كنيسة دتشنهام. كانت جنازتها

من أكثر المشاهد حزنًا، لمرارة الحزن الذى تملك أبى، الذى تجلى فى بكائه المفجع، كما أن أختى أغمى عليها بين ذراعىّ. كانت دموع الجميع تنهمر فى الكنيسة، فيما عدا القليل، فقد كانت محبوبة من الجميع لمعاملتها الرقيقة وطيبة قلبها. لكنها الآن وصلت إلى نهاية الطريق، وهاهى السيدة الإسبانية النبيلة والزوجة الإنجليزية، تُترك هكذا لرقادها الطويل فى كنيسة قديمة.

عندما انتهى كل شىء عدت إلى البيت. كان أبى يجلس فى الحجرة الأمامية منطويًا على حزنه وإلى جواره يجلس أخى. بدأ يهاجمنى بكلمات قاسية مريرة، لأننى تركت القاتل يهرب عندما أوقعه الله فى يدى.

قال أبى: «اسمع، يا توماس. إن دم أمك دين بين يديك».

استمعت إليه، لكنى لم أستطع تحمل ظلمه لى أكثر من ذلك.

قلت: «هذا ظلم، وأقولها حتى لأبى. لقد قتل الرجل أمى قبل أن أقابله، وضل طريقه أثناء عودته ليلحق بسفينته فى يارموث، فكيف إذن يكون دم أمى دينًا بين يدىّ؟. لماذا، لم تحدثنى يا أبى عن مخاوفك من هذا الأسبانى؟ لقد سمعت بعض كلمات متفرقة فقط، لم تشغل بالى، فقد كان ذهنى مشغولاً بأشياء أخرى. والآن سأقول لك شيئًا. لقد صببت علىّ اللعنات الإلهية، يا أبى، حتى

أجد هذا القاتل، وأنتهى مما بدأته. ليكن الأمر كذلك!. فلتنصبّ علىّ اللعنات الإلهية حتى أجده. أنا شاب، وأتمتع بالقوة وسرعة الحركة، وسأسافر إلى أسبانيا بأسرع ما يمكن، لاصطياده هناك، وأقتله، أو أعرف أنه مات. لو أردت إعطائى نقودًا لمساعدتى فى البحث، فلا بأس... وإذا لم ترد فسأمضى دون نقود. أقسم أمام الله وبروح أمى بأنه لن يهدأ لى بال أو أستقر فى مكان حتى أقتل قاتل أمى بنفس السيف الذى قتلها به أو أعلم أنه مات... وإما أن تنتهى حياتى نهاية أسوأ من نهايتها وتظل روحى هائمة فى السماء، ويظل اسمى ملعونًا على الأرض إلى الأبد!».

هكذا أقسمت، وكلى غضب وألم، وأنا أرفع يدى إلى السماء، لتكون شاهدًا على قسمى.

نظر إلىّ أبى بحدة، وقال: «إذا كان هذا ما تنويه حقًا، يا توماس يابنى، فلن تكون فى حاجة إلى نقود. كم أود أن أذهب أنا نفسى، لأن الدم لا يغسله إلا الدم، لكن صحتى منهارة تمامًا. اذهب ومعك دعواتى، من الصواب أن تذهب، لأنه بسبب غبائك، استطاع عدونا أن يهرب منّا.

«لكن اصغ إلىّ. سأقص عليك حكاية القاتل الأسبانى مع أمك. لم أحك شيئًا عنها من قبل، لكن الآن لابد أن أتكلم. عندما كنت

فتى، حدث أن سافرت إلى أسبانيا، وكانت هذه رغبة أبى. التحقت بأحد الأديرة فى سيفيل، لكننى تركته فيما بعد. ولمدة عام أو أكثر استطعت العيش بشكل حسن بقدر ما استطعت، لأننى خشيت العودة إلى إنجلترا كهارب، فقررت البقاء وعشت حياة ليست بالسيئة، مرة هكذا ومرة تلك، ورغم أننى خجل لذكرها، إلا أنهاكانت قائمة على المقامرة، التى كنت محظوظًا جدًا فيها. ذات ليلة قابلت ذلك المدعو جوان دى جارسيا أثناء اللعب. كان اسمه يتسم بسمعة شريرة، رغم أنه لم يكن سوى فتى صغير، لكن كان مهندم الملبس، وينحدر من أسرة أرستقراطية، وصاحب مزاج مرح. تصادف أن فاز علىّ فى لعبة النرد، ولما كان سعيدًا بذلك، فقد دعانى لزيارة بيت خالته، وأرملة عمه، وهى سيدة من سيفيل، كان لهذه السيدة ابنة وحيدة، وهى أمك. كانت أمك لويزا دى جارسيا مخطوبة لجوان دى جارسيا فى تلك الفترة دون رغبة حقيقية منها، لأن الخطوبة تمت وهى فى سن الثمانية. وتظل البنت مرتبطة ارتباطًا فعليًا - أكثر من كونه زواجًا بكل المقاييس الواقعية. لكن النساء اللاتى كن يتزوجن بهذا الأسلوب، كن فى معظم الأحوال، لا يحملن أى عاطفة حب زوجية، وهكذا كان الحال مع أمك.

«باختصار، منذ اللحظة الأولى التى وقع فيها بصر كل منا على الآخر، وقعنا فى الحب، واتفقت رغبتنا.فى أن نلتقى كلما سمحت

الظروف؛ ولم نجد صعوبة فى ذلك، لأن أمها كانت تكره چوان دى جارسيا وتخشاه، وتود أن تتحرر ابنتها من هذا الارتباط إن أمكن. فى النهاية بعدما عبرت لها عن حبى، اتفقنا سرًا على الهرب إلى إنجلترا. لكن ذلك كله وصل إلى أسماع چوان. فى البداية حاول التخلص منى بالمبارزة، لكن فُرِقَ بيننا قبل أن نستل سيوفنا، بعد ذلك استأجر محترفين لقتلى أثناء سيرى فى الشارع ليلاً، ولأننى كنت أرتدى صدرية من السلاسل الحديدية، فقد تكسرت نصال خناجرهم عليها، وبدلاً من أن أُقتل قتلت واحدًا منهم. لكن دى جارسيا لم يتوقف. فالمبارزة ومحاولة قتلى فشلتا، لكن بقيت أساليب أخرى مؤكدة للتخلص منى.

ذات ليلة وقبل اليوم المقرر لرحيلنا فوق إحدى السفن، كنت جالسًا مع أمك ووالدتها فى بيتهما فى سيڤيل، عندما دخل ستة رجال وقبضوا علىّ دون كلمة. وفى سرية وهدوء زُج بى فى السجن، لكن رغم كل ما حدث لى هناك، فلن يمنعنى ذلك من أن أتوقف عن سرد حكايتى.

«أخيرًا، وبعد مضى عام طويل من المعاناة الصعبة والرعب، فقدت الأمل، وهيأت نفسى لاستقبال الموت، جاء الخلاص، ذات مساء أحد الأيام التى كنت فيها على وشك الموت، دخل رجل إلى زنزانتى حيث كنت أرقد على حصير من القش، وطلب منى أن أتحلى بالشجاعة، لأنهم أشفقوا على شبابى ومنحونى حريتى.

فى البداية ضحكت بضراوة، لأننى تصورت أن ذلك نوع من التعذيب، وظل هذا التصور يتملكنى حتى فُكّتْ قيودى الحديدية، وألبست ملابس لائقة، وأُطلِقَ سراحى من بوابات السجن فى منتصف الليل، واعتقدت أن الذى حدث لى كرم من الله، وقفت أمام البوابات متهالكًا متحيرًا، لا أعرف إلى أين أهرب، وبينما أنا واقف جاءت إمرأة ملتفة فى عباءة سوداء وهمست لى: «اتبعنى، كانت هذه المرأة، هى أمك، فقد علمت أن مصيرى هو الموت، من خلال كلام دى جارسيا عنى بصوت عالٍ، فقررت أن تنقذنى. فشلت ثلاث خطط دبرتها، لكن الذهب نجح أخيرًا، فيما أنكرته علىّ العدالة والرحمة. وتم شراء حياتى وحريتى بمبلغ كبير جدًا.

«تزوجنا فى نفس الليلة وهربنا إلى كاديز، أنا وأمك. لقد تركت أمك، من أجل خاطرى، أمها الحبيبة وأهلها، وما تبقى لها من نقود بعدما دفعته لشراء حياتى، وبلدها، لأن حبها كان قويًا. تم ترتيب كل شىء فى كاديز، حيث كانت هناك سفينة إنجليزية اسمها «مارى» ترسو فى الميناء، وتم حجز مكان لنا. لكن السفينة لم تغادر الميناء بسبب الرياح القوية التى هبت، ولم يجرؤ ربان السفينة على الخروج بها إلى البحر. بقينا يومين وليلة فى الميناء، متخوفين من كل شىء، لا لسبب معين، ورغم ذلك كنا سعداء جدًا بحبنا.

«فى تلك الأثناء أعلن المسئولون عن إيداعى فى السجن، بأننى هربت بمساعدة سيدى الشيطان، وبدأ البحث عنى فى أنحاء البلاد. كما أن دى جارسيا اكتشف غياب عروسه المرتقبة، فخمن أنها لابد أن تكون معى.

«فى صباح اليوم الثالث، هدأت الريح، ورفعت خطافات السفينة مارى وتحركت فى مياه النهر. وبينما كانت تستدير، والبحارة يستعدون لفرد القلاع، إذا بقارب يحمل عشرين جنديًا يتبعه قاربان آخران، يطلقون النار بمحاذاة جانبى السفينة وينادون على الربان بالعودة والتوقف، للصعود إلى سطح السفينة وتفتيشها. تصادف أن كنت على ظهر السفينة فى ذلك الوقت، وفجأة وبينما كنت أستعد للإختفاء أسفل السفينة، وقف رجل، اكتشفت أنه دى جارسيا وأخذ يصرخ بأننى السجين الهارب الذى يبحثون عنه. خشى الربان أن يصعد إلى السفينة، ويقبضوا عليه هو وبقية البحارة، فقرر أن يسلمنى إليهم، لكننى، وقد استبد بى الخوف لدرجة الجنون، مزقت ملابسى وأريتهم آثار التعذيب على جسمى.

صحت فى البحارة: «أأنتم إنجليز، وتودون تسليمى إلى هؤلاء الأجانب وأنا من دمائكم؟ انظروا إلى ما فعلوه بى!» وأشرت إلى جراحى التى لم تلتئم، وأردفت قائلاً: «لو أنكم سلمتمونى إليهم، فسوف تقدمونى إلى الموت ثانية. فلتأخذكم شفقة بزوجتى وليس

بى أنا، وإذا كنتم ستشفقون علينا نحن الاثنين، فناولونى سيفًا وأنا كفيل بإنقاذ حياتى».

«فصاح أحد البحارة: «بحق الله! أنا عن نفسى سأقف إلى جانبك يا توماس وينجفيلد، لو كانوا يريدون زوجتك الجميلة، فلابد أن يقتلونى أولاً». ثم أخرج قوسًا من جرابه وشده، ووضع سهما على طرف وتره، ووجهه ناحية الأسبان فى القارب.

«بعد ذلك انفجر زملاؤه الآخرون فى الصياح: «إذا كنتم تريدون أى رجل منا، إصعدوا وخذوه، أيها الأوغاد القساة، وما شابه ذلك من شتائم!.

«عندما رأى الربان رجاله قد اجتمعوا على قلب رجل واحد، تشجع بدوره، ولم يستجب لنداء الأسبان، وأمر نصف رجاله بفك القلاع بأقصى سرعة، والباقى يكون مستعدًا لصد الجنود لوحاولوا الصعود إلينا.

«فى تلك الأثناء كان القاربان الآخران قد وصلا إلى جوار السفينة متصدين لها بعد أن أسقطوا الخطاطيف، وقام أحد رجالهم بتسلق الجنازير وكاد يصل إلى سطح السفينة، عرفته، كان أحد هؤلاء الذين يراقبوننى وأنا أتعذب. انتابنى الجنون بسبب كل ما عانيت. أخذت القوس من سوثوولد، وأطلقت السهم بعد أن جذبته جيدًا ثم تركته. لم يخطئ هدفه، لأننى كنت ماهرًا فى رمى السهام، فسقط الرجل فى البحر بسهم إنجليزى فى قلبه.

«لم يجرؤ أحد بعد ذلك على محاولة الصعود إلينا ثانية، رغم أنهم كانوا يرشقوننا بالسهام، وجرح منا رجل واحد. أمرنا الربان أن نستتر خلف جوانب السفينة، فى هذه الأثناء بدأت الريح تدفع السفينة.

بعد ذلك وقف دى جارسيا فى القارب وبدأ يسبنى أنا وزوجتى.

بدأ يصرخ بالأسبانية متوعدًا بأيمانات متعددة وألفاظ أخرى بذيئة:

- «سوف أجدك، رغم ذلك، حتى لو انتظرت عشرين عامًا، ستدفع ثمن حبك، وأنت، يالويزا دى جارسيا، كونى متأكدة من ذلك، فلتختفى فى أى مكان يحلو لك، لكننى سأجدك، وعندما نلتقى، ستعودين معى وساعتها إما أحتفظ بك، أو تكون ساعة موتك.

«أبحرنا إلى إنجلترا، واختفت القوارب خلفنا.

«هذه هى حكاية شبابى، يابنى، وكيف تزوجت أمك التى دفنتها اليوم، لقد التزم چوان دى جارسيا بكلمته».

قلت له عندما انتهى من كلامه: «كنت أود أن تخبرنا بهذه الحكاية من قبل يا أبى. فما كان لمثل هذا الشيطان الحقير أن يعيش حتى اليوم، وما تحتم علىّ أن أقوم بهذه الرحلة الطويلة.

«هذه الرحلة التى لا أعلم إلى أى مدى ستطول!».

الفصل الثالث

الوداع

بعد مرور اثنا عشر يومًا على دفن أمى، كنت على استعداد لبدء رحلتى. وتصادف أن كانت هناك سفينة على وشك الإبحار من يارموث إلى كاديز، اسمها «المغامرة»، حمولتها مائة طن، مشحونة بالصوف وبضائع أخرى للتصدير، على أن تعود بحمولة من النبيذ وأقواسٍ من خشب البلوط.

دفع أبى أجر سفرى على هذه السفينة، بالإضافة إلى أنه أعطانى خمسين جنيهًا ذهبيًا، وهذا مبلغ كبير جدًا، لم أكن أتحمل مسئوليته، ورسالة من مجموعة تجار راسخين فى يارموث إلى وكيلهم فى كاديز، يطلبون منه مساعدتى بقدر الإمكان.

كان من المقرر أن تبحر «المغامرة» فى اليوم الثالث من يونيو، وفى مساء اليوم الأول من الشهر توجهت أنا وأبى إلى يارموث.

عندما صعدنا تلاً صغيرًا على يسار مدينة بنجاى، أبطأت حصانى وتطلعت إلى الوادى الجميل حيث ولدت، وأحسست بأن قلبى يكاد ينفطر. لو كنت أعلم أن كل ذلك سوف يحدث لى، قبل أن تقع عيناى على المشهد ثانية، فأعتقد حقيقة أنه كان لابد أن ينفطر. لكن الله الذى شاءت حكمته أن تثقل كاهل البشر بأحمال ثقيلة، قد أنقذهم من ذلك؛ لأننا لو كنا نتنبأ بالمستقبل، فلن تكون لدى الكثيرين الرغبة فى الحياة.

فى اليوم التالى صعدت إلى ظهر «المغامرة» ثم أبحرنا. قبل أن أرحل رق قلب أبى تجاهى، لأنه تذكر أننى كنت محبوبًا جدًا من قبل أمى، وخشى ألا نلتقى ثانية. لدرجة أنه غير رأيه فى الساعة الأخيرة قبل سفرى وأراد أن يمنعنى من الرحيل. لكن بعد أن بدأت مشروع بحثى، وتحملت مرارة الوداع، فلن أعود ثانية، لأصبح أضحوكة بالنسبة لأخى والجيران.

قلت لأبى: «لقد فات أوان هذا الكلام جدًا، يا أبى. لقد كنت ترغب فى ذهابى وحفزتنى لذلك بكلمات مريرة، والآن لابد أن أذهب حتى لو كنت أعلم أننى سأموت خلال اسبوع. لأن القسم الذى أخذته على نفسى من الصعب التراجع فيه، حتى أحقق اللعنة التى تنصب علىّ».

قال أبى وهو يتنهد: «ليكن الأمر كذلك، يابنى، إن وفاة أمك القاسية جعلتنى مجنونًا، وقلت لنفسى ما جدوى أن أحيا بكل هذا الحزن، وأنا أعتقد بأننى لن أعيش طويلاً، لأن قلبى تحطم، وربما ينبغى علىّ أن أتذكر بأن الجزاء بيد الله، أرجو ألا تقسو علىّ بفكرك، يا ولدى، فقد لا تتاح لنا الفرصة لأن نلتقى ثانية، لأننى أحبك، وما جعلنى أتصرف معك بخشونة، هو حبى العميق لأمك».

- «أعلم ذلك، يا أبى، أنا لست غاضبًا».

- «لا تنس ربك أو بلدك، أينما توجهت، يا توماس: تحاشى العراك، خذ حذرك من النساء فهن نقطة ضعف الشباب، وأمسك لسانك، واضبط أعصابك المتوترة».

ثم أحاطنى بذراعيه، ودعا العناية الإلهية لترعانى، وافترقنا.

لم أره ثانية، ورغم أنه كان فى أواسط العمر، إلا أنه مات خلال عام من رحيلى، بالسكتة القلبية فى كنيسة دتشنهام، بينما كان واقفًا بجوار قبر أمى، بعد صلاة يوم أحد. وآلت أرضه وبيته إلى أخى.

يرحمه الله!.

أما عن رحلتى إلى كاديز فهناك القليل لأقوله. قابلتنا رياح معاكسة فى خليج باسكاى ودفعت بنا إلى ميناء ليبسون، حيث

استرحنا. وأخيرًا وصلنا بسلام إلى كاديز، بعد قضاء أربعين يومًا في البحر،

● ● ●

(بعد وصول توماس إلى سيفيل، أصبح تلميذًا، وتصادق مع طبيب غريب الشأن، لكنه ثرى اسمه آندرس دى فونسكا).

الفصل الرابع

اللقاء الثانى

بعد أن أقمت فى بيت آندرس دى فونسكا بدأت أعد نفسى للقيام بتحريات عن دى جارسيا، لكن دون جدوى.

وفى الحقيقة، عندما كنت أتأمل الأمر بهدوء، كان يبدو لى أن فرصتى ضئيلة فى العثور عليه فى هذه المدينة.

لكن لابد أن أحكى لكم كيف قابلت غريمى وعدوى دى جارسيا للمرة الثانية. كنت أتجول حوالى منتصف الليل فى منطقة منعزلة من المدينة القديمة. لم يكن من المأمون أن تكون وحدك فى مكان مثل هذا وفى ساعة مثل هذه، لكن المهمة التى كلفنى بها سيدى، كانت تتطلب أن أقوم بها وحدى، لم يكن لدىّ أعداء أعرفهم، وكنت

مسلحًا بنفس السيف الذى أخذته من دى جارسيا فى دتشنهام، السيف الذى قتل أمى، والذى احمله على أمل استخدامه فى إنزال العقاب به. أما عن كيفية استخدام هذا السلاح فقد اكتسبت مهارات ممتازة حتى الآن، لأننى كنت كل صباح آخذ دروسًا فى هذا الفن.

وبعد أن أنهيت مهمتى سرت ببطء فى طريق عودتى إلى البيت، حتى وصلت إلى قنطرة مائية تتصل بنهر (جوادليكفر)، فانحنيت على سورها المنخفض باسترخاء لكى أتأمل جمال الليل، ولندع أولئك الذين شاهدوا هذا المنظر من قبل، يقررون عما إذا كان هناك منظر أجمل من هذا المنظر، وضياء قمر شهر أغسطس يسطع فوق صفحة مياه نهر جوادليكفر، وتلك المنازل القديمة المحيطة به.

وبينما كنت متكئًا على السور أتأمل المنظر، رأيت رجلاً يعبر الدرجات التى بجانبى ثم يتلاشى فى ظلال الشارع، لم يلفت نظرى، إلا بعد أن سمعت همهمات من بعيد، التفت برأسى فوجدت الرجل يتحدث مع سيدة قابلها عند رأس الممر الذى يؤدى إلى قنطرة المياه. اقتربا منى وكان الرجل يتهرب منها وهى تلاحقه، حتى أصبحا على مرمى سمعى.

قالت له: «أنت بالتأكيد لن تتركنى بعد أن تزوجتنى وكل ما وعدتنى به، لن يطاوعك قلبك لكى تتخلى عنى. لقد ضحيت بكل شىء من أجلك. أنا فى خطر كبير. أنا ...». وضاع صوتها ولم أستطع التقاط كلماتها.

بعد ذلك تكلم هو: «أنت تعرفين يا جميلتى أننى أعبدك الآن ودائمًا. لكن لابد أن نفترق لفترة. ووداعنا هذا لفترة، وأنا قلبى محطم. إلا أنه «بين السماوات الصافية، عيون أخرى تلمع، وأنا...» ثم بدأ يتكلم بصوت خفيض ولم أستطع التقاط كلماته.

وبينما كان يتكلم، بدأ جسدى يهتز. كان المشهد مؤثرًا فى الحقيقة، لكن ليس هذا ما أثارنى لهذه الدرجة، إنما صوت الرجل الذى ذكرنى بـ... هذا مستحيل!؟.

قالت السيدة: «أوه! لن تكون بهذه القسوة حتى تتركنى، تترك زوجتك هكذا وحيدة فى مثل هذا الخطر. خذنى معك يا چوان، أرجوك!». وأمسكته من ذراعه وتشبثت به.

دفع يدها عنه فى خشونة، وأثناء ذلك سقطت عن رأسه قبعته العريضة، فلاح وجهه فى ضوء القمر. يا إلهى! كان هو - چوان دى جارسيا ولا أحد سواه! لا يمكن أن أخطئه. هاهو بوجهه القاسى، وجبهته العريضة وبها أثر الجرح، وفمه الرفيع القاسى، ولحيته

المدبية وشعره المجعد. لقد أوقعته المصادفة بين يدى، ولابد أن أقتله.

تقدمت نحوه ثلاث خطوات وأنا أسحب سيفى ووقفت أمامه.

فقال مندهشًا وهو يتراجع إلى الخلف: «ماذا، يا حبيبتى، هل أحضرت معك بلطجيًا لمساعدتك؟ ما شأنك، يا سيد؟. هل أنت هنا لتدافع عن سيدة جميلة وقعت فى مأزق؟».

«أنا هنا، يا جوان دى جارسيا، لآخذ ثأر سيدة قُتلت. هل تذكر شاطئ نهر معين هناك فى إنجلترا، عندما قابلت سيدة كنت تعرفها، وتركتها ميتة؟.. وإذا كنت قد نسيت، فربما على الأقل تذكر هذا السيف الذى أحمله فى يدى، وسأقتلك به». ورفعت السيف حتى صار بين عينيه.

- «يا إلهى! إنه ذلك الشاب الإنجليزى الذى...» ثم توقف.

- «إنه توماس وينجفيلد الذى ضربك وقيدك، وهو الآن ينوى أن ينهى ما بدأ هناك، كما أقسم. اسحب سيفك يا جوان دى جارسيا، وإلا سأقتلك حيث تقف مكانك».

عندما سمع دى جارسيا هذا الكلام، اربد وجهه، وأصبح مثل ذئب وقع فى فخ، واكتشفت أنه لا ينوى منازلتى، لا لعدم شجاعته، فالحق يُقال أنه لم يكن جبانًا، لكن بسبب خوف مجهول. كان

يخشى منازلتى، كما علمت فيما بعد،لأنه كان يعتقد أنه سيلاقى حتفه على يدى، ولهذا السبب أساسًا حاول أن يقتلنى عندما تقابلنا لأول مرة.

قال بدهاء: «المبارزة لها قوانينها، يا سيد، فليس من المعتاد المبارزة فى وجود سيدة. وإن كنت ترى أن هناك شيئًا ضدى، فسوف أنازلك فى الوقت والمكان الذى تحدده». أثناء كل ذلك كان يتطلع من فوق كتفيه ليلتمس طريقة للهرب.

أجبته: «ستنازلنى الآن، اسحب سيفك، وإلا قتلتك!».

سحب سيفه، وبدأنا النزال حتى تطاير الشرر من السيفين وتردد صدى اصطدامهما فى الشارع الهادئ. فى البداية كان متفوقًا علىّ بعض الشىء، لأن كراهيتى له جعلتنى مندفعًا فى قتاله، لكن سرعان ما هدأت وأخذت أقاتله بحرفية. كنت أنوى قتله فعلاً - وواثقًا تمامًا من قتله لو لم يتدخل أحد بيننا. صحيح أنه كان مبارزًا أفضل منى، لكن كان لدىّ شبابى والحق إلى جانبى، ولدىّ عينا صقر ومعصمٌ من حديد.

وبهدوء ضغطت عليه حتى تراجع إلى الخلف، وطوال الوقت كانت ضرباتى قريبة منه وأفضل، بينما كانت ضرباته مندفعة عصبية. لمسته مرتين، واحدة منهما فى وجهه وطاردته حتى التصق

وبدأت المبارزة.

ظهره بالجدار حاول بالكاد أن يلمسنى لكنه لم يفلح، فظل فى موقف الدفاع فى انتظار أن أصاب بالتعب، عندما أصبح النصر بين يدىّ، تملكتنى روح شريرة، فأحست المرأة التى كانت تراقب الموقف أن حبيبها على وشك الموت، فأمسكت بى من الخلف، أعدتها بسرعة، فانتهز دى جارسيا هذه الفرصة ولسنى فى كتفى الأيمن، فتحتم علىّ أن أتخذ موقفًا دفاعيًا للمحافظة على حياتى. فى هذه الأثناء جاء الحارس ينفخ فى صفارته طلبًا للنجدة. ما إن رأى دى جارسيا الجنود حتى استدار ولاذ بالفرار باتجاه القنطرة وكذلك اختفت المرأة.

وصل الحراس وأحاطوا بى، وتقدم قائدهم ليقبض علىّ وهو يحمل فانوسًا بيده. ضربت الفانوس بمقبض السيف فسقط على الأرض وأحدث وهجًا، فانتهزت الفرصة ولذت بالفرار، لأننى لم أكن أود أن يقبض علىّ وأقدم للمحاكمة فى هذه المدينة، وفى غمرة اندفاعى هاربًا نسيت أن دى جارسيا قد هرب أيضًا. انطلقت أجرى وخلفى ثلاثة حراس، لكن بعد جرى لمسافة نصف ميل شعرت بأنهم قد تخلفوا عنى بمسافة كبيرة، توقفت لألتقط أنفاسى، وتذكرت أن دى جارسيا قد أفلت من يدى، ولا أعرف متى سأجده مرة ثانية. فى البداية كان كل همى العودة والإمساك به، لكننى الآن اكتشفت أن لا فائدة من ذلك، فقد أقع فى أيدى

الحراس، الذين سيتعرفون علىّ من جرحى الذى بدأ يؤلمنى. وهكذا عدت إلى البيت وأنا ألعن حظى، والمرأة التى أمسكت بى من الخلف فى اللحظة التى كنت سأدفع فيها بالسيف فى جسده. لقد ضاعت منى هذه الفرصة، وربما علىّ أن أنتظر أيامًا عديدة حتى تتاح لى فرصة مثلها.

كيف سيتسنى لى العثور عليه فى هذه المدينة الكبيرة؟ خاصة وأن دى جارسيا ـ وهذا لم أفكر فيه ـ قد يكون منتحلاً اسمًا آخر كما فعل فى يارموث. شىء مريرٌ جدًا أن تكون على وشك النجاح، ثم يفلت منك. فى الصباح دخلت حجرة سيدى، حيث كان لا يزال طريح الفراش، من جراء ضعف عام أصيب به فجأة، كان بداية لمرض انتهى بموته. بينما كنت أجهز له الدواء لاحظ أن كتفى مجروح، فسألنى عما حدث، أعطانى سؤاله هذا فرصة، لم أكن أتوانى عن اقتناصها.

قلت له: «هل لديك صبر لتستمع إلى القصة؟ لأننى فى حاجة إلى مساعدتك».

فقال: آه! إنها تلك القصة القديمة، عن الطبيب الذى لم يستطع معالجة نفسه. تكلم يا صديقى، تكلم».

جلست بجوار السرير وحكيت له كل شيء، ولم أُخف عنه شيئًا. حكيت له تاريخ أمي وحب أبي لها، وطفولتي، ومقتل أمي على يد دي جارسيا، والقسم الذي أخذته على نفسي للانتقام منه. وأخيرًا حكيت له عما حدث في الليلة السابقة، وكيف هرب مني عدوي. طوال سردي للقصة كان فونسكا يجلس على السرير ضامًا ركبتيه إلى ذقنه ويرقب وجهي بعينين يقظتين، لكنه لم ينطق ببنت شفة ولم تبدر منه أية حركة، حتى انتهيت من الحكاية.

أخيرًا قال: «يالك من أحمق للغاية، يا صديقي، ألم ترني أسدي النصح في كثير من الأمور، فهل عرفت عني أبدًا أنني أبوح بالأسرار، حتى أسرار الغرباء؟ لماذا إذن خشيت من كشف أسرارك؟».

أجبت: «لا أدري، فقد ظننت أنني لابد أن أعتمد على نفسي أولاً».

«الكبرياء يتلاشى أمام الفشل، يا صديقي، الآن أصغ إليّ: لو أنني عرفت هذه الحكاية من شهر مضى، لكان دي جارسيا مات الآن ميتة بائسة، ليس على يدك، بل بالقانون، لقد عرفت الرجل منذ طفولته، وأعرف عنه ما يكفي لشنقه مرتين. وقد كان بين يدي لأربع أو خمس مرات، سواء أكان بهذا الاسم أو ذاك. ذات مرة جاء

إلى لمساعدته، لكن أعماله الخسيسة التى ارتكبها كانت سوداء جدًا، حتى أننى لم أستطع أن ألمسه، هذا الرجل أحقر وأخس رجل عرفته فى سيفيل، والأدهى من ذلك أنه رجل بلا عواطف يعيش على الخداع من أجل الخداع، ومتهم بجرائم قتل كثيرة. ناولنى هذه الكتب من هذا الصندوق، وســـــوف أحكى لك عن هذا الدى جارسيا».

فعلت كما طلب منى.

قال: «هذه سجلاتى، ولا أحد يستطيع قراءتها سواى. والآن إلى الفهرس. آه! هاهو. ناولنى الجزء الثالث، وافتح صفحة مائتين وواحد».

نفذت ما أمر به، ووضعت المخطوط أمامه على السرير، ثم بدأ يقرأ».

- «دى جارسيا - چوان. الطول، المظهر، العائلة، الأسماء المستعارة.. إلخ. هذا هو تاريخه. والآن اسمع».

ثم وصل إلى صفحتين تحوى أمورًا خاصة جدًا، ومكتوبة بعلامات سرية، إذ أن فونسكا كان يترجمها أثناء قراءته. كانت المعلومات مختصرة بما فيه الكفاية، لكن هذا السجل كان يحوى معلومات لم أسمع عنها من قبل أو حتى الآن.

من ضمن قائمة أعماله السوداء، جريمتا قتل: واحدة بالسكين أثناء مشاجرة، والأخرى قتل امرأة بالسم. وأشياء أخرى أكثر سوءًا، مخجلة للغاية، لا يمكن كتابتها.

قال فونسكا بهدوء: «هناك بلا شك أشياء كثيرة، لم تصل إلى علمى، لكن ما هو مدون هنا صحيح تمامًا، كما أن إحدى جرائم القتل كان يمكن إثباتها عليه لو كان قد قبض عليه. انتظر، ناولنى المحبرة، لابد أن أضيف شيئًا إلى السجل».

وقام بالكتابة بشفرته السرية: « فى مايو عام ١٥١٧، أبحر دى جارسيا كما هو معروف إلى إنجلترا، وهناك فى قرية دتشنجهام بريف إنجلترا، قتل لويزا وينجفيلد، التى وعُد بزواجها. فى سبتمبر من نفس العام، أو قبل ذلك، وتحت ستار زواج زائف، هجر وخدع دونًا إيزابيلا، التى تنتسب إلى أسرة سيجبونزا النبيلة».

قال لى فونسكا: «لو أننى علمت بما علمت به الآن منذ يومين، لكان ذلك الوغد، يقبع فى السجن، لكنى أعتقد أن الفرصة لم تضع بعد. أنا مريض، لكنى سأنهض وأتدبر الأمر، اتركه لى يا صديقى. إذهب الآن وعالج جرحك؛ إذا كان هناك شىء يمكن فعله، فسوف أفعله. لكن انتظر، جهز لنا شخصًا يحمل رسالة. هذا المساء سوف أعرف كل شىء مهما كان الأمر».فى تلك الليلة، أرسل فونسكا باستدعائى ثانية.

قال لى: «لقد قمت بتحرياتى. كما أننى نبهت ضباط الأمن لأول مرة منذ عدة سنوات، وهم يبحثون عن دى جارسيا مثل الكلاب البوليسية التى تطارد عبدًا. لكن لم تصلنا أى أخبار عنه، لقد اختفى ولم يترك أثرًا. الليلة سأبعث برسالة، إلى مدينة كاديز، فربما يكون قد هرب عبر النهر».

الفصل الخامس

تحطم السفينة

(ترك فونسيكا كل أمواله بعد وفاته لتوماس، الذى علم بإبحار دى جارسيا للهند الغربية، فقرر أن يلاحقه هناك).

كان علىّ أن أقرر مصير هذه الثروة التى هبطت علىّ فجأة. وبينما أنا متحير فى كيفية حفظها فى مكان آمن لحين عودتى، سمعت بالصدفة، أن السفينة المسماة (المغامرة) نفس السفينة التى جئت على ظهرها من يارموث إلى أسبانيا منذ عام مضى، موجودة فى ميناء كاديز، ففكرت بأن أفضل شىء أفعله بالذهب والأشياء الثمينة، هو شحنها إلى إنجلترا، وهناك تكون محفوظة فى أمان. أرسلت رسالة إلى صديقى قبطان السفينة، ورتبت أمورى لمغادرة سيفيل، وآخر شىء فعلته هو بيع بيت فونسيكا بمبلغ أقل قليلاً مما كان يساوى.

أما معظم الكتب والفضيات فقد وضعتها مع بعض المقالات الأخرى فى صناديق صغيرة، وأرسلتها إلى كاديز عبر النهر، لتكون فى رعاية ذلك الوكيل الذى أعطانى تجار ياموث خطاب توصية له عندما جئت إلى أسبانيا.

وما إن انتهيت من ذلك، حتى رحلت آخذًا معى الجزء الأكبر من ثروتى على شكل ذهب، حدث كل ذلك بعد إقامتى عامًا فى سيفيل، وأدرت ظهرى لها إلى الأبد، كانت إقامتى فى سيفيل إقامة سعيدة، فقد جئت إليها فقيرًا وتركتها ثريًا. ورغم سعادتى لرحيلى، إلا أن دى جارسيا هرب منى هنا، وكذلك فقدت أعز صديق لى.

وصلت إلى كاديز بسلام دون أى خسائر فى ممتلكاتى أو ذهبى، وأخذت قاربًا للوصول إلى السفينة (المغامرة)، حيث وجدت القبطان الذى كان اسمه «بل» فى صحة جيدة وسعد كثيرًا لرؤيتى. ما أسعدنى أكثر أنه كان يحمل رسائل لى. لكن فحواها لم يكن سارًا بأى حال من الأحوال، فقد عرفت أن والدى مريض وملازم للفراش، وحقيقة، ورغم أننى لم أعرف عنه أى شىء لعدة أعوام بعد ذلك، فقد مات فى كنيسة دتشنجهام فى نفس اليوم الذى تسلمت فيه رسالته. كانت رسالة قصيرة ومحزنة، قال فيها إنه حزن كثيرًا لأنه سمح لى بالقيام بهذه المهمة، وأنه كان على يقين من أنه لن يرانى ثانية، وأنه يتركنى لرعاية الله ويدعو الله بعودتى سالمًا.

كل ذلك أعطانى مبررًا أكثر للتفكير، والأكثر من ذلك فى الحقيقة، أنه أيقظ فى حنينًا، قويًا جدًا لوطنى، وأصبح أشبه بحالة مرضية. فقد اشتقت جدًا لرؤية والدى ثانية خشية أن يموت قبل وصولى. لكن كان يقف بينى وبين تلك الرغبة شبح دى جارسيا وقسمى.

إن فكرة الانتقام المتسلطة علىّ، جعلتنى اشعر بأننى لن أكون سعيدًا إطلاقًا فى حياتى، لو أن هذا الحنين تغلب على وتركته يهرب منى. وحتى أكون سعيدًا لابد أولاً أن أقتل دى جارسيا. هذا بالإضافة إلى أننى وصلت إلى اعتقاد؛ بأننى إذا تركته يهرب، فإن اللعنات التى دعوتها على نفسى سوف تصب على رأسى بالتأكيد.

فى نفس الوقت الذى قمت فيه بكل ذلك، ذهبت إلى محامى طلبت منه كتابة وصية ترجمتها بالإنجليزية «بموجب هذه الوصية عهدت بكل ثروتى فيما عدا مبلغ ضئيل احتفظت به لاستخدامى الخاص - لثلاثة أشخاص بأنصبة متساوية، ليقوموا برعايتها نيابة عنى حتى أعود، وقد طلبت منهم فى هذه الوصية (التى وقعتها فوق ظهر السفينة وشهد عليها القبطان وإثنان من الإنجليز حتى تكون رسمية) أن يتعاملوا مع الممتلكات طبقًا لما تمليه عليهم ضمائرهم.

بعد أن وقعت على الوصية وضعتها داخل ظرف ختم بالشمع، سلمتها مع ما تبقى من الذهب والأشياء الأخرى، لتكون أمانة فى خزانة القبطان «بل»، وقلت له أن يسلمها للدكتور جرايم ستون، الذى سيدفع لك أجرك.

كما أرسلت عدة خطابات أيضا مع الذهب والوصية، سردت فيها كل ما حدث لى منذ أن وصلت إلى أسبانيا، وكذلك الثروة التى هبطت علىّ، وأخبرتهم بأننى سوف أطارد دى جارسيا فى جميع أنحاء الكرة الأرضية.

ومن ضمن ما كتبت، «ربما يعتقد البعض أننى رجل مجنون، حتى أضحى بسعادتى، التى أرغب فيها أكثر من أى شىء فى العالم، لكنكم لن تلومونى. فأنتم تعرفون أننى إذا صممت على شىء، لن يمنعنى عن تحقيقه سوى الموت، خاصة وأنا مقيد بقسم يمنعنى ضميرى أن أ حنث به، انا لايمكن أن أكون سعيداً على الإطلاق إذا توقفت الان عن بحثى عنه. إذ ينبغى على أولا أن أكدح وأجاهد، ثم تأتى الراحة بعد ذلك، المعاناة أولاً، ثم المرح والسعادة. لا تقلقوا على، لدى شعور قوى بأننى ساعيش وأعود ثانية. وطالما دى جارسيا حى، فلابد أن الاحقه».

أود أن أقرر هنا، أن كل هذه الخطابات وكل شىء آخر وصلت بسلام إلى منزل دكتور جرايم ستون. عندما ذاعت قصتى هناك،

حدث اندهاش كبير. وزاد هذا الاندهاش أكثر خاصة عندما فتحت الصناديق المليئة بالذهب، اذ لم يحدث أن وصلت مثل هذه الكمية فجأة إلى بانجاى، بقدر ما تستطيع ذاكرتهم أن تذكر.

●●●

فى اليوم التالى لتسليمى الخطابات والذهب أمانة للقبطان «بلّ» أخذت أراقب السفينة (المغامرة) وهى تتهادى فى المياه المتكسرة لميناء كاريز، وكم كان قلبى حزينا (ولست خجلاً أن أقول) إننى بكيت. وكم كنت أود أن أهب كل ما أملكه للسفينة لو أنها كانت تحملنى على ظهرها. لكن هدفى لايمكن أن يتزحزح، وكان لابد أن تحملنى سفينة أخرى إلى شواطىء إنجلترا.

تصادف أن كانت هناك سفينة أسبانية تسمى (الجراح الخمسة»، على وشك الإقلاع إلى «هسبانيولا» فحصلت على ترخيص بالسفر، وحجزت مقصورة بها باسم «دى أيلا» باعتبارى تاجراً. ولتأكيد ذلك إشتريت بضائع من السهل بيعها فى الهند الغربية كما قيل لى وشحنتها معى. فى هذا الوقت كنت أتحدث الأسبانية بطلاقة، كما أن مظهرى كان يوحى بأننى أسبانى، ولم يكن من الصعب أن أخرج كمواطن أسبانى.

قاربين للنجاة، وحاولت أنا ورجل آخر، قسيس تقريبا، إنزال النساء والأطفال، الذين كانوا بكثرة على سطح السفينة. لم تكن هذه المهمة سهلة. لأن البحارة السكارى كانوا يجذبون القاربين ناحيتهم ويحاولون القفز داخلهما، إنقلب القارب الأول، وغرق كل من فيه. عندئذ كانت السفينة قد مالت قبل أن تغرق، وما إن تأكدت أن كل شيء قد انتهى، ناديت على القسيس ليتبعني، وقفزت إلى البحر وسبحت حتى وصلت إلى القارب الثاني، الذي كان ممتلئا بنسوة يصرخن، وفقدن أعصابهن ولحسن الحظ وصلت سالماً إلى القارب، لأنني كنت اجيد السباحة، وأنقذت القسيس قبل أن يغرق.

بعد ذلك إنقلبت السفينة على ظهرها، وظلت طافية لدقيقة أو اكثر، وأعطانا ذلك فرصة لأخذ بعض المجاديف الطافية، وجدفنا عدة ياردات بعيداً عنها. وما إن فعلنا ذلك، حتى سمعنا صرخات مهيبة من أولئك الموجودين عليها، واندفعت السفينة إلى الأعماق، وكادت أن تسحب قاربنا معها.

جلسنا صامتين لفترة، لكن عندما توقفت المياه عن الفوران، جدفنا حيث غرقت السفينة كان سطح المياه مغطى بقطع خشبية محطمة ووجدنا بينها طفلا واحداً مازال حيا، متعلقا بأحد المجاديف. أما الباقى وكان عددهم حوالى مائتى نفس فقد غرقوا مع السفينة وماتوا ميتة فظيعة، وحتى إذا كان بينهم من لايزال

أما عن رحلتنا فهناك القليل يمكن أن يحكى عنها فيما عدا نهايتها المحزنة. بقينا فى جزر الكنارى لمدة شهر، ثم أبحرنا إلى هسبانيولا، وكان الجو جميلاً فيما عدا بعض الرياح الخفيفة بعد أسبوع وعندما كنا نبحر من سان دومنجو منذ وصولنا إليها إنقلب الجو مؤذنا بقدوم عاصفة قوية من الشمال، كانت تزداد عنفاً كل ساعة. ولمدة ثلاثة أيام وليال كانت سفينتنا الثقيلة تئن وتتماوج خلال العاصفة القوية، ودفعت السفينة للسير بسرعة، فلم نعرف أين نحن، ولولا صفاء الجو أخيراً وتحسنه، لكنا غرقنا. كانت المياه قد طفت على كل جزء فى السفينة، وتهاوى أحد صواريها، وانكسر الثانى إلى نصفين على ارتفاع عشرين قدماً من سطح السفينة.

لكن كل تلك الأهوال لاتقارن بما أتى بعد ذلك، ففى صباح اليوم الرابع اكتسحت موجة عارمة دفة السفينة، وأخذنا نجرى لا حول لنا ولا قوة أمام الأمواج. بعد مضى ساعة اندفع نحونا موج أخضر اكتسح القبطان وسقطنا، واستسلمنا للغرق.

بعد ذلك بدأ المشهد الأكثر رعبا. فمنذ عدة أيام أخذ كل البحارة والمسافرين فى الشراب بشراهة حتى يُهدؤا من روعهم، وفى تلك اللحظة التى أيقنوا فيها بحتمية النهاية، اندفعوا يجرون إلى الأمام وإلى الخلف وهم يصرخون ويبتهلون إلى الله، ويلعنون القدر. أما أولئك الذين كانوا ما يزالون متماسكين فبدأوا فى انزال

حيـا، فإننا لم نكن نستطع العثور عليهم فى مياه البحـر الفوارة إضافة إلى أن الظلام بدأ يحل.

وحقيقة، كان فشلنا فى فعل أى شىء سبباً فى نجاتنا، لأن القارب الصغير كان يحمل عشرة أشخاص، وهذا عدد أكثر مما يحتمل ـ وكنت أنا والقسيس الرجلين الوحيدين بين النساء. وقلت لنفسى، لولا حلول الليل وهدوء البحر، لكان قاربنا قد غرق أيضاً. كان كل همنا أن نحافظ على أن تكون مقدمة القارب مستقيمة فى مواجهة الموج، وهذا ما فعلناه خلال الليل الطويل. كان من الغريب أن ترى أو بالأحرى أن تسمع إعترافات النسوة واحدة تلو الأخرى لزميلى القسيس الطيب أثناء قيامه بالتجديف، وعندما تخففن من ذنوبهن، بدأن يتضرعن إلى الله لخلاص أرواحنا ـ لأن سلامة أبداننا لم يكن هناك أمل فيها.

أخيراً إنقشع الليل، وبدأت تباشير الفجر تسطع على سطح البحر الخالى. ثم بدأت الشمس تشرق، فى البداية حمدنا الله لأننا كنا نشعر بالبرد حتى النخاع، لكن سرعان ما بدأت حرارتها تزيد أكثر مما تحتمل، بالإضافة إلى عدم وجود طعام أو ماء فى القارب، فأحسسنا بالجفاف وعانينا من العطش. بدأت الريح تتحرك قليلا، واستطعنا بواسطة استخدام بطانية والمجاديف أن نصنع قلعا، سيرنا على سطح الماء بسرعة معقولة. لكن المحيط كان

متسعاً، ولم نكن نعرف إلى أين نحن متجهين، ومع كل ساعة تمر كانت معاناتنا من العطش تجعلنا نقترب من بعضنا. حوالى منتصف النهار مات طفل فجأة وألقى به فى البحر، وبعد مضى أكثر من ثلاث ساعات ملأت الأم وعاءً وشربت الماء المالح بشراهة.

أحست لبرهة أنها أطفأت ظمأها، ثم فجأة إنتابها جنون وقفزت إلى البحر وغرقت. قبل أن تغرب الشمس الملتهبة مثل كرة حمراء ساخنة فى مياه البحر، كنت أنا والقسيس الشخصين اللذين يستطيعان الجلوس بشكل معتدل، أما الباقى فكانوا منطرحين فى قاع القارب مكومين فوق بعضهم مثل السمك الميت، وهم يئنون من وطأة الألم. أخيراً حل الليل وخفض من آلامنا قليلاً، لأن الهواء أصبح بارداً. حتى المطر الذى ابتهلنا لسقوطه، لم يسقط، وكم سيكون الجو حاراً عندما تطلع الشمس ثانية فى سماء لا سحب فيها. وأصبح من المؤكد إنه إذا لم تصلنا نجدة، فإن هذا المشهد سيكون آخر شىء يمكن أن نراه.

بعد ساعة من طلوع الفجر، مات طفل آخر، وبينما كنا نسقطه فى البحر، تطلعت إلى الأمام رأيت مركبا على بعد، كانت تبحر فى إتجاه محدد، وستمر من المكان الذى نوجد فيه، لكن على بعد ميلين. عاودنا الإبتهال إلى الله لهذا الكرم، وتناولنا المجاديف، لأن الريح كانت خفيفة فى تلك الآونة ولا تستطيع أن تسيرنا فشرعنا

نجدف بضعف حتى نقطع الطريق على السفينة، بعد أن جدفنا لما يزيد عن الساعة. سكنت الريح وتوقفت السفينة عن الحركة على بعد ثلاثة أميال فأخذت أنا والقسيس نجدف حتى ظننت أننا سنموت فى هذا القارب، لأن حرارة الشمس كانت مثل ألسنة اللهب، ولم تكن هناك ريح لتخفف عنا لهيبها وتحمله بل إن شفاهنا تشققت من جراء العطش. ظللنا نناضل حتى سقطت ظلال صوارى السفينة علينا، ورأينا بحارتها يراقبوننا من فوق سطحها، وصلنا إلى جانب السفينة، فأنزلوا سلماً من الحبال، وتحدثوا إلينا بالأسبانية.

لا أعرف كيف وصلنا إلى ظهر السفينة، كل ما أذكره أننى كنت منطرحاً على الأرض تحت سقيفة القيادة وأشرب كوباً بعد كوب من الماء كانوا يحضرونه إلى. وأخيراً إرتوى ظمأى، وبعد فترة كاد يغمى على وثقلت رأسى، ولم تكن بى رغبة لتناول الطعام الذى كانوا يضعونه فى يدى. وحقيقة لابد أنه أغمى علىّ، لأننى عندما أفقت كانت الشمس عمودية على رأسى، وبدا لى كما لو أننى حلمت بسماع صوت كريه معروف بالنسبة لى. عندما أصبحت وحدى تحت السقيفة، كان البحارة ملتفين حول ما يبدو جسد إنسان. كان بجانبى طبق من الطعام وزجاجة مشروب روحى، وعندما شعرت بأننى أفضل، أكلت وشربت بشراهة. ماكدت انتهى

من طعامى حتى رفع الرجال جسد ذلك الرجل، الذى اكتشفت أنه أسود اللون، وقذفوا به من فوق ظهر السفينة. ثم حضر إلى ثلاثة رجال بدا من مظهرهم أنهم ضباط، فنهضت على قدمى لملاقاتهم.

قال أطولهم بصوت ناعم رقيق «سيدى، دعنى أقدم لك تهانئى الطيبة لنجاة» ثم توقف فجأة.

هل كنت لا أزال احلم، أم أنا أعرف هذا الصوت؟ ورأيت وجهه لأول مرة لقد كان چوان دى جارسيا!. لكن إذا كنت عرفته، فلابد أنه عرفنى أيضا.

فقال: «يا إلهى! من؟ السيد توماس وينجفيلد، تحياتى إليك. أنظروا، أيها الزملاء، أنتم ترون هذا الشاب الذى أرسله البحر إلينا. إنه ليس أسبانيا، لكنه إنجليزى، إنجليزى مأجور. أخر مرة رأيته فيها كانت فى شوارع سيڤيل، وهناك حاول أن يقتلنى لأننى قلت له سأبلغ عنك السلطات. الآن، ها هو هنا، فى مهمة يعرفها جيدا».

أجبت: «هذا كذب، أنا لست مأجوراً، إنما جئت عبر هذه البحار لهدف واحد فقط.. لأبحث عنك».

«إذن فقد نجحت نجاحاً عظيما، ربما يريحك أيضا. قل لى الآن، هل تنكر أنك توماس. وينجفيلد، وأنك إنجليزى؟».

«أنا لا أنكر ذلك.. أنا».

«عـفـوا. لكن كـيف تـأتى لك ذلك إذن، خـاصـة وأن زمـيلك القسيس قال لى إنك أبحرت على ظهر السفينة «الجراح الخمسة» تحت اسم دى أيلا؟

. «لدى دوافعى لهذا، يا چوان دى جارسيا».

«أنت مخطىء يا سيد، إسمى «سارسيدا»، ويشهد على ذلك هؤلاء السادة. ذات مرة كنت أعرف سيداً مهذبا يدعى دى جارسيا، لكنه مات».

أجبت: «أنت تكذب»، وما إن قلت ذلك حتى لطمنى أحد رفاقه على فمى.

فقال دى جارسيا: «برفق، يا صديقى، لا تلوث يدك بضرب فأر مثل هذا، وإذا كان ولابد أن تضربه، فاستخدم عصا، لقد سمعتم إعترافه بالسفر تحت اسم مزيف، رغم كونه إنجليزيا، ولهذا فهو يعد أحد أعداء وطننا. وأود أن أضيف بمنتهى الأمانة، وعلى قدر معلوماتى، بأنه مأجور خائن، ولابد من إعدامه. والآن، أيها السادة، نحن بحكم القانون القضاة هنا، وحتى لاتعتقدوا أننى سأتحيز ضد هذا الكلب الإنجليزى الذى نعتنى بالكذب، فأنا أفضل أن أترك هذا الأمر بين أيديكم».

انظروا.. إنه ليس إسبانيًا.. إنه إنجليزى.

حاولت هذه اللحظة أن أتكلم ثانية، لكن الأسباني صاحب النظرة القاسية الوقحة الذى لطمنى، إستل سيفه وأقسم أنه سيطعننى به، إذا فتحت فمى - لذا قررت أنه من الأفضل ألا أتكلم.

قال: «سيبدو منظر هذا الإنجليزى جميلا، لو شنق فوق أحد الصوارى».

تشاغل دى جارسيا بترنيم نغمة بعدم إهتمام، ثم ابتسم ونظر إلى الصارى أولا، ثم إلى رقبتى، والحقد الذى فى عينيه يكاد يحرقنى.

قال الضابط الثالث: «لدى فكرة أفضل من ذلك. لو أننا شنقناه، فربما نُستجوب، بالإضافة إلى أن شنقه سيضيع علينا مبلغا من المال. فهو فى النهاية شاب متين البنيان يستطيع أن يعمل عدة أعوام فى المناجم. دعونا نبيعه مع المجموعة الموجودة بأسفل السفينة، أو أشتريه أنا بنفس السعر. فأنا بحاجة لعدد من أمثاله فى ضيعتى».

عند سماع هذه الكلمات رأيت وجه دى جارسيا يتدلى قليلا إلى أسفل، لأنه كان يريد أن يتخلص منى إلى الأبد. لكنه قال:

«بقدر إهتمامى الشديد به، لكن خذه يا صديقى، وبدون مقابل، لكننى أحذرك، راقبه جيداً، وإلا ستجد سكينا فى ظهرك».

ضحك الضابط وقال: «لن تكون لصديقك الفرصة لذلك، لأننى لا أنزل مئات الياردات تحت الأرض، حيث سيكون مكانه. والآن، أيها الإنجليزى هناك مكان لك بأسفل السفينة على ما أعتقد». ثم نادى على أحد البحارة، وأمره أن يحضر القيود الحديدية للرجل الذى مات.

بعد أن تم ذلك، وبعد أن فتشونى وأخذوا منى كمية الذهب التى كانت معى - وكانت كل ما تبقى معى من ممتلكاتى - قيدوا ساقى وعنقى بالسلاسل، ودُفع بى إلى أسفل، قبل أن أصل إلى هناك إكتشفت من بعض العلامات ما يوجد بأسفل السفينة. كان أسفل السفينة مليئاً بالعبيد الذين إقتنصوهم من جزيرة «فرناندياً»، الإسم الأسبانى لجزيرة كوبا، لكى يبيعوهم فى «هسبانيولا». وأخذت رقماً وسط هؤلاء العبيد.

لا أستطيع أن أصف الأهوال التى تتميز بها هذه السفينة. كان المكان واطئاً، لايزيد إرتفاعه عن سبعة أقدام، والعبيد منطرحين مقيدين بالسلاسل على الأرضية القذرة المرتشحة بماء قاع السفينة. كانوا مكومين بكثافة شديدة، وأغلالهم مثبتة بحلقات من

الحديد على جانبيها. كان عددهم مائتين تقريبا، من الرجال والنساء والأطفال، أو ربما كانوا أكثر من مائتين عندما أبحرت السفينة منذ أسبوع. فقد مات منهم بضع عشرات، وهذا يعتبر عدداً قليلاً، لأن الأسبان يتوقعون وفاة الثلث أو النصف منهم. بمخزن السفينة فى تجارتهم الشيطانية تلك.

عندما دخلت المكان تملكنى إعياء مميت، ووجهت بأصوات مرعبة وروائح كريهة، ومناظر بشعة رأيتها على ضوء المصابيح ذات السناج التى يحملها حراس، لأن المكان لا يدخله ضوء ولا هواء. دفعوا بى إلى الداخل، ووجدتنى مسلسلاً وسط صف من الرجال والنساء السود، وقدماى تلمسان الماء. وتركنى الحراس ضاحكين قائلين، هذا فراش يتناسب مع رجل إنجليزى لينام عليه. تحملت هذا الوضع لبرهة، ثم داهمنى النوم أو الأغماء ليساعدنى على تحمل ذلك، وغرقت فى عالم النسيان، وأعتقد أننى ظللت نائما ليوم وليلة.

عندما إستيقظت، وجدت الأسبانى الذى إشترانى أو الذى وهبت له، يقف بجوارى ومعه فانوس، ويأمر رجاله بفك قيود المرأة المسلسلة إلى جوارى. كانت ميته، وإستطعت على ضوء المصباح أن أكتشف أنها ماتت بسبب مرض لعين كان جديداً على، لكننى فيما

بعد عرفت إسمه، «ألقىء الأسود». لم تكن الوحيدة فقط التى ماتت، فقد أحصيت عشرين شخصاً آخر تم سحبهم الواحد تلو الآخر، ولاحظت أن هناك المزيد من المرضى. إكتشفت أيضا أن الأسبان كانوا مرتعبين جداً، لأنهم لم يستطيعوا معرفة سبب هذا المرض، وحاولوا مقاومته بتنظيف أسفل السفينة، والسماح للهواء بالدخول، بخلع بعض ألواح من أرضية السفينة الموجودة فوق المخزن. وأعتقد أنهم لو لم يفعلوا ذلك لكنا متنا جميعا. كما أننى ارجع نجاتى من هذا المرض إلى الفتحة التى كانت فوق رأسى مباشرة، فعندما كنت أقف بالقدر الذى تسمح به قيودى، كنت أستطيع أن أتنفس هواء نقياً تقريبا.

بعد أن قدموا لنا الماء والطعام، خرج الأسبان. شربت كمية من الماء بشراهة، لكننى لم أستطع اكل شريحة الخبز، لأنها كانت سيئة جداً. كانت الأصوات والمناظر من حولى مؤلمة جداً، ولن أحاول الكتابة عنها.

وبينما كنا نكاد نغلى من الحرارة، لأن أشعة الشمس كانت تنفذ إلينا من خلال الفتحات، التى أشعر من خلالها بنقصان حركة الريح. شببت إلى أعلى وإرتكزت بكعبى على القوائم الموجودة فى جانب السفينة وأرحت ظهرى عليه، فوجدت نفسى فى وضع يسمح لى برؤية أقدام السائرين على ظهر السفينة.

رأيت قدمين تتسدل عليهما عباءة قسيس، فخمنت أن يكون ذلك رفيقى الذى نجا معى، فناديته. وسرعان ما فطن إلى وجودى بأسفل، فاستلقى القسيس على الأرض كما لو كان يريح نفسه، وتحدثنا سوياً. قال لى، أن الريح ساكنة - كما توقعت - وأن الوباء تفشى فى السفينة، وثلث البحارة مرضى. وعُلق على ذلك بأنه عقاب من السماء بسبب قسوتهم وشراستهم.

قلت تعقيبا على ذلك، بأن العقاب ينزل على الظالم والمظلوم، ثم سألته عن «سارسيدا»، كما يطلقون على دى جارسيا. علمت أنه أصيب بالمرض هذا الصباح. إبتهجت لهذه الأخبار، لأننى كرهته، والآن يتلقى جزاءه.

تركنى القسيس ثم عاد بوعاء به ماء ممزوج بعصير الليمون، كان مذاقه بالنسبة لى، كمذاق شراب من الجنة من قبل الآلهة، كما أعطانى قطعة لحم وفاكهة. ناولنى هذه الأشياء من خلال فتحة الألواح، فأمسكتها بيدى وأكلتها. بعد ذلك إنصرف، وللأسف الشديد، لم أكتشف ذلك إلا صباح اليوم التالى.

مر نهار ذلك اليوم وليله الطويل، وعندما جاء الحراس أخيراً إلى أسفل، قاموا بسحب أربعين جثة، وآخرين كانوا مرضى. بعد إنصرافهم وقفت لأنتظر صديقى القسيس، لكنه لم يحضر ساعتها، ولا بعد ذلك على الإطلاق.

الفصل السادس

وصول توماس إلى الشاطىء

لمدة ساعة أو تزيد وقفت هكذا أمد رقبتى إلى أعلى بحثاً عن القسيس. أخيراً عندما أصبحت على وشك السقوط إلى أسفل، لأننى لم أعد قادراً على الوقوف أكثر من ذلك، لمحت ثوب امرأة. بجوار الفتحة، عرفتها، كانت إحدى السيدات اللاتى نجون معى فى القارب.

همست: «سيدتى، بحق الله! أصغى إلى، أنادى أيلاً، المقيد بالسلاسل بأسفل وسط العبيد».

فوجئت المرأة، وفعلت مثلما فعل القسيس، وجلست على أرضية السفينة، فأخبرتها بحالى السىء، ولم أكن أعرف أنها على علم به، وعن الأهوال التى تحدث فى أسفل.

فقالت: «يا للأسف، يا سيد، إن ما يحدث بأسفل قد يكون أقل سوءاً مما يحدث بأعلى. فقد حل بالسفينة وباء فظيع ومات ستة بحارة وكثير منهم يصرخون بشراسة فى لحظات جنونهم الأخيرة. وتمنيت لو كان البحر قد إبتلعنا مع الآخرين. إذ يبدو إننا نجونا من البحر فقط، لنسقط فى هذا الجحيم. فأمى ماتت بالفعل وأخى الصغير يموت».

سألتها: «أين القسيس؟»

«مات هذا الصباح، وألقوه فى البحر منذ قليل. قبل أن يموت تحدث عنك، وطلب منى أن أساعدك على قدر إستطاعتى. كانت كلماته شديدة وعصبية وخيل إلى أنه قد جن. لكن كيف يتسنى لى أن أساعدك؟».

أجبتها: «بأن تمدينى بالطعام والشراب، من أجل صديقنا، طيب الله روحه. لكن ماذا عن «سارسيدا»، هل مات هو الآخر؟

«كلا، يا سيدى، فهو الوحيد الذى يتحسن دوناً عن كل من أصيب بالمرض. والآن يجب أن أذهب لرؤية أخى، وقبل ذلك سأحضر لك طعاماً».

ذهبت وسرعان ما عادت بالطعام وقنينة نبيذ أخفتها بين طيات ملابسها. فأكلت وشكرت لها صنيعها.

استمرت فى تقديم الطعام لى ليلا على هذا النحو لمدة يومين، وفى الليلة الثانية قالت لى إن أخاها مات، وكل ما تبقى من البحارة خمسة عشر رجلاً وضابط واحد لم يمسهم المرض، كما أنها تشعر ببوادر المرض. قالت لى كذلك، إن ماء الشرب قد نفد تقريبا، وهناك قليل من الطعام متبق للعبيد. بعد ذلك لم تحضر، فاعتقدت أنها ماتت كذلك.

بعد مرور عشرين ساعة من زيارتها الأخيرة حدث أن غادرت هذه السفينة الملعونة. لم يحضر أحد لمدة يوم لإطعام العبيد، وحقيقة كان العديد منهم ليس فى حاجة إلى طعام، لأنهم ماتوا. ظل بعضهم على قيد الحياة، رغم إنهم على قدر ما أرى كانوا مصابين بالمرض. أما أنا فقد نجوت. لكنى تأكدت لحظتها إننى لن أعيش طويلا؛ فأنا مكبل فى قبو الموت هذا، فتمنيت الموت ليحررنى من هول هذه الحياة، مر اليوم مثل بقية الأيام بحرارة تصل إلى درجة الغليان، لم تقتحمه نسمة هواء ولا حركة، وأخيراً حل الليل، بكآبته ورعبه من جراء الصرخات المجنونة لأولئك الذين يعانون الموت.

قبيل الصباح استيقظت على صوت ارتطام حديد بحديد، فتحت عينى فرأيت الحراس يحطمون قيود العبيد الموتى والأحياء على ضوء المصابيح، بعد تحطيم القيود، كان كل عبد يربط من

وسطه بحبل سواء أكان ميتاً أو حياً، ويرفع إلى سطح السفينة. ومن حين لآخر كنت أسمع صوت إرتطام الأجسام بمياه البحر، وكان ذلك كفيلاً بمعرفة نهاية القصة.

أدركت الآن أن كل العبيد كانوا يلقون من فوق ظهر السفينة، بسبب قلة مياه الشرب، وكذلك على أمل شفاء الأسبان الذين مازالوا أحياء.

راقبتهم فى مهمتهم تلك حتى لم يبق بينى وبينهم سوى عبدين، واحد ميت والآخر حى، تيقنت أن قدرى، أن يقذف بى فى البحر حيا، ثم سألت نفسى عما إذا كنت أخبرهم بإننى الوحيد من ضمن المجموعة وأرجوهم أن يبقوا على حياتى. أم أترك نفسى لأغرق. كانت الرغبة فى الحياة قوية، لكننى صممت على عدم بذل أى جهد للحفاظ على الحياة. وقبول الموت كنوع من الهروب الرحيم. خاصة وأنا أعرف أن الفرصة فى الحياة أمامى ضئيلة، كما لاحظت أن البحارة الأسبان قد أصابهم الجنون بسبب الخوف وتسيطر عليهم رغبة جماعية واحدة فقط، وهى التخلص من العبيد الذين يشربون الماء، ولاعتقادهم أيضاً أنهم سبب تفشى المرض. وهكذا تلوت صلواتى كما وردت على ذهنى، وبرجفة شديدة بسبب الخوف (لأن بشرتى الواهنة اقشعرت من نهايتها والمجهول الذى يلى ذلك) وأعددت نفسى لملاقاة الموت.

بعد أن سحبوا جارى الأسود البائس الذى كان لايزال على قيد الحياة، توجه الرجال إلىّ. كانوا نصف عراة. ويقومون بعملهم بعنف للانتهاء من مهمتهم الكريهة والعرق يبلل أجسادهم بسبب الحر، ويحاولون الحفاظ على أنفسهم من الإغماء بتناول المشروبات الروحية.

قال أحدهم وهو يحطم قيودى: «هذا الرجل حى ولايبدو عليه المرض».

فرد عليه آخر: «حى أو ميت، فليذهب إلى الجحيم هذا الكلب».

واكتشفت أنه نفس الضابط الذى وهبت له كعبد. وأضاف.. «إنه ذلك الإنجليزى الذى كان سبباً فى حظنا السىء. ألقوا بهذا الرجل النحس من فوق السفينة، ودعوه يمتع عينه الشريرة بأسماك القرش.

فقال الآخر وهو يحطم قيودى: «وهو كذلك. اتلُ صلواتك أيها الإنجليزى، فقد تنفعك أكثر من أى وقت مضى خاصة فوق هذه السفينة الملعونة. خذ هذه حتى يكون غرقك هينا، وللعلم يوجد منها الكثير على سطح السفينة أكثر من الماء». ثم ناولنى زجاجة خمر . أخذتها وشربتها دفعة واحدة، فهدأت قليلاً. ثم ربطوا

الحبل حول وسطى، وبإشارة ما، جذبنى أولئك إلى أعلى، بينما كنت أتارجح فى الهواء. وبينما كنت أمر أمام ذلك الأسبانى الذى وهبت له. رأيت وجهه جيداً تحت ضوء المصباح، وكان على وجهه علامات يستطيع أى طبيب أن يشخص حالته بوضوح.

قلت له: «وداعاً، ربما نتقابل ثانية سريعاً. أيها الأحمق، لماذا تعمل؟ أرح نفسك، فشواهد المرض على وجهك. ستموت خلال ست ساعات»!

تدلى فكه من الرعب عند سماع كلماتى. ووقف لحظة دون أن ينطق بكلمة. ثم صرخ صرخة مرعبة وهو يلعننى، ووجه ضربة بعصاه التى يحملها، كانت كفيلة بإنهاء معاناتى، لو لم أكن جذبت فى هذه اللحظة بواسطة من هم على سطح السفينة.

فى اللحظة التالية كنت قد سقطت على ظهر السفينة بعد أن تركوا الحبل. بالقرب منى كان يقف رجلان اسودان، مهمتهما إلقاؤنا نحن المساكين فى البحر، وخلفهما كان يجلس دى جارسيا على مقعد وملامح المرض بادية على وجهه يمروح نفسه، بقبعته لأن الجو كان حاراً فى تلك الليلة.

عرفنى على الفور تحت ضوء القمر الساطع، فقال: «ماذا!؟ أنت هنا، ومازلت على قيد الحياة؟ يالك من حقير، فقد اعتقدت

إنك لابد أن تكون قد مت، أو تموت، وإن لم تكن مت لوجودك فى مخزن السفينة الملعون، فلابد أن أتولى ذلك بنفسى. حسن، لقد وصلت الأمور إلى وضعها الصحيح أخيراً.

وأسعد شىء فى هذه الرحلة، أن أتولى أنا شرف إرسالك إلى أسماك القرش. وهذا شىء يريحنى جداً، أيها الصديق وينجفيلد. أنت يا من عبرت البحار لكى تنتقم منى؟ حسن، أرجو أن إقامتك كانت سعيدة، صحيح أن المكان قصير إلى حد ما، لكن الترحيب بك كان حاراً على الأقل. والآن حان الوقت لإرسال ضيفنا المغادر إلى طريقه. عمت مساء، يا توماس وينجفيلد، لو تصادف وقابلت أمك، فقل لها أننى اسف لقتلها، لأنها كانت الإنسانة الوحيدة التى أحببتها. أنا لم أذهب إلى إنجلترا لقتلها كما تتصور، لكنها أجبرتنى لفعل ذلك حتى أنقذ حياتى، لو لم أفعل ذلك، لما كنت عشت وعدت إلى أسبانيا. إنها تنتمى لدمائى، ولذلك تركتنى أهرب، وأعتقد أن هذه الدماء تجرى فى عرقك أيضا، وإلا لما كنت عانيت الكثير لتنتقم منى. على أى الأحوال.. إن هذا لم يفدك بالكثير».

ثم أراح ظهره على الكرسى، وبدأ يمروح نفسه بقبعته المريضة.

فى هذه اللحظة، وبينما كنت أقف على حافة الموت، أحسست بدمائى تجرى ساخنة فى عروقى، بسبب كلماته اللاذعة القاسية. حقا، لقد اكتمل نصر دى جارسيا. لقد جئت لاقتناصه، لكن ماذا كانت النتيجة؟ لقد كان على وشك أن يلقينى لأسماك القرش. إلا أننى رددت عليه بنوع من الكبرياء بقدر ما استطعت.

قلت: «لقد وضعتنى فى موقف صعب. لكن لو كان لديك بقية من رجولة، ناولنى سيفاً ودعنا نتقاتل للمرة الأخيرة، أعلم أنك ضعيف بسبب مرضك، لكن ما تعرضت له أنا لعدة أيام وليالى فى جهنمك؟ يجعلنا متساويين، يادى جارسيا!

«ربما يكون الأمر كذلك، لكن ما الحاجة لذلك؟ فالأمور سارت على ما يرام بالنسبة لى عندما وقفنا وجهاً لوجه من قبل، وكنت أخشى أن تكون نهايتى على يديك. وهذا أحد الأسباب التى جعلتنى أفكر فى تغيير إقامتى إلى هذه المناطق الحارة. لكن انظر إلى حماقة مخاوفى، يا صديقى. فأنا مازلت حيا، رغم إننى مريض، وأنا انوى مواصلة الحياة، لكنك ميت بالفعل.

ثم أشار إلى الرجلين الأسودين، وقال: «إن هذين الرجلين فى الحقيقة، فى انتظار وضع نهاية لكلامك. هل لديك أى رسالة

بإمكانى أن أوصلها لك؟ لو أن الأمر كذلك، قلها، لأنه ليس هناك وقت، وهذه المهمة لابد أن تنتهى قبل طلوع النهار».

أجبت: «ليس لدى أى رسالة، أعطيها لك، يادى جارسيا، لكن دعنى أقول لك كلمة أنت تتصور أنك انتصرت، أيها القاتل الخسيس، لكن من المحتمل أن الجولة لم تبدأ بعد. وربما تظل مخاوفك مستمرة. أنا ميت، لكن انتقامى سيظل يطاردك دائما، لأننى أتركه للسيدة التى كان يجب، أن أتركه لها فى البداية. ربما تعيش لعدة سنوات، لكن لاتظن أنك سوف تفلت من العقاب؟ سوف تموت فى يوم من الأيام، بالتأكيد، مثلما سأموت الليلة بالتأكيد، وماذا بعد، يادى جارسيا؟

صاح: «خذوا هذا العبد، لماذا تتباطأون؟

تقدم الرجلان نحوى، لكننى لم أكن أنوى الاستسلام لهما لو استطعت، وكم تمنيت أن يشاركنى دى جارسيا قدرى. فجأة قفزت نحوه وسحبته نحو الوسط، بعد أن نزعته من مقعده. وكم كانت قوتى التى بثها فى غضبى ويأسى. حتى أننى أوقفته على قدميه. لكن الأمر انتهى بأن اندفع البحاران الأسودان نحونا وخلصوه من بين ذراعى، لحظتها تأكدت أننى خسرت كل شىء، لأن البحاران كانا على وشك أن يمزقانى بسيفيهما، فقفزت إلى البحر.

كان تفكيرى يُملى على أن أغرق بأسرع ما يمكن، ولا داعى لأن أحاول السباحة، وأغرق على الفور، لكن غريزة حب الحياة كانت أقوى منى بكثير، وما أن لمست الماء، حتى قاومت وبدأت السباحة بمحاذاة جانب السفينة، محافظاً على نفسى فى ظلها، خوفاً من أن يقوم دى جارسيا باطلاق النار على. وبينما كنت أسبح سمعته يصرخ وهو يلعن.

«لقد ولى، وهذا من مصلحتى، فقد كانت مخاوفى منه مؤكدة بأى حال، أووف! كم كان منظر هذا الرجل يرعبنى؟

بينما كنت أسبح على مبعدة قليلة من السفينة، رفعت رأسى ونظرت حولى على امتداد المياه، فرأيت شيئاً طافياً على بعد، فسبحت نحوه، وأنا أتوقع بأن كل لحظة تمر على ستكون الأخيرة بسبب أسماك القرش. وما إن وصلت بالقرب من هذا الشىء، حتى اكتشفت أنه برميل ضخم ألقى من السفينة ويطفو فوق سطح الماء. وصلت إليه ودفعته من أسفل، واستطعت الإمساك بحوافه العليا بيدى. ووجدت أن نصفه ملىء بالخبز، وقد ألقى فى البحر لأن الخبز عفن. كان ثقل الخبز هو الذى جعله يطفو بشكل رأسى فى الماء. فكرت أن أدخل داخل البرميل ليحمينى من أسماك القرش، لكن، كيف السبيل إلى ذلك، لا أعرف.

بينما كنت متحيراً، حدث أن نظرت خلفى فرأيت زعنفة سمكة قرش مشرعة فوق الماء على بعد عشرين ياردة متجهة بسرعة نحوى. تملكنى الفزع فألهمنى القوة والصواب. جذبت حرف البرميل إلى أسفل فتسربت المياه اليه، وأمكسته من الطرف الآخر بيدى، ورفعت نفسى فوقه، وثنيت ركبتى. حتى هذه الساعة لا أعرف كيف فعلت ذلك، لكنى فى اللحظة التالية كنت داخل البرميل، دون أى أصابات سوى جرح بسيط فى ساقى.

رغم عثورى على هذا البرميل الذى كان بمثابة قارب إنقاذ، إلا أنه كان على وشك الغرق، لأن حافته كانت طافية بمقدار بوصة عن سطح الماء. وتأكدت أن دفعة ماء تدخل إليه كفيلة باغراقه. فى هذه اللحظة رأيت زعنفة القرش على بعد ياردات منى، ثم أحسست بالبرميل يرتج عندما ضربه القرش بأنفه.

بدأت بعد ذلك فى نزح الماء بيدى من البرميل، فإرتفعت حافة البرميل فوق سطح الماء. عندما إرتفع البرميل بمقدار بوصتين، ظهر القرش فوق سطح الماء، وأخذ يتقلب على جانبيه، وشرع يعض حافة البرميل، لدرجة أننى سمعت أسنانه تطحن الخشب والإطار الحديدى. فامتلأ بالماء ثانية بعد أن مال قليلا، ولو حدث وعادت سمكة القرش ثانية لكنت إنتهيت. ويبدو أنه ابتعد عندما تذوق طعم الخشب والحديد، رغم أننى كنت أرى زعنفته من حين إلى

آخر من على بعد. أتيحت لى الفرصة لكى أستريح وأفكر بأن كل ما حدث كان بلا فائدة، فأنا ميت لا محالة فى النهاية سواء بسبب البحر أو العطش.

تضرعت إلى الله ليساعدنى، ولم يحدث من قبل أن تضرعت بمثل هذا الإحساس مثلما حدث فى تلك اللحظة، وما إن انتهيت حتى هبط على إحساس ما بالسكينة والأمل. وتأملت الموقف، وقلت لنفسى أنه شىء رائع حقا أن أفلت من الموت ثلاث مرات ومن أخطار جسيمة خلال عدة أيام قليلة، من السفينة الغارقة أولاً، ثم من الجوع والمرض فى مخزن السفينة مع العبيد، والآن، حتى لو كان لفترة من فكى سمكة القرش المفترسة.

استعدت شجاعتى وارتفعت معنوياتى حتى أصبح لدى فرصة لتأمل جمال الليل. كان البحر هادئاً مثل سطح بركة، لم تكن هناك نسمة هواء، وبدأ القمر يغيب، وبدأت أضواء آلاف النجوم تتلألأ هذا المشهد الذى لا تراه فى إنجلترا، كان يملأ السماء كلها، وأخيراً بدأت النجوم تشحب وبدأت تباشير الفجر تظهر من جهة الشرق، بعد ذلك ظهرت خيوط الشمس الأولى. لم أستطع الرؤية لمسافة خمسين ياردة بسبب الضباب الكثيف الذى انتشر على صفحة المياه الهادئة. وظل عالقاً هكذا لمدة ساعة أو أكثر. عندما اشتدت الشمس وانقشع الضباب أخيراً، اكتشفت أن المياه حملتنى بعيداً

عن السفينة، ولم أعد أرى سوى صواريها التى بدأت تتلاشى أمام بصرى. أصبح سطح البحر خالياً من الضباب، فيما عدا منطقة فى اتجاه معين، حيث ظل عالقا بكثافة، لكن لماذا يظل الضباب فى ذلك المكان، بالذات دوناً عن أى مكان آخر، فهذا لم أستطع أن أدرك سببه.

اشتدت حرارة الشمس، وبدأت معاناتى، لأننى لم أشرب ماءً منذ يوم وليلة. ولم أقص عليكم ما حدث بالتفصيل، يكفى أن أقول أن ذلك يشكل صورة نادرة. لأولئك الذين لم يقفوا أبداً داخل برميل ساعة بعد ساعة، ورؤوسهم مكشوفة، يموتون من العطش، بينما حرارة الشمس الإستوائية المحرقة. تضربهم من أعلى، وتنعكس عليهم ثانية من سطح المياه. أحسست فى لحظة، بالإغماء، وبدأت رأسى تثقل وتتمايل، واستطعت بصعوبة أن أنقذ نفسى من السقوط فى البحر، وأخيراً رحت فى سبات نوم عميق أو غيبوبة، أفقت منها على صوت صيحات طيور ومياه تتساقط. تطلعت ولدهشتى وفرحتى اكتشفت أن ما ظننته كومة من الضباب كان فى الحقيقة أرضاً منخفضة، وإكتشفت أننى كنت أتحرك بسرعة مع المد تجاه حاجز رملى لنهر كبير، كانت أصوات الطيور تصدر عن سرب كبير يقوم بصيد السمك، الذى يتجمع ليتغذى عند التقاء المياه العذبة بالمياه المالحة. وبينما كنت أراقب ذلك،

رأيت طائراً يقبض على سمكة لايقل وزنها عن ثلاثة أرطال، ويحاول أن برفعها من الماء. لكنه فشل فى ذلك، فأخذ ينقرها فى رأسها حتى ماتت، ثم بدأ يلتهمها فى الوقت الذى كان المد يدفعنى إلى نفس المكان فأسرعت بالإمساك بالسمكة. وفى ثوان كنت آكلها نيئة.

عندما إزدرت كل ما إستطعت من السمكة دون شرب ماء، وضعت بقيتها فى جيب معطفى، واتجهت ناحية المياه المتكسرة عند الحاجز. وعندما اكتشفت أننى لن أستطيع الوصول إلى هناك وأنا داخل البرميل، خرجت إلى الماء وتعلقت بالبرميل. كنت فى منطقة أمواج متكسرة، وعانيت صعوبة فى التعلق بالبرميل، لكن المد دفعنى إلى الأمام بقوة، وخلال نصف ساعة عبرت منطقة الأمواج ووصلت إلى مصب النهر الكبير. كان الحظ لايزال معى، فقد وجدت قطعة خشبية طافية بالمجرى، وبواسطتها إستطعت أن أسير البرميل تجاه الشاطىء. وصلت إلى الشاطىء دون إصابات، وكان الحظ حليفى فى كل ذلك، لأننى نجوت من التماسيح التى كان النهر مليئا بها، والتى لم تصادفنى على الإطلاق.

وصلت إلى الشاطىء فى الوقت المناسب، فقبل أن أصل كان المد قد بدأ ينحسر ثانية إلى داخل البحر ويحملنى معه. وحقيقة، كانت كل قواى قد انهكت خلال العشر دقائق الأخيرة، فى المجهود

الذى بذلته للتحكم فى البرميل للوصول إلى الشاطىء. وأخيراً، رأيت البرميل يطفو فوق عمق لايزيد عن أربعة أقدام، فتركته وسرت نحو الشاطىء وألقيت بنفسى على الأرض، لأستريح وأشكر الله الذى أنقذنى عنايته الفائقة. لكن العطش عاودنى بشدة أكثر من أى وقت، ولم يدعنى أتمدد طويلا، فنهضت على قدمى وسرت على الشاطىء حتى وصلت إلى بركة، صغيرة تجمع ماؤها من المطر، واضح أن ماءها طيب ولذيذ. بدأت أنهل من الماء وأنا أبكى من فرط سعادتى بطعم الماء، وظللت أشرب حتى اكتفيت بعد أن شربت وغسلت وجهى وجسمى من الملح، أخرجت ما تبقى من السمكة وأكلتها بكل شكر وامتنان، وهكذا شعرت بالحيوية، فانطرحت على الأرض لأنام فى ظل شجرة صغيرة زهورها بيضاء.

الفصل السابع

صخرة التضحية

عندما طلع الصباح، وجدتنى فى حالة يُرثى لها، فقد كان وجهى متورماً فى حجم الشمامة، بسبب لدغ الناموس، أما جسدى فقد كان أفضل حالاً إلى حد ما، لم أستطع الاستقرار فى مكان ما، بسبب حك جلدى المتواصل، فكنت أقفز جرياً مثل رجل مجنون. وإلى أين كنت أذهب وليس أمامى سوى هذا المستنقع، حيث لايوجد أى مأوى أو أى أثر لإنسان؟ لم أستطع أن أتكهن، لكن طالما وجب على أن أتحرك فقد سرت بمحاذاة النهر، وأثناء سيرى كنت أوقظ العديد من التماسيح والأفاعى. تأكدت أننى لن أستطيع أن أحيا طويلاً فى مثل هذه المعاناة، لكننى صممت على المقاومة، حتى أسقط وأغيب عن الوعى، ويضع الموت حداً لمعاناتى.

ظللت على هذه الحال لأكثر من ساعة حتى وصلت إلى مكان خال من الأعشاب والشجيرات والغاب. عبر ذلك المكان كنت أنكفىء على وجهى وأترنح وأضرب بيدى المتورمتين البعوض الذى يطن حول رأسى.. وأحسست فى هذه اللحظة أن النهاية قد اقتربت، لأن قواى خارت وكنت على وشك السقوط، عندما وجدت نفسى فجأة أمام مجموعة من الرجال بشرتهم بنية، يرتدون ملابس بيضاء، كانوا يصطادون السمك من النهر. كانت بالقرب منهم قوارب طويلة خفيفة، وكانوا يأكلون. عندما رأونى صاحوا بلغة غير معروفة. والتقطوا أسلحتهم التى كانت ملقاة إلى جوارهم، سهاماً ورماحاً وهراوات خشبية على جوانبها قطع من الزجاج، وتوجهوا نحوى بنية قتلى. رفعت يدى إلى أعلى طالبا الرحمة، وعندما اكتشفوا أننى أعزل بلا سلاح ولا حول ولا قوة، أنزل الرجال أذرعهم وتحدثوا إلى.

هززت رأسى حتى يدركوا أننى لا أفهم، وأشرت ناحية البحر ثم إلى وجهى المتورم. هزوا رؤوسهم واتجهوا إلى أحد القوارب، وأحضر أحدهم عجينة بنية اللون ذات رائحة جميلة. وطلبوا منى بلغة الإشارة أن أخلع ملابسى التى بقيت على جسمى، والتى يبدو أنها أثارت حيرتهم جداً. فعلت ذلك وقاموا بدهان جسمى بهذه العجينة، التى كان لها أثر مريح على جلدى بعد ما قمت به من حك

أصابه بالالتهاب الشديد. بالإضافة إلى أنه جعل مذاق جسمى غير مستساغ للحشرات، لأنها لم تتضايقنى إلا قليلا.

بعد ذلك قدموا لى طعاماً، سمكاً مشوياً وخبزا مع شراب ساخن لذيذ تعلوه فقاعات بنية، عرفت فيما بعد أنه شراب الشيكولاته. عندما انتهيت من الطعام، تحدثوا مع بعضهم بصوت خفيض، ثم أشاروا إلى أن أدخل أحد هذه القوارب، وأعطونى خشبية لأنام عليها. أطعتهم، وجاء معى ثلاثة رجال، لأن القارب كان متسعاً. أحدهم كان وقوراً ذا وجه رقيق وسلوك مهذب، فتوسمت فيه أن يكون رئيس المجموعة، جلس بجوارى، بينما جلس الاثنان الآخران فى الناحية المقابلة من القارب وسيراه بواسطة المجاديف. تحرك القارب، وتبعه ثلاثة قوارب أخرى، وقبل أن نقطع مسافة ميل كنت قد نمت.

استيقظت أكثر إنتعاشاً، بعد أن نمت عدة ساعات، فقد كانت الشمس تغرب فى تلك اللحظة، ودهشت؛ إذ وجدت الرجل الوقور، رفيقى فى القارب، كان يحرسنى أثناء نومى ويبعد عنى الحشرات بواسطة فرع شجرة. كان يريد أن يظهر لى بتصرفه الرقيق هذا أنه لا خطر علىَّ من المرض، وأن مخاوفى من ذلك قد انتهت بعد أن استرحت، بدأت أتساءل عن ذلك المكان الغريب ومن هم سكانه. سرعان ما توقفت عن التفكير فى ذلك، لأنه لم يكن لدى شىء أبنى

عليه تصوراتى، وأخذت أتطلع إلى المنظر الذى أمامى. كنا فى هذه اللحظة نجدف فى مجرى نهر صغير.، وسرعان ما وصلنا إلى منطقة مستنقعات. فى الجانب الآخر منا، كانت هناك أرض عليها أشجار ضخمة بعضها ذات جمال رائع. فوق هذه الأشجار كانت هناك زواحف تتسلقها وتتدلى كالحبال حتى من الأفرع العالية. وبين هذه الأشجار نباتات غريبة ذات أزهار جميلة، وعلى أغصانها طيور ذات أصوات بحرية وألوان زاهية، وقرود تصرخ وتتشاحن أثناء مرورنا.

بعد أن غربت الشمس وتلاشى كل ذلك المنظر الجديد الغريب، وصلت القوارب إلى المكان الذى ترسو فيه وهو مشيد بالخشب، ونزلنا من القوارب، وفجأة أصبح الجو مظلماً، وكل ما استطعت اكتشافه، أنهم كانوا يقتادونى عبر طريق ممهد، حتى وصلنا إلى بوابة، تبين لى بعد سماع صوت نباح الكلاب، ولغط جموع الناس عندها، أنها بوابة المدينة. عبرنا البوابة وسرنا فى شارع طويل على جانبيه بيوت. عند باب آخر بيت توقف رفيقى وأمسك بيدى وقادنى إلى غرفة طويلة منخفضة تضيؤها مصابيح فخارية. فأقبلت بعض النسوة وقمن بتحيته، بينما قام آخرون بالإنحناء ولمس الأرض، وهم الخدم. سرعان ما توجهت كل الأنظار إلى، وتوالت الأسئلة المستفسرة على الزعيم، ولم أستطع إلا أن أخمن

معناها . بعد أن تفحصنى الجميع، أحضر العشاء، المحتشد بأنواع غريبة من اللحوم، ودعيت لتناول الطعام، أكلت وأنا جالس على خشبة صغيرة، أتناول الطعام من الأطباق التى كانت النسوة يضعنها على الأرض.

أثناء ذلك لمحت فتاة رائعة الجمال. كانت سمراء حقيقة لكن تقاطيع وجهها متناسقة وعينيها مليحتين. كانت طويلة وممشوقة القوام، وحلاوة وجهها كانت تضفى عليها بهاءً وروعة. مازلت أذكر هذه الفتاة لأنها أنقذتنى مرة من الموت كقربان للآلهة ومرة أخرى من التعذيب.

منذ اللحظة الأولى التى دخلت فيها هذا البيت، ورأيت مارينا هذه، كما سوف أدعوها (لأن أسمها الهندى طويل جداً لكى يكتب) وقد أخذتها شفقة بحالى، وفعلت ما فى استطاعتها لحمايتى من العيون المتطفلة وتلبية طلباتى. فقد كانت هى التى أحضرت لى الماء لأغتسل، وثوباً نظيفاً لأرتديه بدلاً من ملابسى الرثة، وعباءة مزينة بالريش لأضعها على كتفى.

عندما انتهى العشاء، أعطونى خشبة لأنام عليها فى حجرة صغيرة منعزلة رقدت هناك، وأنا أفكر بأننى قد أكون فقدت عالمى إلى الأبد، إلا أننى على الأقل وقعت بين أيدى أناس يتصفون

بالرقــة والعطف، هذا بالإضــافــة إلى أننى لاحظت من بعض تصرفاتهم أنهم لا يتسمون بالوحشية.

لكن كـان هناك شـىء واحد يؤرقنى، فقد اكتشفت أننى رغم معاملتهم الرقيقة إلا أننى كنت سجينا، فقد كان هناك رجل مسلح، بحربة نحاسية، ينام على عتبة باب غرفتى الصغيرة، قبل أن أنام تطلعت من خلال ألواح النافذة الخشبية، وتبين لى أن البيت مقام على حافة مكان مفتوح متسع، أقيم فى وسطه هرم ضخم إرتفاعه أكثر من مائة قدم. وفوق قمة هذا الهرم أقيم بناء من الحجر، فى اعتقادى أنه معبد، أمامه نار موقدة. وخلال تساؤلى عن الهدف من إقامة مثل هذا البناء العظيم، وعلى شرف أى عقيدة بُنى، أخذنى النوم.

فى الأيام القادمة سأعرف كل شىء.

من المفيد أن أقرر هنا، بأننى لم أكتشف إلا فيما بعد، إننى كنت فى مدينة (توباسكو) عاصمة أحد الأقاليم الجنوبية لدولة (أنا هوك)، الواقعة على بعد مئات الأميال لمدينة المكسيك العاصمة المركزية. كنت أول رجل أبيض يختلط بالهنود. لكن اسم الأسبان كان معروفاً للهنود، ولذا أبقونى كواحد من تلك الدولة الجديدة

الغربية (للتويل) أى الأسبان كما يسميهم الهنود، وكذلك بمثابة عدو تتعطش آلهتهم لدمائه.

استيقظت عند الفجر أكثر حيوية بسبب النوم، اغتسلت وارتديت ثيابى التى أعطونى إياها وذهبت إلى الحجرة الواسعة، حيث قدموا لى طعام الإفطار. وما إن انتهيت حتى دخل الزعيم الذى أحضرنى إلى هنا، ومعه رجلان آخران، أثار مظهرهما الرعب فى قلبى. كان وجهاهما يتسمان بالقسوة والرعب، ويرتديان أرواباً سوداء عليها علامات سرية باللون الأحمر، وشعر رأسيهما مضفر بدهان غريب. أخذ هؤلاء الرجال، بما فيهم الزعيم يتطلعون إلى بنوع من التبجيل الشديد، ويثبتون أنظارهم على بطريقة جعلت الدم يجمد فى عروقى. قام أحدهم بشق ثوبى الأبيض ووضع يديه القذرة على قلبى، وهو يعد ضرباته بصوت عال بينما يهز الآخران رأسيهما عند سماع كلماته. عرفت بعد ذلك أنه كان يقول إننى قوى جداً.

تطلعت حولى لأعرف رد فعل ذلك التصرف على وجوه الآخرين الذين حولى، فوقع بصرى على الفتاة مارينا، التى أثار مظهرها الشك فى إلى حد ما. فقد كان مرسوماً على وجهها الجزع والخوف، فتيقنت بأن شبح الموت يحلق فوقى.

وقــبل أن أفــعل أى شـىء، وحــتى قــبل أن أفكر، أمــسك بى الكاهنان، وسحبانى من الحجرة، وتبعنا كل أفراد البيت فيما عدا الزعيم ومارينا. بعد ذلك وجدتنى فى ميدان فسيح أو سوق كبيرة امتلأ سريعاً بأعداد كبيرة من الناس رجال ونساء واطفال، كانوا يتطلعون إلى وأنا فى طريقى تجاه الهرم، حيث توجد النار المشتعلة فوق قمته. قادونى إلى حجرة صغيرة عند قاعدة الهرم، وهناك قام كهنة بتمزيق ثوبى كله، فيما عدا قطعة قماش ملفوفة على وسطى، ووضعوا على رأسى تاجاً من الزهور المبهجة. كان فى نفس الحجرة رجلان هنديان، اكتشفت من هول رعبهما أنهما فى طريقهما إلى الموت أيضا.

بدأت الطبول تدق بقوة، وأخذونا خارج الحجرة الصغيرة ووقفنا بين صفين من الكهنة، وأنا فى مقدمة زميلى.. بعد ذلك بدأ الكهنة يرتلون، وتحرك الموكب لصعود الهرم عبر طريق يلتف ويلتف حوله، حتى وصلنا إلى ساحة منبسطة عند القمة. على الجانب الآخر البعيد كان يوجد برجان خشبيان ارتفاع كل منهما خمسون قدماً تقريباً. وهما معبدا الإلهين، هويتزل إله الحرب، «وكويتزال» إله الهواء، الذى تبدو رسومه المفزعة محفورة على الحجر وهو يبتسم إبتسامه مروعة نحونا ونحن نجتاز الباب المفتوح.

داخل هذين المعبدين كانت هناك مذابح صغيرة، فوقها أطباق كبيرة من الذهب تحتوى على قلوب أولئك الذين ضحى بهم فى اليوم السابق. فى مواجهة المعبدين كان هناك مذبح ناره مشتعلة بشكل دائم، وأمامه كتلة كبيرة من الرخام وقطعة صخر منحوتة على شكل عجلة قطرها حوالى عشرة أقدام، بوسطها حلقة نحاسية.

وما إن وصلنا إلى هذا المذبح، حتى أمسكونى وجرونى ناحية تلك العجلة الحجرية، ولفوا حول وسطى حزاماً جلدياً وثبتوه بالحلقة النحاسية، إلى الحد الذى يسمح لى بالوصول إلى الصخرة ولا أكثر، ثم أعطونى حربة حجرية مدببة، وأعطوا للهنديين الذين كانا معى حربتين كذلك، واتضح لى من خلال الإشارات أنه ينبغى على أن أقاتلهما، وكان دورهما هو محاولة تسلق الصخرة فى حين كان دورى أن أدافع عنها. اعتقدت بأننى إذا قتلتهما، فربما يطلقون سراحى، وحتى أنقذ حياتى فقد هيأت نفسى للقيام بذلك على قدر ما أستطيع.

بعد ذلك أعطى الكاهن إشارة البدء للرجلين لمهاجمتى، لكن الرجلين كانا تائهين بسبب الخوف، فلم يحركا ساكنا، فشرع الكهنة بضربهما بالسياط الجلدية حتى خرجا من الألم فاندفعا نحوى، وصل أحدهما إلى الصخرة وتسلق جزءاً صغيراً منها قبل الآخر،

فضربته بالحربة فى ذراعه. فأسقط سلاحه على الفور وهرب، وكذلك فعل الآخر، لأنهما كانا غير قادرين على القتال، وبالتالى فإن أى ضرب بالسياط كان لن يجدى لحثهما على مواجهتى ثانية.

ولما رأوا أنهم لايمكن أن يبثوا فيهما الشجاعة، قرر الكهنة التخلص منهما. ووسط صخب موسيقى غنائى، أمسكوا بالرجل الذى ضربته وسحبوه إلى الصخرة الرخامية، وهى صخرة التضحية. ألقوه عليها وصدره إلى أعلى، وأمسك به خمسة كهنة، إثنان يمسكان يديه، وإثنان يمسكان ساقيه، وواحد يمسك رأسه. بعد ذلك ارتدى كبير الكهنة عباءة حمراء لامعة (وهو نفس الكاهن الذى وضع يده على قلبى)، وقام بتلاوة بعض الصلوات، ثم رفع سكينا مقوسة، وبضربه واحدة منه شق صدر المسكين المحطم، ثم قام بطقوس التضحية القديمة للشمس.

عندما فعل ذلك، ألقت الجموع الموجودة بأسفل بنفسها على الأرض وظلوا راكعين على ركبهم، حتى رمى القلب فى الطبق الذهبى المواجه لتمثال الإله «هو يتزل»، فقام الكهنة بحمل جسد الرجل وهم يصيحون حتى حافة الهرم ودحرجوه على جانبه المنحدر إلى أسفل. عند قاعدة الهرم، رفعه رجال معينون لهذا الغرض وحملوه بعيداً، وحتى تلك اللحظة لم أعرف لماذا يحدث كل ذلك.

ما إن مات الرجل الأول حتى أمسكوا بالرجل الثانى وفعلوا به نفس الشيء. وأخيراً جاء دورى، ولم أشعر إلا وقد أمسكوا بى. غشيت عيناى ولم أعد أرى شيئاً حتى وجدت نفسى ممدداً على الصخرة البغيضة والكهنة يمسكون بأطرافى ورأسى، وأصبح صدرى مشدوداً مثل جلد الطبلة، بينما يقف فوقى ذلك الشيطان، الإنسانى بعباءته الحمراء ونصل السكين فى يده. لن أنسى أبداً وجهه الشرير، وتعطشه المجنون للدماء ولا تلك النظرة الشيطانية فى عينيه بينما كان يلقى بشعره المضفر إلى الخلف. ولم يسدد ضربته على الفور.

بدا لى أننى ممدد هنا منذ سنوات، بينما كان هو يصوب سكينه نحو صدرى. وإستطعت أخيراً خلال الغشاوة التى تجمعت أمام عينى أن أرى السكين تلمع عندما رفعها. شعرت لحظتها أن ساعتى قد دنت، وإذا بيد تمسك ذراعه المرفوعة فى الهواء، وسمعت صوت همسات.

يبدو أن ما قيل للكاهن لم يرضه، لأنه صاح فجأة بصوت عال واندفع نحوى ليقتلنى، لكن ذراعه أمسك بها ثانية قبل أن تسقط السكين على. بعد ذلك تركنى وتوجه إلى معبد الاله كويتزال، ولطول الفترة التى كنت مستلقياً فيها على الصخرة أعانى آلام

الموت مئات المرات، تأكدت أنهم قرروا تعذيبى قبل أن أموت، وبالتالى فقد تم تأجيله لهذا السبب.

سمعت على بعد صوت خطوات قادمة، فأغلقت عينى، لعدم قدرتى على رؤية السكين البشعة مرة ثانية، لكن ماذا حدث! لم تصبنى أى سكين. وفجأة حلوا وثاقى، ورفعونى لأقف على قدمى، الأمر الذى لم أكن آمله أبداً. ثم حملونى إلى حافة الهرم، لأننى لم أكن أستطيع السير، وصاح الكاهن فى جموع الناس بأسفل وقال لهم بعض الكلمات، التى جعلتهم يدمدمون مثل أشجار الغابة عندما تموج فيها الرياح، ثم أخذنى بين ذراعيه الملوثتين، بالدماء وقبلنى على جبهتى. فى تلك اللحظة، ولأول مرة لاحظت أن الزعيم يقف إلى جوارى، بوقارة ولطفه وابتسامته. وكما ابتسم عندما سلمنى للكهنة، ابتسم أيضاً عندما استعادنى منهم ثانية.

بعد أن اغتسلت وارتديت ثوباً نظيفاً، قادونى إلى معبد الاله كويتزال ووقفت وجهاً لوجه أمام رسمه القبيح، وأخذت أتطلع إلى الطبق الذهبى الذى كان سيتلقف قلبى، فى حين كان الكهنة يتلون بعض الصلوات. ومن هذه اللحظة قاموا بمساعدتى فى الهبوط على الطريق الملتوى للهرم حتى وصلت إلى أسفله، ومن ثم أمسك الزعيم بيدى وسار بى وسط الناس، الذين فيما يبدو كانوا يعتبروننى شخصاً مبجلاً. كان أول شخص رأيته عندما وصلنا إلى

البيت هو مارينا، التى نظرت إلى وأخذت تتمتم ببعض الكلمات الرقيقة، لم أستطع فهمها. بعد ذلك تركونى أذهب إلى حجرتى، حيث قضيت بقية اليوم مستلقياً مهموماً بالتفكير فى كل ما حدث. وفى الحقيقة، يبدو أننى جئت إلى أرض الشياطين.

الآن سأحكى لكم كيف تم إنقاذى من السكين. لقد أعجبت بى مارينا إلى حد ما وأشفقت على قدرى الحزين، ولكونها ذكية جداً، فقد وجدت سبيلاً لإنقاذى. عندما اقتادونى لكى يضحى بى، تحدثت إلى سيدها، الزعيم، وأقنعته بأنه طبقاً للاعتقاد السائد، فإن مونتزيوما إمبراطور أناهوك، لديه حساسية بالنسبة «للتويلز» أو الأسبان، ويود أن يرى واحداً منهم. فقالت له، نحن لدينا أسبانى جاءنا صدفة، وسيغضب مونتزيوما لو أننا ضحينا به فى مدينة بعيدة عن العاصمة، بدلاً من أن نرسله إليه، ليقوم هو بالتضحية به إذا رأى ذلك مناسباً، أجابها الزعيم بأن ذلك فى منتهى الحكمة، لكن كان يحب قول ذلك من قبل، لأنه الآن فى حوزة الكهنة، ولا أمل فى انقاذه من قبضتهم.

أجابت مارينا «كلا، هناك ما يمكن أن يقال، بأن الاله كويتزال الذى سيقدم إليه هذا الأسبانى بمثابة قربان، أبيض اللون، وربما يكون هذا الرجل من أحفاده. فهل يسعد الإله أن يقدم أحد أبنائه

كقربان له؟ وإذا لم يغضب ذلك الإله، فإن مونتيزوما سيغضب بالتأكيد، وينزل عقاباً شديداً بك وبالكهنة».

عندما سمع الزعيم ذلك، أيقن أن مارينا تتكلم الصدق، فأسرع إلى الهرم، وأمسك بالسكين التى كانت ستنزل على. فى البداية كان الكاهن الأكبر غاضبا، وأعلن أن ذلك إثم فظيع، لكن عندما أخبره الزعيم بما يدور فى ذهنه، إقتنع بأنه سيكون من الحكمة عدم استفزاز غضب مونتيزوما، وهكذا فكوا وثاقى، وقادونى إلى المعبد، وعندما خرجنا للناس صاح الكاهن فيهم قائلاً، بأن الإله قال بأننى واحد من أبنائه، ولهذا فقد عاملونى ساعتها وفيما بعد بكل احترام وتوقير.

الفصل الثامن

إنقاذ چواتيموك

كلمـا إزدادت مـعـرفتى بهؤلاء الناس، كلما قلت قدرتى على فهمهم. لكنهم بأى حال من الأحوال هم أشبه بمواطنى أى دولة من دول عالمنا الذى أعرفه ليس فيهم مبدعون فى الفنون، لكن قلة منهم بناءون عظام، وليس لديهم قوانين مكتوبة. أضف إلى ذلك أنهم كانوا شجعانا وبمقدورهم تحمل الألم. أما عقيدتهم فقد كانت بمثابة الداء يكمن فى جذور الشجرة وجوهر تعاليمها نبيل، وبها كثير من تعاليمنا، أما عن تطبيقاتها فقد سبق وذكرت.

وعندما عشت شهرًا فى توباسكو تعلمت ما يكفى من لغتهم للتحدث مع مارينا، التى أصبحت صديقا لها، ومنها جمعت معظم معلوماتى، وكذلك بعض النصائح التى ينبغى إتباعها ضمانًا لسلامتى. فى المقابل علمتها شيئًا من عقيدتى وبعض عادات الأوربيين، هذه المعلومات استفادت منها بعد ذلك فى التعامل مع

الأسبان، وجعلتها على استعداد لتقبل عقيدتهم، وأعطتها وعيا لتصرفات البيض وسلوكياتهم.

أخيرًا بعد مرور أربعة أشهر كاملة، عاد الرُسُل من بلاط مونتزيوما، وكانوا قد تأخروا كثيرًا بسبب فيضانات الأنهار، وبعض العقبات الأخرى التى صادفتهم أثناء رحلتهم، أبدى الأمبراطور رغبة شديدة فى رؤيتى فى غاصمته، لدرجة أنه أرسل معهم إبن أخيه، الأمير جواتيموك، بصحبة مجموعة كبيرة من الجنود والحراس، لإحضارى معه.

لن أنسى أبدًا لقائى الأول مع الأمير، الذى أصبح فيمابعد صديقًا عزيزًا ورفيق سلاح. ما إن رأيته حتى قمت على الطريقة الهندية، بلمس الأرض بيدى اليمنى، ثم رفعها إلى رأسى ثانية. لكن جواتيموك، بعد أن تفحصنى بعينيه وأنا واقف، وأمسك بيدى قوسًا وأرتدى ملابس صيد بسيطة ابتسم بلطف، وقال:

«إذا كان لى أن أحكم على الرجال من مظهرهم، ياتويل، فأنت وأنا متساويان فى الميلاد وفى السن، لأنك قمت بتحيتى مثلما يحى العبد سيده» ثم مد يده إلى.

تناولت يده، وبدأت أجيب عليه بمعاونة مارينا، التى كانت ترقب هذا السيد العظيم بعينين شغوفتين.

وقدمت له التحية .. بطريقة الهنود .

«قد يكون الأمر كذلك، أيها الأمير، فرغم أننى فى بلدى رجل له أهميته، وصاحب ثروة، فأنا هنا لا أساوى شيئا، وإنما مجرد عبد أنقذ من التضحية به.

. فقال بنظرة جاده: «أعلم ذلك، ولقد كان إنقاذك قبل أن تنقطع عنك الحياة، فى مصلحة الجميع هنا، وإلا كان غضب مونتزيوما قد حل على هذه المدينة». إرتعد رئيس الكهنة رعبًا، لأن سطوة اسم مونتزيوما كانت قوية فى تلك الأيام.

سألنى بعد ذلك عما إذا كنت أسبانيا، . أخبرته أننى لست أسبانيا لكنى واحد من الجنس الأبيض. تجرى فى عروقى الدماء الأسبانية لكن يبدو أن هذا الرد حيره، لأنه لم يسمع اطلاقا عن جنس أبيض آخر، قصصت له شيئا عن حكايتى، خاصة ذلك الجزء المتصل بفقدانى فى البحر.

عندما انتهيت قالى لى: «إذا كنت قد فهمت فأنت لست أسبانيا رغم أنه يجرى فى عروقك دم أسبانى، وجئت إلى هنا على ظهر مركب أسبانية، وأنا أجد هذه الحكاية غريبة، على أى الأحوال، هذا الأمر متروك لمونتزيوما لينظر فيه، لذا دعنا لا نخوض فيه أكثره من ذلك. والآن، أرنى كيف تستعمل هذا القوس الكبير، هل أحضرته معك، أم صنعته هنا؟ فقد قالوا لى، ياتويل، أنه لا يوجد هنا رماة للسهام».

اقتـربت منه وأريتـه القـوس الذى صنعتـه بنفـسى، وبإمكانه إطلاق السهم إلى مسافة تزيد على ستين خطوة عن أى سهم رأيته فى أنا هـوك. وتطرق بنا الحـديث إلى مسـائل الرياضـة والحـرب، وقد ساعدتنى مـارينا فى قصورى فى اللغة، وقبل أن ينتهى ذلك اليوم أصبحنا أصدقاء.

بعـد أسـبوع بدأنا رحلتنا الطويلة. لكن قبل أن أذهب ودعت صـديقى الزعيم وداعًا حارًا، وكذلك مـارينا التى بكت عند ذهابى. لم أرى الزعيم بعد ذلك، لكنى رأيت مارينا.

سـافرنا لمدة شـهـر كـامل، لأن المسـافـة كـانت طويلة والطريق صعب، أحيانا كنا نقوم بشق طريقنا خـلال الغابات، وأحيانا أخرى كـان يتـحـتم علينا أن ننتظر علـى ضفـاف الأنهـار. رأيت الكثـيـر من المشـاهـد الغـريبـة خـلال تلك الرحلة، والعـديد من المدن، التى كنا نمكث فيها بكثير من الراحة والتقدير، لكنى لا أستطيع منع نفسى من الحديث عنها كلها.

سـوف أحكى لكم عن شىء واحد باختصار، لأنه كان سـببًا فى تحـول الاحـترام الذى يـكنه كل منا للآخر، إلى صـداقة دامت حتى وفاته، ومـازالت تعيش فى قلبى حتى الآن.

ذات يوم تحتم علينا أن ننتظر بالقرب من شاطئ نهر عالى الفيضان، ولتمضية الوقت انطلقنا لصيد الغزلان، بعد ان قمنا بالصيد لفترة، تصادف أن رأى جواتيموك غزالاً يقف فوق تل صغير، فانطلقنا نطارده، وكنا خمسة لكن الغزال انطلق فى الأرض الفسيحة، وحجبته عنا الأشجار والأعشاب لمسافة مائة ياردة عن المكان الذى يقف فيه، وبالتالى لم تكن هناك فرصة للاقتراب منه، بعد ذلك بدأ جواتيموك يمزح معى، قائلاً: «والآن، ياتويل، انهم يروون حكايات عن مهارتك، وهذا الغزال يبعد عن مرمانا نحن الأزتيك، حتى لا يمكننا إصابته. دعنا إذن نرى مهارتك».

قلت: «سوف أحاول، رغم أن المسافة بعيدة».

مررنا تحت غطاء من الأشجار، ذات الأفرع المتدلية من على ارتفاع خمسة عشر قدمًا، ووضعت سهمًا فى القوس الذى صنعته بنفسى، وصوبت ثم شددت القوس، انطلق السهم مباشرة وأصاب الغزال فى قلبه، فانطلقت همهمات الإعجاب ممن كانوا معى.

وما كدنا نستعد للاقتراب من الغزال، حتى قفز قط برى.

(بوما)، يبلغ حجمه حجم القط العادى خمسين مرة، من فوق فروع الأشجار، حيث كان يراقب ماحدث، وانقض على كتف الأمير، فأجبره على السقوط على وجهه، وأنشب مخالبه فى ظهره وأخذ

يعضه. ولولا ارتداء الأمير لدرعه الذهبى، فلم يكن جواتيموك قد عاش على الاطلاق ليصبح امبراطوراً لاناهوك، وربما قد كان ذلك من الأفضل.

عندما رأى الجميع القط البرى (بوما) يمزق شخص أميرهم، رغم أنهم شجعان للغاية، إلا أن النبلاء الثلاثة تملكهم خوف فجائى وفروا ظنامنهم أنه مات. أما أنا فلم أفر، رغم أن ذلك كان مما يسعدنى جدًا، كان هناك سلاح هندى معلق فى وسطى يستخدم بديلاً عن السيف، هراوة من الخشب مرصع على جانبيها قطع من شظايا الحجارة الصلبة. رفعتها إلى أعلى، وهويت بها على رأس القط فسقط يتدحرج على الأرض والدماء تنفجر من رأسه. لكنه نهض فى لحظة متوجهًا نحوى وهو يزأر من الغضب. فأمسكت الهراوة بيدى الأثنين وأصابته الضربة وهو فى منتصف قفزته فى الهواء، حيث مرت الهراوة بن مخلبيه المفتوحين واستقرت على أنفه ورأسه.

فصاح جواتيموك : «أنت شجاع حقا، ياتويل، وأقسم بأن أكون صديقًا لك طوال حياتك حتى الموت، نظرًا لوقوفك بجانبى».

هكذا تحدث إلى؛ بينما لم يقل شيئًا للآخرين. بعدها أغمى على.

الفصل التاسع

مجلس البلاط الامبراطورى

كان قد مر شهر حين وصلنا إلى مدينة المكسيك، أضخم مدينة رأيتها، صحيح أن بيوت الضواحى كانت مبنية بالطين، لكن بيوت الأحياء الثرية كانت مبنية بالطوب الأحمر. كان كل بيت تحيطه مساحة كبيرة وحوله حديقة بها قنوات مائية على جانبيها ممرات للتمشى. كانت هناك ميادين، أقيمت فيها أهرامات، وقصور ومعابد لاتحصى. انبهرت بكل ذلك، لكن عندما رأيت المعبد الكبير أخيرًا ببواباته الحجرية المفتوحة من الشمال والجنوب والشرق والغرب، تلاشى كل شىء أمام روعته، هذا البناء ذو الجدران المزينة بالثعابين، وقاعاته المضيئة المبلطة، وأهراماته المزينة برسوم الجماجم الإنسانية آلاف فوق آلاف، وكذلك ساحة السوق الكبيرة.

بعد أن شاهدت ذلك. نزلنا المدينة لنسير عبر تل منحدر تظلله أشجار السدر العملاقة. ثم توقفنا فى منطقة زراعية، وطلبوا منى

أن أترجل من على فرسى. بعد ذلك قادنى الأمير جواتيموك داخل بيت رائع، كل حجراته مسقفة بخشب السدر، وجدرانه مزخرفة بقطع قماش ملونة فاخرة، كما أن الذهب كان متوفرًا فى كل أرجاء البيت، مثل توفر الطوب وخشب السنديان لدينا فى انجلترا. ثم قادنا خدم يحملون فى أيديهم عصيًا من خشب السدر، عبر ممرات وحجرات كثيرة حتى وصلنا أخيرًا إلى حجرة، ينتظرنا فيها خدم آخرون، قاموا بغسلنا بمياه معطرة، وألبسونا ملابس فاخرة.

بعد ذلك توجهنا ناحية باب وطلبوا منا أن نخلع أحذيتنا، وأعطوا كلاً منا عباءة خشنة لنرتديها وتخفى ملابسنا الفاخرة. وما إن فعلنا ذلك، حتى سمح لنا بالمرور من الباب. فوجدنا أنفسنا داخل قاعة كبيرة، حيث العديد من النبلاء وبعض النساء، والجميع وقوف يرتدون نفس العباءات. فى نهاية القاعة كانت توجد ستارة مذهبة، تنبعث من خلفها موسيقى حلوة.

وقفنا فى تلك القاعة الكبيرة، المضاءة بقناديل ذات رائحة جميلة، وتقدم كثير من الرجال لتحية جواتيموك، ولاحظت أنهم يتطلعون إلى بفضول. فى تلك اللحظة جاءت امرأة فى غاية الجمال. كانت طويلة وذات جلال، ترتدى تحت عباءتها الخشنة ملابس مشغولة بالجواهر. لم أر مثل هذا الجمال من قبل. عيناها

مليئتـان بالزهو وتشبهان عينا الغزال تمامًا، وشعرها الكستنائى ينسدل فوق كتفيها ومظهرها نبيل، ورغم رقتها إلا أنه كان بها مسحة الشجن، ومن الممكن أن تبدو أحيانا بمظهر جاد تمامًا.

قالت بصوت حلو: «تحياتى لابن عمى جواتيموك، أخيرًا عدت. لقد انتظرك والدى الملك طويلا، وكان يتساءل عن سبب تأخيرك. كما أن أختى، زوجتك تساءلت كذلك عن سبب تأخرك الطويل جدًا فى الطريق».

أثناء كلامها شعرت أكثر مما رأيت أن هذه السيدة تتفحصنى بعينيها.

أجاب الأمير: «أهلا بك، يا أتومى يا ابنة عمى. لقد تأخرت بسبب عدة عقبات فى الطريق. فمدينة توباسكو بعيدة جدًا، وكذلك المهمة الملقاة على عاتقى، ورفيقى تويل، وأومأ ناحيتى برأسه، ثم أكمل: «والحادث الذى تعرضنا له فى الطريق».

سألته: «أى حادث».

- «كان هو الشخص الوحيد الذى أنقذنى من بين فكى قط برى، وخاطر بحياته، فى حين فر كل الأخرين، وقد تعرض للإصابة بسبب ذلك. لقد أنقذنى رغم...». ثم أكمل باقى القصة فى كلمات قليلة.

أثناء سماعها للقصة رأيت عينيها تلمعان. عندما انتهى تكلمت ثانية، لكن إلىّ هذه المرة.

قالت وهى تبتسم: «أهلا بك، يا تويل . أنت غريب عنا، إلا أن قلبى مال إليك». وظلت تبتسم حتى غادرتنا.

سألت الأمير جواتيموك: «من هذه السيدة العظيمة»؟

- «أتومى، إبنة عمى، أميرة ولاية أتومى، وابنه عمى الأثيرة لديه.

إنها معجبة بك، ياتويل، وهذا شىء طيب بالنسبة لك من عدة جوانب أليس كذلك!

بينما هو يتكلم فتحت الستارة الموجودة فى نهاية القاعة. خلفها كان يجلس رجل على حشية لينة مطرزة بالخيوط، ينفث دخان التوباكو من غليون مذهب مصنوع من الخشب على غرار عادة الهنود. لم يكن هذا الرجل سوى الملك مونتيزوما، وهو طويل القامة ووجهه حزين وشاحب جدًا بسبب ما حدث في إحدى ولاياته .. كان يرتدى ثوبًا أبيض من القطن الخالص، وحزامًا من الذهب، وصندلاً مرصعًا باللؤلؤ، وعلى رأسه باقة من الريش الملكى الأخضر. خلفه كانت تقف مجموعة من الفتيات الجميلات، بعضهن يعزف على آلة العود والبعض الأخر يعزف على آلات

موسيقية أخرى، وعلى الجانبين يقف أربعة مستشارين كبار فى السن، حفاة الأقدام ويرتدون عباءات خشنة.

عندما أزيح الستار سرعان ماركع كل الموجودين بالقاعة، وكذلك فعلت أنا ، وظل الجميع هكذا حتى أشار الإمبراطور بغليونه، فوقف الجميع ثانية وأيديهم مسدلة إلى جانبهم، وعيونهم مطرقة فى خشوع ناحية الأرض، أثناء ذلك قال مونتيزيوما بضع كلمات إلى أحد مستشاريه، الذى انحنى ثم نزل إلى القاعة ببطء وهو يتطلع ناحية اليمن واليسار، حتى وقع بصره على جواتيموك، وبالطبع كان من السهل عليه أن يرانى، لأن رأسه كانت مرفوعة أكثر من أى شخص.

قال: «ياسمو الأمير، صاحب الجلالة يرغب فى التحدث إليك، ومع رفيقك الاسبانى».

قال جواتيموك: «افعل كما افعل ، ياتويل». ثم مضى فى طريقه إلى تجويف ما فى القاعة، حيث كان يوجد ساتر خشبى وما إن وصلنا حتى أسدل خلفنا وفصلنا عن باقى القاعة.

وقفنا برهة من الوقت وأيدينا مسدلة إلى جانبنا وأبصارنا مطرقة إلى أسفل، حتى أعطونا إشارة بالتقدم.

قال مونتيزيوما بصوت آمر منخفض : «تقريرك، يا إبن أخى».

ـ «ذهبت إلى مـدينة توباسكو، يا صـاحب الجـلالة. ووجـدت الأسبانى وأحضرته معى».

ـ «لماذا تأخرت كثيرًا فى طريقك ، يا ابن أخى».

ـ «بسبب ما صادفنا أثناء رحلتنا من متاعب فأثناء إنقاذ حياتى أصيب أسيرى الأسبانى بعضة من القط البرى. وقد أحضرنا جلده هدية لجلالتكم».

قـال الإمـبـراطور وهو يتطلع إلى «قل لى، ياتويل، لماذا جعلت رجالك ينزلون فى مملكتى ويقتلون شعبى؟

أجبتـه بقدر ما أستطعت وبمسـاعدة جواتيمـوك: «لا علم لى بذلك، ياصاحب الجلالة، وهم ليسوا رجالى».

«التقرير يقول إن دماء هؤلاء الأسبان تجرى فى عروقك، وأنك حضـرت إلى شـواطئنا، أو بالقـرب منهـا، فى واحـدة من سـفنهم الكبيرة».

ـ «هذا صـحيح، ياصـاحب الجـلالة، الا أننى لست منهم، كـما أننى وصلت إلى الشاطئ سابحًا داخل برميل».

أجاب مونتزيوما وقد بدا عليه الغضب: «أرى أنك تكذب، لأن سمك القرش والتماسيح لابد أن تهلك أى شخص يسبح هكذا. «ثم أضاف بقلق» هل أنت أحد أحفاد كويتزال؟

«لا أدرى، يا صاحب الجلالة، أنا من سلالة بيضاء، وجدنا الأكبر يدعى آدم».

فقال«ربما يكون إسمًا آخر لكويتزال، فهناك نبوءة قديمة بعودة أحفاده. ويبدو أن موعد مجيئهم قد حل .»ثم تنهد بعمق، وقال: «إذهب الآن.، وغدا سوف تقص على، حكاية هؤلاء الأسبان، وسوف تتولى لجنة الكهنة الحكم فى قضيتك».

عندما سمعت اسم الكهنة، صدمت حتى النخاع وبكيت، وضممت كفى فى رجاء، وقلت: «اقتلنى يا صاحب الجلالة اذا أردت، لكنى اتوسل إليك بألا تدعنى أقف بين أيدى الكهنة ثانية».

فأجاب بهدوء« كلنا بين أيدى الكهنة، فهم صوت الإله، بالإضافة، إلى أننى أرى أنك كذبت على».

بعد ذلك انصرفت، ينتابنى خوف شيطانى، وبدا جواتيموك منهزمًا أيضا وبكل مرارة لعنت الساعة التى قلت فيها إن لى دماءً أسبانية رغم أننى لست أسبانيا. لكن أوان ذلك كان قد فات الآن.

الفصل العاشر

توماس يصبح إلهًا

لم أكن أدرى أنا توماس وينجفيلد الإنسان العادى، عندما استيقظت من النوم صباح اليوم التالى، أننى سأصبح إلهًا قبل غروب الشمس، يلى الإمبراطور مونتزيوما فى الأهمية والاحترام، أو بالأحرى إلهًا لمدينة مكسيكو.

جرت الامور على النحو التالى. عندما تناولت إفطارى مع مشرف بيت الأمير جواتيموك، قادونى إلى قاعة العدالة. حيث كان مونتزيوما يجلس على عرش من الذهب، يمارس مهام العدالة بطريقة عظيمة رائعة لا يمكن أن أصفها. حوله مستشاروه وكبار رجال الدولة، وامامه جمجمة بشرية متوجه بأحجار كبيرة من الزمرد تنبعث منها وهجات مضيئة.

فى تلك اللحظة، دخل عدد من الكهنة إلى القاعة، يرتدون أروابًا سوداء، وضفائر شعورهم تتسدل على ظهورهم، كان

مظهرهم يتسم بالقسوة، وعيونهم تتسم بالجرأة وشخصياتهم قوية. صدمت عندما رأيتهم. كما أننى لاحظت أيضا أنهم قاموا بتحية الامبرطور تحية عادية. وعندما بدأوا يتكلمون مع الأمبراطور، تراجع المستشارون وكبار رجال الدولة إلى الوراء، تقدم اثنان منهم وأخذانى من بين حراسى، وتقدما بى تجاه العرش. وفجأة أمرت بخلع ملابسى، فعلت ذلك دون أدنى خجل، ووقفت أمامهم عريانا تماما. فتقدم الكهنة نحوى، وأخذوا يتفصحون كل جزء من جسمى عن قرب. كانت على ذراعى آثار سيف دى جارسيا، وعلى صدرى آثار أسنان ومخالب القط البرى. سألونى عن أسباب هذه الجروح. فقلت لهم، وبناء على ذلك، أخذوا يتناقشون فيما بينهم، بعيدًا عن سمعى، وتطور النقاش لدرجة الانفعال، وأخيرًا لجأوا إلى الامبراطور ليتخذ القرار، فكر لبرهة ثم سمعته يقول:

. «هذه الآثار لم تنتج من الجسم ذاته، ولا ولد بها هكذا، لكنها نتجت عن عنف بشر أو حيوان».

بعد ذلك شرع الكهنة يتحدثون ثانية، ثم همس كبيرهم فى أذن مونتزيوما ببضع كلمات.، فهز رأسه ونهض من فوق عرشه واتجه نحوى وأنا أقف عريانًا أرتعد لأن جو المكسيك بارد. بينما كان يتقدم نحوى خلع قلادة من الزمرد والذهب كانت حول عنقه وفك

رباط العباءة الملكية التى على كتفيه. ثم قام بـيديه بوضع القلادة حول رقبتى والعباءة على كتفى، وانحنى بخشوع أمامى كأنه فى صلاة ووضع ذراعيه على.

ثم قال: «مرحبا ! أيها المبارك. يا ابن كويتزال المقدس، يا حامل روح تيزكات، روح العالم، خالق العالم. ما الذى فعلناه حتى تشرفنا بحضورك لمدة فصل؟ ماذا يمكن ان نقدمه ردًا لجميلك؛ أنت خلقتنا وخلقت كل ذلك العالم، رحماك! وطالما أنت تعيش معنا فكل شىء ملكك، ونحن لا شىء سوى خدمك! أأمر، وستنفذ أوامرك، مجرد أن تفكر، ستنفذ أفكارك قبل أن تنطق بها شفتاك. أوه، ياتيزكات أتقدم أنا مونتزيوما، خادمك بكل الولاء والاخلاص لك وأيضا نيابة عن شعبى». ثم انحنى ثانية. انطلق الكهنة بالغناء: «كل الولاء والإخلاص، ياتيزكات.

خلال كل ذلك ظللت صامتًا مذهولا، لكل هذا العبث الذى لم استطع أن أستوعبه، وبينما أنا كذلك صفق مونتزيوما بيديه، فدخلت بعض النسوة يحملن ملابس جميلة وتاجًا من الزهور. ألبسونى الملابس ووضعوا التاج فوق رأسى، وهن يقدمن الولاء لى ويقلن:

«تيزكات الذى مات بالأمس عاد من جديد. فلنسعد، فقد بعث تيزكات ثانية فى شخص الامير الاسبانى».

بعد ذلك أدركت أننى أصبحت إلهًا، بل أعظم الآلهة، رغم أننى كنت أشعر داخل نفسى بأننى أحمق أو أبله أكثر من أى وقت مضى.

فى تلك اللحظة دخل رجال تبدو عليهم مظاهر الوقار يحملون آلات موسيقية فى أيديهم، قيل بأنهم المدرسون الذين سيتولون تعليمى وخلفهم طابور من الخدم الملكيين. قادمون من القاعة وهم يعزفون الموسيقى أثناء سيرهم، وقبل أن نتحرك صاح أحدهم بصوت عال معلنا، بأننى الإله.

تيزكات، روح العالم، خالق العالم، الذى بعث ثانية لزيارة شعبه.

طفنا بكل ردهات وغرف وقاعات القصر اللانهائية، وأينما حللت كان الكل ينحنى لى، الرجال والنساء والأطفال، يقدمون لى فروض الولاء والطاعة، أنا توماس وينجفيلد من دتشنجهام، مقاطعة نورفولك، حتى تصورت أننى قد صرت مجنونًا.

عندما عدنا إلى القاعة دخل خدم من الصبيان والنبلاء، يحملون ملابس جديدة ألبسونى إياها ووضعوا تاجًا آخر من الزهور أكثر نضرة فوق رأسى، ثم أخذونى لزيارة جواتيموك، تتقدمنى نساء جميلات يعزفن على آلاتهن الموسيقية.

وكانوا يعزفون الموسيقى.

كان الأمير جواتيموك واقفًا لاستقبالى، رغم أننى كنت أسيره ورفيقه، ورغم أنى شاهدت بعض المرح فى عينيه مشوبا بالأسى، إلا أننى انحنيت إلى الأمام وتحدثت إليه فى همس:

قلت: «ماذا يعنى كل ذلك أيها الأمير؟ هل هذا سخرية منى، أم أنا إله حقيقة؟!».

أجابنى وهو ينحنى قليلا ويتكلم بهمس: «هش هذا لا يعنى كلا الأمرين الخير والشر بالنسبة لك، يا صديقى توبل، سأحكى لك فيما بعد»، ثم أضاف قائلاً بصوت عال: «هل يسعدك، يا تيزكات، يا إله الآلهه أن نتناول الطعام معك، أم تفضل تناوله وحدك؟».

قلت: «الآلهة تفضل الصحبة الطيبة، أيها الأمير؟»

أثناء هذا الحديث لاحضت وجود الأميرة أتومى بين الحضور، وعندما توجهنا إلى المائدة المستديرة المتخصصة التى سنجلس على حشايا حولها، تمهلت لأرى أين ستجلس ومن ثم جلست إلى جوارها.

فقالت: «مكانك هناك ، يا تيزكات».

فقلت لها: «الآلهة تجلس حيثما تشاء»، ثم أضفت بصوت هامس، «وهل يوجد مكان أفضل من جوار أرق وأجمل إلهة على الارض؟».

فأجابت: «للأسف! فأنا لست إلهة، وإنما مخلوق فان، اسمع لو أنك ترغب فى أن أكون ملازمة لك خلال أعيادنا، فلتصدر أمرًا بذلك؛ ولن يجرؤ أحد على عصيان هذا الأمر، ولا حتى مونتزيوما والدى».

وهكذا نهضت واقفا وقلت للنبلاء الذين يقومون على خدمتى» شاءت إرادتى أن يكون مكانى دائمًا بجوار الأميرة أتومى».

سرت بين الموجودين همهمات عند سماع ذلك، فى حين بدا جواتيموك غاضبا فى البداية، ثم ضحك، وانحنى النبلاء والخدم، ثم صرح كبيرهم قائلا:

- «كلمات تيزكات ستكون مطاعة. فليكن مقعد الأميرة، المفضلة لدى تيزكات، إلى جوار مقعد الإله».

كان ذلك يتم بشكل دائم، فيما عدا أن كنت أتناول الطعام مع مونتزيوما نفسه. بالإضافة إلى أن الأميرة أتومى أصبحت تعرف فى كل أرجاء المدينة بأنها: «الأميرة المفضلة والمحبوبة لدى تيزكات» فقد كان هناك اعتقاد قوى لدى هؤلاء الناس. بأن ذلك تكريم وشرف لها، خاصة وهى تعد من السيدات الأوائل فى المملكة، والتى اختصها هو الذى حلت فيه روح إله العالم لفترة قصيرة، لتكون بصحبته دائمًا.

عندما انتهى الاحتفال، سنحت لى الفرصة لأسأل أتومى عن معنى كل ذلك. فهمست لى «ياللأسف! أنت لا تعرف بالطبع، ولا أنا أستطيع ان أجرؤ على أن أقول لك الآن. لكنى أقول لك، رغم أنك إله، وبإمكانك أن تجلس حيثما تريد اليوم، إلا أنه ستأتى عليك سّاعة يتحتم عليك أن تستلقى فى مكان لا ترغبه. اصغ إلى عندما تنتهى من الطعام، أفصح عن رغبتك فى التنزه بحدائق القصر، وبالتالى سأكون معك. حينئذ من الممكن أن تتاح لى الفرصة للكلام.

بعد انتهاء الاحتفال أعربت عن رغبتى فى التنزه بحدائق القصر بصحبة الأميرة أتومى، ومن ثم خرجنا وأخذنا نتجول تحت الأشجار الضخمة.

قالت أتومى: «أتعرف، ياتوبل»، ونادتنى باسمى القديم حيث لم يكن هناك أحد يسمعنا. «هذه عادة بلدنا، ففى كل عام يختار شاب جبرًا، بشرط أن يشبه تمامًا الإله تيزكات خالق العالم. ومن الضرورى أن تكون دماؤه نبيلة بالتحديد وأن يكون شكله جميلاً وخال من العيوب الخلقية.

توقفت اتومى عن الكلام برهة ثم إستطردت «لابد أن أخبرك، ياتوبل، وللأسف قد شاء قدرى أن أكون أنا من تخبرك بكل شىء، سوف تحكم مدينة «تينو سيتلان» كإله، لمدة عام، ولن يزعجك شىء

طوال هذه الفترة، إلا حضور بعض الاحتفالات، وتعلم بعض الفنون. أقل رغبة لك ستصبح قانونًا، وإذا إبتسمت لأى أحد، سيكون ذلك بشارة خير له، وسوف يباركونك حتى والدى مونتزيوما سوف يعاملك بكل إجلال واحترام. ستكون كل المتع متاحة لك طوال اثنى عشر شهرًا وفى اليوم الأخير من آخر شهر، سوف يجلسونك فى مركب ملكى ومعك زوجاتك اللاتى سيخترن لك، وتتوجهون عبر البحيرة إلى مكان يسمى «ذوبان المعادن» ثم يقودونك إلى هرم يسمى «بيت الأسلحة» حيث تودعك زوجاتك الوداع الأخير. وهناك ياتويل سوف تقدم قربانا للإله الذى حلت فيك روحه، الإله العظيم تيزكات، حيث ينتزع قلبك من جسدك، ويطاح برأسك من على كتفيك، وتوضع فوق عمود، يعرف باسم عمود الرؤوس.

عندما سمعت ذلك صرخت عاليا وارتعشت ركبتاى وكدت أسقط على الأرض. وتملكنى غضب شديد وأخذت ألعن آلهة ذلك البلد والبشر الذين يقدسونهم. لكن أتومى، التى سمعت بعضًا من كلامى، وتصورت ما هو أكثر، تملكها الخوف، وأرخت ذراعيها، وقالت:

«لا تلعن الآلهة المهابة، وأتوسل إليك، وإلا ستحل عليك بعض المصائب على الفور، لو أن كلماتك سمعت، فسوف يظن أن روحًا

شريرة قد تلبستك وأنك لست طيبًا، وبالتالى يتحتم موتك على الفور بعذاب أليم. فالآلهة الموجودة فى كل مكان سوف تسمعك».

أجبت «دعيهم يسمعونى، أنها آلهة مزيفة، وهذا البلد ملعون لأنه يقدسهم، سوف يتحطمون ومعهم كل قدسيتهم، وأنا لا يهمنى، إذا كانوا سمعونى. فأنا على استعداد لأن أموت الآن بألم، على أن أنتظر الموت عامًا كاملاً. لكنى لن أموت وحدى، فكل بحار الدم التى أراقها الكهنة، تصرخ تطالب الله بالعقاب، وسوف يحل غضبه!».

الفصل الحادى عشر

اختيار الزوجات

مرت الآن عدة شهور منذ ترسيمى إلهًا، وحتى يوم دخول الأسبان إلى المكسيك، وطوال تلك الفترة كانت المدينة فى حالة رعب شديد. وبعث مونتزيوما عدة رسل إلى كورتس محملين بالهدايا الكثيرة من الذهب والجواهر، ويرجوه فى نفس الوقت مغادرة البلاد، ولم يكن يدرى أنه بارساله مثل هذه الهدايا الثمينة إلى ذلك الأمير، فإنه يغرى الذئب للانقضاض عليه. مع هؤلاء الرسل بعث كورتس الإسبانى ردودًا لطيفة مع بعض الهدايا قليلة القيمة، وكان هذا كل شىء.

بينما كان الأسبان يتقدمون تجاه المدينة، توسل جواتيموك أكثر من مرة لمونتزيوما، بأن يطرح مخاوفه خلف ظهره، ويشن حربًا مفتوحة ضد الأسبان قبل فوات الأوان، وأن يتوقف عن إرسال

الهدايا والمراسيل، ويحشد جيوشه التى لا حصر لها، ويهاجم الاعداء فى ممرات الجبال.

لكن مونتزيوما كان يجيب: «وما الدافع لذلك، يا ابن أخى؟ كيف يمكننى قتال هؤلاء الرجال فى حين أن الآلهة نفسها وقفت إلى جانبهم؟ من المؤكد أن الآلهة من الممكن أن تقوم بدورها، إذا رغبت، أما إذا لم ترغب، فأنا لا يهمنى ما قد يحدث لى، لكن وأسفاه على شعبى! وأسفاه على النساء والأطفال والشيوخ والضعفاء».

بعد ذلك غطى وجهه وشرع فى البكاء بصوت عال، وولول مثل الأطفال، فتركه جواتيموك وهو مشحون بالغضب لحالة الجبن التى وصل إليها ملك عظيم مثله، وليس فى إمكانه أن يخلصه من ذلك، ولقد إعتقد جواتيموك، مثلما اعتقدت أنا، أن مونتزيوما قد أصابه مس الجنون من قبل الآلهة، لتدمير الوطن.

نقل الامبراطور إقامته وشئونه إلى القصر الكائن فى الميدان الكبير فى مواجهة المعبد. كان هذا القصر بمثابة مدينة كاملة، حيث كان ينام فيه كل ليلة أكثر من ألف شخص. كنت أستمتع بوقتى مع من أريد كل يوم فى هذا القصر، وعندما أمل من اللهو والمرح. كان من عادتى أن أخرج إلى الشوارع وأعزف على العود، وأنا أرتدى ملابس زاهية، تحوطنى مجموعة من النبلاء وطاقم من

الخدم الملكيين. كان الناس يندفعون من بيوتهم وهم يهتفون لى ويقدمون لى خالص الولاء والتقديس، أما الأطفال فكانوا ينثرون على الورود، والفتيات يرقصن أمامى وهن يقبلن يدىَّ وقدمى، حتى أصبح فى النهاية محوطًا بالآلاف. كنت أشاركهم الغناء والرقص كذلك، مثل أى فلاح أحمق، كنت أعتبر ذلك ضربًا من الجنون، أو ربما تكون نشوة القداسة قد تملكتنى فى تلك الأيام. كنت أعتقد اننى بذلك أنسى أحزانى، وأنسى أننى سأموت كأضحية، وأن كل يوم يمر يقربنى من سكين الكاهن المخضبة بالدماء.

كنت أود أن أنسى، لكننى لم أستطع، للأسف! كانت تطوف بخيالى مشاهد المياه المتساقطة القوية، ورائحة الزهور، والمناظر الجميلة، والتقدير والاحترام والتبجيل الذى كان يحوطنى به الناس، لكنها لم تكن تمنعنى عن التفكير فى قدرى السيئ، ولا إلى الحنين إلى وطنى البعيد، ولولارقة وتعاطف أتومى فى تلك الأيام، لكان قلبى قد تحطم أو قتلت نفسى. لكن هذه السيدة الرائعة الجميلة كانت دائمًا بصحبتى وتحاول اسعادى بألف طريقة وطريقة، ومن حين لآخر كانت تبعث فى الأمل بكلماتها الرقيقة، التى تجعل قلبى يدق.

كنت أتكلم كثيرًا مع أتومى، أعلمها تعاليم المسيحية وأشياء أخرى كثيرة. كانت تصغى إلى باهتمام، وهى ترقبنى بعينيها

الحانيتين، فقد كانت بالتأكيد أكثر النساء تواضعًا، بالإضافة إلى أنها أجملهن وأروعهن.

هكذا مضت الأمور حتى أصبح الاسبان على مقربة من مدينة المكسيك. تصادف أن كنت جالسًا ذات صباح فى الحديقة وآلة العود فى يدى ، ومن خلفى النبلاء والمعلمون، على بعد مسافة قصيرة احتراما لى، ومن مكانى هذا كان فى استطاعتى رؤية مدخل القاعة التى يجتمع فيها الامبراطور يوميا مع مستشاريه، ولاحظت أنه بعد انصراف النبلاء، بدأ الكهنة يخرجون، وخلفهم عدد من الفتيات الجميلات، بصحبة نسوة فى منتصف العمر.

فى تلك اللحظة حضر الأمير جواتيموك وهو يبتسم، رغم أنه كان يبتسم نادراً، وسألنى عما كنت أعرف ماذا كان يدور بالداخل. فقلت له بأننى لا أعرف أى شىء، ولا يهمنى ذلك، لكننى خمنت بأن مونتزيوما ربما يكون قد جمع بعض الهدايا الثمينة، لكى يرسلها إلى أسياده الأسبان.

فأجاب الأمير بكبرياء: «انتبه للطريقة التى تتكلم بها، ياتويل، قد تكون كلماتك صحيحة، لكنى رغم أننى أحبك، إلا أنك لابد أن تكون آسفًا على مانطقت به، حتى لو كنت تحمل روح تيزكات. للأسف!. ثم أضاف وهو يضرب الأرض بقدمه، «ياللأسف! فجنون

عمى أتاح الفرصة لمثل هذا الكلام أن يقال. آه! لو كنت امبراطورًا لاناهوك، لكانت رؤوس كل الأسبان معلقة فوق قمة المعبد».

فأجبته ساخرًا: «انتبه لما تقول، أيها الأمير لأنه هناك من يستطيعون إيلامك، بسبب كلماتك. فذات يوم ستصبح امبراطورًا بعدها سوف نرى كيف تتعامل مع الأسبان، الآخرون على الأقل ولست أنا، لكن ماذا لديك من أخبار؟ هل يختار مونتزيوما زوجات جديدات».

«هو يختار زورجات، لكن ليس لنفسه، أنت تعرف، ياتويل، أن وقتك يغدو قصيرًا، لقد اختار مونتزيوما والكهنة الزوجات التى، سيوهبن لك».

قلت وأنا أنظر إلى قدمى«يوهبن لى. يوهبن لشخص مصيره الموت! ما شأنى أنا بالحب والزواج؟ أنا الذى سيكون بعد عدة أسابيع ممددًا على المذبح؟ آه! يا جواتيموك أنت تقول إنك تحبنى، وأننى أنقذتك ذات مرة. لو كنت تحبنى حقا، فبالتأكيد لابد أن تعمل على انقاذى كما أقسمت على ذلك من قبل».

«لقد أقسمت أن أهبك حياتى، ياتويل، إذا كان ذلك فى استطاعتى، وسوف أحافظ على هذا القسم، لأن الكل لا يقيمون وزنًا كبيرًا للحياة مثلك، يا صديقى. لكنى لا أستطيع مساعدتك،

لأنك أصبحت فى مرتبة الآلهة، ولو أننى مت مئات المرات، فلن ينجيك ذلك من قدرك. لن ينقذك شىء سوى عناية الآلهة، لو شاءت ذلك. لذا، يا تويل، استمتع بحياتك على قدر ما تستطيع، ومت بشجاعة عندما يتحتم عليك ذلك. إن حالتك ليست أسوأ من حالتى وحالة الآخرين، لأن الموت ينتظرنا جميعا. الوداع!».

عندما انصرف، نهضت وغادرت الحديقة، ودلفت إلى حجرة، كنت أستقبل فيها من يرغبون فى إلقاء نظرة على الإله تيزكات، كما كانوا يطلقون على.

جلست فوق حشيتى الذهبية وحدى، لأن أحدًا لا يجرؤ على دخول هذه الحجرة دون إذن منى، ومالبث رئيس الخدم أن أعلن بأن شخصًا يود التحدث، فأشرت له بالموافقة، لأننى كنت منهمكا بأفكارى، انسحب الخادم، ودخلت امرأة منقبة ووقفت أمامى. تطلعت إليها متسائلا، وطلبت منها أن تكشف وجهها وتتكلم، فإذا هى الأميرة أتومى. نهضت على الفور بدهشة شديدة، فلم يكن من عادتها أن تزورنى هكذا وحيدة. توقعت أن يكون لديها بعض الأخبار، أو أنها ربما تلتزم ببعض التقاليد التى أجهلها.

قالت فى شىء من الأسى: «أرجوك أن تجلس، فليس من اللائق أن تقف أمامى».

أجبت: «ولم لا، أيتها الأميرة، إن لم يكن احترامًا لمنزلتك فبالتأكيد، تقديرًا لجمالك».

فقالت وهى تشير بيدها الصغيرة: «باختصار، لقد حضرت إلى هنا، ياتيزكات المبجل، طبقًا للتقاليد القديمة، لأننى أحمل إليك رسالة فلقد أحضرت لك أسماء الزوجات اللاتى وقع الاختيار عليهن لتزف إليهن».

- «أكملى، أيتها الأميرة أتومى».

- «إنهن ...» وأعلنت أسماء ثلاثة فقط، أعلم أنهن من ألطف النساء فى المدينة.

فقلت لها بضحكة : ساخرة: «أعتقد أنهن أربعة. هل سرقت منى الرابعة».

أجابت: «الرابعة موجودة» ثم سكتت.

قلت لها: «ما اسمها، لكن ما أهمية امرأة أخرى عادية تم اختيارها لتتزوج مخلوقًا مسكينا سيقدم قربانًا للآلهة».

- «إن المرأة التى تم اختيارها، ياتيزكات العظيم، تحمل صفات وألقابًا أكثر مما تتصور».

تطلعت إليها لأعرف ماذا تعنى، لكنها واصلت كلامها بصوت خفيض.

«إنهـا أنـا، أتومى، أمـيـرة ولايـة أوتومى، إبنة مـونتـزيـومـا، أنا الرابعة والأولى».

قلت وأنا أتراجع إلى الخلف فوق حشيتى : «أنت؟!».

- «نعم، أنا. اصغ إلى: لقـد تم اخـتـيـارى بواسطة الكهنة، باعتبارى أجمل جميلات البلاد، رغم أنى لا أستحق ذلك. غضب والدى الامبـرطور، وقـال لا يمكن باى حـال من الأحـوال أن أصبـح زوجة لـرجل سيكون أضحية فوق المذبح. لكن الكهنة أجابوا بأنه لا وقت لديه للاحتـفـاظ بـابنتـه، الآلهـة فـيـه غـضـبى. وقـالوا، كـيف تحجب السيدة الأولى فى البلاد عن الإله؟

بعد ذلك تنهد أبى وقـال بأن الأمر مرهون برغبتى. فقلت. أنا مع الكهنة، خاصـة ونحن الآن فى محنة كبيـرة، ولابد أن نحط من كبريائنا، ولو بالزواج من عـبد رسم إلهـا، وقـدر له أن يضـحى به، لذا، فقد قررت أنا، الأمـيـرة أتومى أن أصبح زوجة لك، ياتيزكات المبجل، على أمل أن أجد الحب، ولو لفترة قصيرة فى ذلك الموقف المخـزى، لكن يبـدو أننى غـيـر مـرغـوب فى، ورغم فـوات الأوان للتـراجع، إلا أننى لست خـائفـة. هناك زوجـات أخـريات، وأنـا لن أسبب لك أى متاعب. لقد أبلغت الرسالة، فهل يسعدك أن أنصرف الآن؟ الاحتـفـال بالزواج سـيكون فى اليـوم الثـانى عـشـر منذ اليـوم ياتيزكات العظيم».

نهضت من جلستى وأمسكت يدها وأنا أقول:«أشكرك يا أتومى، لنبل تفكيرك ولولا ما أبديتم لى من حسن استقبال وصداقة أنت وابن عمك جواتيموك، لكنت الآن فى عداد الاموات، أنت تعملين على راحتى حتى آخر لحظة، ويبدو أنك تنوين الموت معى، كيف يسعنى أن أدرك معنى ذلك، يا أتومى؟ فى بلادنا لابد أن تحب المرأة الرجل - عكس المعتاد - حتى تقبل مشاركته الفراش، مثلما فعلت أنت عندما انتظرتينى عند الهرم. أنت يا من يتسابق الملوك لنيل رضاك، نزلت بقلبك إلى هذا الحد. كيف يتسنى لى قراءة ما قلتيه من كلمات يا أميرة أتومى؟».

- «اقرأها بقلبك، »همست بذلك، وأحسست أن يدها ترتجف فى يدى».

بعد ذلك، نهضت وكست وجهها بنقابها وخرجت ببطء من الحجرة، وتركتنى فى ارتباك عظيم.

الفصل الثانى عشر

الفاتنات الأربعة

مرت فترة من الوقت ثقيلة ضجرة، وأخيرًا حل يوم دخول كورتس وأبطاله المنتصرون إلى مدينة المكسيك، لم أشهد اللقاء بين مونتزيوما وبين كورتس، ورغم أننى رأيت الامبراطور يخرج للقائه فى كامل زينته مثل سليمان الحكيم، وحوله نبلائه. لكننى كنت على يقين، بأنه لم يكن هناك عبد فى طريقه ليضحى به، يحمل على قلبه هما أكثرمما كان يحمله مونتزيوما على قلبه فى هذا اليوم التعيس. فحماقته هى التى دمرته وأعتقد أنه كان يعرف أنه ذاهب لقدره.

فيما بعد، وقبيل المساء، رأيت الامبراطور عائدًا على محفته الذهبية، متجها إلى القصر الذى بناه والده أكسا. فى تلك اللحظة سمعت صوت صيحات الجماهير المحتشدة وجلبة الخيل والرجال المسلحين، ومن على مقعد بحجرتى رأيت الأسبان يتقدمون عبر

الشارع الكبير، فدق قلبى بشدة لمرآهم. كان كورتس فى المقدمة يرتدى بدلة حربية فخمة فوق حصانه، وهو رجل متوسط الحجم ذو ملامح نبيلة، وعينان فاحصتان تلحظان كل شىء، وخلفه عدد قليل من الفرسان، أما الباقى فكانوا مترجلين، كان يقود جيشه الصغير المنتصر، وهو يتطلع إليه بعينين فاحصتين جسورتين، كان رجاله يتضاحكون أثناء كلامهم بالاسبانية.

بجوار كورتس كانت تسير امرأة هندية جميلة ترتدى ملابس بيضاء وعلى رأسها تاج من الزهور، تحمل سيور حذاء كورتس، بينما كانت تمر أمام القصر إلتفتت برأسها. عرفتها على الفور، كانت صديقتى مارينا، التى حققت رغبتها الكبيرة التى كانت ترغب فيها ورغم كل الاضرار التى حاقت بوطنها، إلا أنها كانت تبدو سعيدة جدًا بما حققته وبحب سيدها لها.

أثناء مرور الأسبان، كنت أتفحص وجوههم واحدًا بعد الآخر. إذ ربما تجمع صدفة حسنة، بينى وبين دى جارسيا، بعد أن جعلنا الموت نواجه بعضا بعضا، خاصة وقد راودنى مجرد احساس بأنى سأراه وسط هذه الزمرة المنتصرة، فالمهام التى يقوم بها هؤلاء، وما ترتبط به من دماء وذهب، لابد أن تستهوى بشدة قلبه الشرير. لكن بصرى لم يقع عليه ميتا أو حيا، ضمن هؤلاء الرجال الذين دخلوا مدينة المكسيك ذلك اليوم.

فى هذه الليلة رأيت جواتيموك وسألته كيف جرت الأمور.

فقال: «لن يمضى وقت طويل حتى تكون هناك أحداث مثيرة فى المكسيك».

كان على صواب. فخلال أسبوع تم القبض على مونتزيوما بواسطة الأسبان، وسجنوه فى معسكراتهم، وعليه حراسة ليل نهار، ثم توالت الأحداث تلو الأحداث، فقد تم استدعاء بعض النبلاء من المناطق الساحلية بأوامر من كورتس، لقيامهم بقتل بعض الأسبان. وعندما وصلوا تم احراقهم أحياء فى ساحة القصر، لم يكن ذلك كل شىء.. فقد أجبر مونتزيوما على مشاهدتهم وهم يموتون وهو مقيد بالحديد فى كاحليه. إلى هذا الحد انحدرت الحال بامبراطور الأزتيك، حتى يتحمل هذه القيود مثل لص عادى، بعد هذه الاهانة. أقسم يمين الولاء لملك أسبانيا، وساعد فى القبض على حاكم كاكاما. أمير تيزكاكو، بالكذب والبهتان، وسلمه لأيدى الأسبان، وقد كان ينوى شن الحرب عليهم، كما سلمهم أيضا كل المخترن من ذهب وكنوز الامبراطورية، التى تقدر بمئات الألوف من الجنيهات الانجليزية.

تحمل الشعب كل ذلك، لأنه لم يكن يعلم ماذا يجرى، لأنه كان لايزال يطيع أوامر ملكه الأسير. لكنه عندما سمح للأسبان بإقامة

طقوسهم الدينية بالمعبد، تعالت صيحات الغضب بين آلاف الأزتيك. ووصلت عنان السماء، وأمكن سماعها حيث يتجمع الرجال.

كانت أصواتهم مثل هدير بحر بعيد ثائر. كانت ساعة انفجار العاصفة على وشك الحدوث.

تزوج توماس خلال ذلك الوقت من زوجاته الأربع المختارات، لكن بمساعدة أتومى التى كانت واحدة منهن، استطاع أن يبقيهن بعيدًا عنه، فيما عدا ظهورهن معه فى الأماكن العامة.

فى اليوم التالى للاحتفال بزواجى، وقعت مأساة مخجلة، قتل فيها ستمائة نبيل من الأزتيك؛ بأمر من الجنرال ألفارادو، الذى نصبه كورتس نائبا له لأنه كان غائبا فى المنطقة الساحلية.

كان ذلك اليوم يوافق الاحتفال بعيد هوتيزال، الذى تقدم فيه الاضاحى، ويرقص المواطنون ويغنون فى الساحة الكبيرة للمعبد. تصادف فى ذلك الصباح أن حضر إلى جواتيموك لزيارتى قبل الذهاب للمشاركة فى الاحتفال.

سألته عما إذا كان ينوى المشاركة فى الاحتفال، نظرا لملابسه الضخمة التى كان يرتديها.

أجاب: «نعم، لكن لماذا تسأل؟».

- «لأننى لو كنت مكانك، جواتيموك، لن أذهب، قل لى، هل الراقصون مسلحون؟».

- «كلا، ليس من المعتاد ذلك!»

- «غير مسلحين، يا جواتيموك، وهم زهرة البلاد. سيرقصون بلا سلاح فى ساحة مغلقة، وسوف يراهم الأسبان مسلحين، ماذا يحدث ساعتها لو استغلت هذه الفرصة لافتعال معركة مع النبلاء؟».

- «لا أدرى لماذا تتكلم على هذا النحو، ياتويل، لأن هؤلاء البيض بالتأكيد ليسوا جبناء أو سفاحين، لكن كلماتك تعنى شيئًا ما، ورغم ذلك لابد أن يتم الاحتفال، ولكنى لن اشارك فيه».

قلت: «يالك من حكيم يا جواتيموك. أنا متأكد من ذلك».

بعد ذلك، توجهت أنا وأتومتى وجواتيموك إلى حديقة القصر، وجلسنا فوق قمة هرم صغير، بناه مونتزيوما فى مكان يسمح برؤية السوق وساحة المعبد من هذا المكان شاهدنا رقص نبلاء أزتيك وسمعنا الأغانى والموسيقى.

كان مشهدًا مبهجًا، خاصة وأن الشمس الساطعة كانت تنعكس على ملابسهم الملونة فتبدو كأنها معاطف من الجواهر. ولم يكن يدرى أحد كيف ستكون النهاية. اختلط بالراقصين مجموعة من

الأسبان الذين يرتدون دروعهم ويحملون سيوفهم وبنادقهم، لكنى لاحظت بمرور الوقت، أن هؤلاء الرجال بدأوا ينفصلون عن الهنود ويتـجـمـعـون مثل النحل عند البـوابات تحت الحـائط المزخـرف بالثعابين.

قلت لجـواتيـمـوك: «مـاذا يعنى ذلك؟» وأثناء كـلامـى، رأيت أسبانيـا يلوح بقطعة قمـاش بيضـاء فى الهواء. ثم قبل أن يتوقف التلويح بقطعة القماش، انبثق دخان من كل جانب، صاحبه صوت إطلاق النار.، وسـقط من بين الراقـصـين فى كل مكان قـتلى وجرحى. فى حين تكتلت غالبيتهم مثل قطيع غنم مرتعب، ووقفوا صامتين مذعورين. بعد ذلك استل الأسبان سيوفهم واندفعوا نحو النبلاء العزل وشرعوا فى قتلهم، بعضهم كان يصرخ عاليا والبعض الاخر كان يحاول الفرار، والبعض وقف ساكنا حتى يقتل، ومهما كانوا قد حاولوا الفـرار أو وقفـوا فى أمـاكنهم، فـإن النهاية كانت واحـدة، لأن البـوابات كـانت تحت الحـراسـة والأسوار عـاليـة جـدًا لتسلقها. وهكذا قضـى عليهم جميعا، ولعل الآلهة، التى راقبت كل ذلك، تكافـئـهم على ذلك! سـرعـان مـا انتهى كل شىء وبعـد عشـر دقـائق من التلويح بقطعة القـمـاش البـيـضـاء، كـان سـتـمـائة رجل ممدين على الأرض قـتلى، أو يصـارعـون الموت، ومع صـيـحـات النصـر التى كـان يطلقهـا الأسـبـان كانوا يقتطعون من أجسـادهم الأجزاء التى بها حلى ثمينة.

التفت إلى جواتيموك وقلت له: «أحسنت صنعًا بعدم المشاركة فى الحفل» لكن جواتيموك لم يجب بأى شىء.، وأخذ يحملق فى القتلى، وفى قاتليهم، ولم يقل أى شىء. أتومى فقط هى التى تكلمت . فقالت : «يالكم من أناس مهذبين ثم أضافت بضحكة مريرة: «أهكذا تردون الجميل لنا، أنا واثقة الآن أن مونتزيوما أبى سعيد الآن بضيوفه. آه! لو كنت مكانه، لكنت أرقدت كل واحد منهم على صخرة التضحية».

أخيرًا نطق جواتيموك، وقال: «لم يبق لنا سوى شىء واحد، وهو أن نطردهم بالدماء. لقد أصبح مونتزيوما امرأة، ولن أطيعه بعد الآن، ولو لزم الأمر، فسأقتله بيدى هذه، الآن لم يبق فى البلاد سوى رجلين عمى كوتيلاهو، وأنا . الآن لابد أن أذهب لاستدعاء جيوشنا». وانصرف بعد ذلك.

طوال تلك الليلة كانت المدينة تطن مثل الزنابير وأسراب النحل. فى فجر اليوم التالى، وعلى امتداد مرمى البصر، كانت الشوارع والأسواق مكتظة بعشرات الآلاف من الرجال المسلحين، كانوا يندفعون مثل الموجة على أسوار قصر أكسا، ثم يرتدون كموجة منحدرة من فوق صخرة إلى الخلف من جراء اطلاق النار. تارة يهاجمون وتارة يتراجعون. بعد ذلك ظهر الملك المرأة فوق الأسوار، يرجوهم أن يتوقفوا لأنهم لو نجحوا، فربما يلقى حتفه

فاطاعوه، لأن تبجيلهم لمكانته المقدسة كان عظيما، وتوقفوا عن مهاجمة الاسبان، فقد كانوا مصممين على طردهم، ومنذ تلك الساعة شددت الحراسة على القصر. لقد قتل المئات من الأزتيك، لكن الهزيمة لم تحق بهم بعد، لأن بعض الأسبان وقعوا أسرى فى أيديهم. هؤلاء الأسرى التعساء، الذين لاقوا حتفهم على الفور، اذ قدموًا قرباناً للآلهة على مرأى من زملائهم.

عاد كورتس بمزيد من الرجال. وكان من بينهم واحد أعرفه تمام المعرفة. إنضم كورتس إلى زملائه فى قصر أكسا دون مقاومة، ولا أدرى كيف تم ذلك. فى اليوم التالى أطلق سراح كويتلاهو شقيق مونتزيوما، على أمل تهدئة الناس، لم يكن كويتلاهو، فبمجرد أن خرج من سجنه، حتى استدعى مجلس المستشارين الذى يرأسه جواتيموك.

استقر رأيهم فى النهاية على الحرب، وقرروا أن مونتزيوما قد فقد مملكته بسبب جبنه، وتصرفوا على هذا الأساس.

الفصل الثالث عشر

نصيحة أتومى

فى اليوم التالى لعودة كورتس إلى المكسيك، وقبل طلوع الفجر بساعة، استيقظت من نومى القلق على صوت آلاف الجنود وقرع الطبول.

أسرعت إلى مكان المراقبة فوق قمة الهرم الصغير، حيث رافقتنى أتومى؛ فاكتشفت أن الجماهير قد احتشدت للحرب. وعلى امتداد البصر، رأيت جموعًا غفيرة بالآلاف وعشرات الآلاف تملأ ساحة السوق والشوارع.

ما إن بزغت الشمس، حتى قام كاهن بقرع طبلة بنغمة ذات إيقاع حاد، سرعان ما أجيب عليها بنفير استدعاء من الجانب الأسبانى وبصرخة غضب وحشية اندفع آلاف الازتيك للقتال، وأصبح الجو داكنا من جراء ما يطير من السهام والحجارة، وعلى

الفور اندلع خط من النيران والدخان متبوعًا بهدير مثل الرعد، قادمًا من فوق أسوار قصر أكسا، وسقط المهاجمون مثل أوراق الخريف وسط قنابل المدافع.

توقف العويل للحظة، ثم دوت صرخة ألم نحو السماء، فى حين رأيت جواتيموك يتقدم قافزًا إلى الأمام وبيده علم ليثير همتهم، فاندفعت الجماهير خلفه، عندما وصلوا إلى الأسوار، بدأ الهجوم. قاتل الأزتيك بشجاعة. ومرة تلو المرة جاهدوا لتسلق السور مستخدمين جثث الموتى كسلم، لكنهم لم يصمدو وابتلوا بخسارة فادحة. بعد فشلهم فى هذه المحاولة، صمموا على اختراق السور بعوارض خشبية ثقيلة، وعندما تم فتح ثغرة فى السور، وتجمعوا عندها مثل قطيع الغنم. فتحت المدافع نيرانها، وفرقت صفوفًا طويلة منهم وخلفت قتلى بأعداد لانهاية لها.

بعد ذلك بدأوا فى اطلاق السهام المشتعلة، واستطاعوا احراق ملاحق القصر، أما القصر فلم يحترق لأنه مبنى من الحجارة، وهكذا استمر القتال طوال اثنى عشر ساعة دون توقف، حتى حل الظلام ووضع نهاية لذلك، ولم يعد يرى سوى المشاعل التى لا حصر لها بدخانها، يحملها أولئك الذين يبحثون عن القتلى، وليس هناك أصوات تسمع سوى عويل النساء، وآهات الجرحى.

استمر القتال يومًا بعد يوم، حتى قتل الآلاف من الأزتيك، وكذلك عانى الأسبان وأنهكوا من الجوع والحرب والجراح، لأنهم لم يستريحوا ساعة واحدة. وأخيرا ذات صباح والقتال على أشده، ظهر مونتزيوما فوق قمة البرج الرئيسى للقصر. يرتدى ملابس فاخرة والتاج الملكى فوق رأسه. ووقف الضباط أمامه يحملون صولجانات ذهبية، وحوله النبلاء الذين رافقوه فى سجنه، وحراس من الأسبان، من ذراعه إلى الامام، وفجأة توقف القتال، وحل الصمت فوق المكان، حتى الجرحى سكتوا. ثم تحدث للجماهير. لم أسمع ماذا قال، لأننى كنت بعيدًا، لكننى عرفت فيما بعد، لقد توسل إلى شعبه أن يكفوا عن الحرب، لأن الأسبان أصدقاؤه وضيوفه، وسوف يرحلون عن المدينة قريبًا. عندما صدرت ضده الكلمات الجبانة من فمه، ساد غضب شديد، فبعدان كانوا يبجلونه لسنوات طويلة ويعتبرونه إلها، تعالت الهتافات إلى عنان السماء بكلمتين اثنتين «إمرأة !!.. خائن!!».

بعد ذلك رأيت سهمًا ينطلق إلى أعلى ويصيب الأمبراطور، وتلا ذلك سيل من الحجارة ، فوقع على أرضية البرج.

ثم انطلق صوت صائحا: «لقد قتلنا مليكنا، مات مونتزيوما»، وعلى الفور سادت حالة من الذعر، صاحبها صراخ فظيع، واندفعت الجماهير تجرى هنا وهناك، حتى لم يبق إنسان فى الساحة التى كانت غاصة بالآلاف.

استدرت لكى أهدئ من روع أتومى، التى كانت تراقب المشهد إلى جوارى ورأت والدها يسقط، فأدخلتها إلى القصر وهى تبكى. قابلنا الأمير جواتيموك، التى بدت على ملامحه مظاهر القسوة والشراسة. كان فى كامل عدته ويحمل قوسًا فى يده.

سألته: «هل مات «ونتزيوما؟».

فأجاب بضحكة شرسة: «لا أدرى سواء إن كان قد مات، أم لا .. ثم أضاف قائلاً: «لك الحق أن تصبى على لعنتك ، يا أتومى يا أبنة عمى، فسهمى هو الذى أصابه، هذا الملك الذى أصبح إمرأة وخائنا، كذب على أهله ووطنه».

كفت أتومى عن البكاء ثم قالت: «لا أستطيع أن ألعنك، ياجواتيموك لأن الآلهة قد أصابت أبى بالجنون، كما أصبته أنت بسهمك، ومن الأفضل أنه مات، أفضل له ولشعبه وليكن فى علمك، ياجواتيموك، بأننى على ثقة بأن جريمتك لن تمر دون عقاب، وسوف تدفع ثمن هذا الأثم الذى ارتكبته فى حق الملك المقدس، بأن تموت ميتة شنعاء».

فقال جواتيموك: «ربما يكون الأمر كذلك، لكننى على الأقل لن أموت وقد بعت وطنى» ثم انصرف.

والآن يجب أن ألفت النظر، إلى أن هذا اليوم كان آخر يوم لى على وجه الأرض، لأن غدًا ستنتهى مدة تنصيبى إلهًا ، وينبغى أن

أقدم، أنا توماس وينجفيلد كقربان، ورغم كل الارتباك الذى حل بالمدينة والحزن على القتلى والخوف الذى يحلق فى سماء المدينة، إلا أن الاحتفالات الدينية والأعياد، كان يحتفل بها بكل صرامة، بل وبصرامة أكثر من ذى قبل. فى هذه الليلة أقيم احتفال على شرفى، وكان على أن أجلس وعلى رأسى تاج من الزهور، وتحيط بى زوجاتى، كما قام النبلاء الذين بقوا على قيد الحياة بتقديم أسمى آيات التبجيل لى ومعهم كويتلاهو الذى سيصبح امبراطورًا بعد موت مونتزيوما. كانت جلسة حزينة بما فيه الكفاية، لأننى لم أستطع أن أبدو مرحًا، رغم إننى حاولت أن أغرق بلواى فى الشراب، أما الضيوف فلم يداخلهم إلا قليل من المرح. فالمئات من أقاربهم قتلوا، ومعهم آلاف من الناس، كما أن مليكهم الذى كان يعد إلهًا فى نظرهم، قتل فى نفس اليوم على يد واحد منهم، بالاضافة إلى كل ذلك، فقد انتابهم احساس. بأن النهاية ستطبق عليهم وبالتالى فليس هناك ما يدهشنا لكونهم بائسين؟ وبطبيعة الحال، فلن يكون هناك احتفال جنائزى أكثر غمًا أو حزنا من ذلك، لأنه لا الزهور ولا النبيذ ولا النساء الجميلات يمكن أن تخلق السعادة، وعلى أى فقد كان احتفالاً جنائزيا ... بالنسبة لى!

أخيرًا، انتهى الاحتفال، ومضيت مسرعًا إلى حجرة نومى، ألقيت نفسى على الحشايا الموجودة على سريرى وغرقت فى رعبى ومرارة قلبى، كانت نهاية العقاب الذى أقسمت أن أنزله بـ دى

جارسيا، بأن ينزع قلبى بعد أن يشق صدرى ويقدم هبة للشيطان، أثناء دوامة الفكر المرير وعميق أحزانى، بكيت بصوت عال، وتوسلت إلى خالقى أن ينقذنى من تلك الميتة الشنيعة، أو على الأقل يغفر لى آثامى، حتى يمكن أن أموت مستريحًا مساء الغد.

عند طلوع الفجر سمعت صوت موسيقى، ودخل خدمى يحملون رداءً أزهى من أى رداء لبسته من قبل. فى البداية قام الفتيان بخلع ملابسى وقام آخرون بدهان جسمى باللون الأحمر والأبيض والأزرق حتى أصبحت مثل العلم. ورسموا فوق قلبى دائرة باللون القرمزى بعناية شديدة ومقاس معين. ثم مشطوا شعرى حسب الموضة السائدة بين الهنود، وربطوه عند قمته بشريط أحمر ووضعوا باقة من ريش الديوك فوقه. بعد ذلك ألبسونى أردية زاهية، ووضعوا قرطًا فى أذنى، وأساور ذهبية فى رسغى وكاحلى، وعقدًا من الجواهر الثمينة حول عنقى. وعلقوا على صدرى حجرًا كريمًا بلون ضياء القمر. ووضعوا تحت ذقنى لحية مستعارة من أصداف البحر القرمزية. ثم حزمونى بجدائل من الزهور، وبعدها جلسوا معجبين بما قاموا به.

عزفت الموسيقى ثانية، وأعطونى آلتى عود، أمسكها بيدى الاثنين، ثم قادونى إلى القاعة الكبرى فى القصر، حيث تجمع عدد عن مختلف الرتب، جميعهم يرتدون ملابس الاحتفال. ثم خيم الصمت للحظات حتى دخلت مجموعة من الكهنة الأشرار من نهاية

القاعة، يرتدون عباءات قرمزية. كانت الدماء تخضبهم فى كل مكان، شعورهم الطويلة كانت مخضبة بالدم، وكذلك أياديهم، حتى عيونهم الشريرة، كانت تبدو مليئة بالدم. تقدموا داخل القاعة، ثم فجأة رفع كبيرهم يده وصاح بصوت عال:

«انطرح والاجلال للإله الخالد»

«التحية الجميع ساجدين على الأرض، قائلين:

«التحية والإجلال للإله!»

كرر الكاهن ذلك ثلاث مرات بصوت عال، وهم يرددون خلفه، وهم يسجدون على الأرض فى كل مرة. ثم نهضوا، وأشار الكاهن بيده فصدحت الموسيقى ثانية. ثم تقدم هو ومجموعته قبالتى وقادونى عبر القاعة مروراً ببوابات القصر التى فتحت على مصراعيها لتسمح بمرورنا. تطلعت حوالى بدهشة متحجرة فإكتشفت أن معركة غريبة تجرى بجوارنا. فعلى بعد مئات الخطوات كان هناك هجوم على قصر أكسا، حيث يقيم الأسبان، وهم يتميزون غضبًا. وكانت هناك مجموعة من المقاتلين تحاول تسلق الأسوار، فردتهم نيران الأسبان القاتلة، بينما كانت تنهال السهام والرماح والحجارة من آلاف الناس على ساحة القصر، من فوق أسطح المنازل المجاورة ومن فوق إفريز الهرم الكبير الذى سوف يشهد موتى.

على بعد خمسمائه ياردة أو أكثر، وبينما كان القتال مشتعلاً، كنت أنا فى الناحية الأخرى من بوابات قصر مونتزيوما، بمشاعر مختلفة تماما، فقد تجمع هنا جمهور حاشد به كثير من النساء والأطفال فى انتظار مشاهدتى وأنا أموت. كانوا يمسكون الزهور فى أيديهم، والموسيقى تصدح وصيحات الفرح تتصاعد عندما رأونى أطلقوا صيحة ترحيب على هدير المدافع وزئير المعركة، من حين لآخر كانت تسقط طلقة مدفع وسطهم، فتقتل وتجْرح بعضهم، فكان الآخرون لا يهتمون بذلك، بل كانوا يواصلون صيحاتهم مرحبا ياتيزكات، ووداعا، بركاتك، يا منقذنا، مرحبا ووداعا!.

مضى الموكب ببطء شديد بين الجموع ونحن نشق طريقنا مابين الزهور، حتى وصلنا عند أسفل الهرم، كانت البوابة الخارجية متكدسة بالناس، وبينما كنا ننتظر، اخترق جندى هذه الجموع وانحنى أمامى، عندما وقف وجدته جواتيموك.

همس لى «تويل، لقد تركت مهامى هناك» ثم تطلع إلى جنوده هناك الذين يحاولون اقتحام قصر آكسا، ثم واصل كلامه» حتى أودعك. وبالتأكيد سوف نلتقى ثانية، عما قريب، صدقنى، يا تويل، كان بودى أن أساعدك، لو كان باستطاعتى كم أتمنى أن نتبادل المواقع، وداعا، يا صديقى. لقد أنقذت حياتى مرتين، فى حين لا أستطيع إنقاذ حياتك.

قلت له « وداعا، جواتيموك، فلتحمك العناية الإلهية، لانك رجل حقًا.. بعد ذلك عبرنا البوابة.

أخيرًا، وبعد مسيرة ساعة لأننا كنا نتقدم ببطء، وصلنا إلى قمة الهرم المسطحة ومساحتها أكبر من ساحة كنيسة دتشنجهام وليس حولها أسوار. فى هذا المكان العالى كان يوجد معبد هويتزل ومعبد تيزكات، وهما مبنيان من الحجر والخشب، حيث رسمت على واجهتهما صور الآلهة المرعبة، وصور مذابح التضحية الملطخة بالدم وتوجد كذلك النار المقدسة المشتعلة دائما، وصخرة التضحية وطبلة كبيرة من جلد الثعابين أما باقى المكان فخال تماما، كان المكان مجردا لكنه ليس خاليا، حيث كان يقف فى الجهة المطلة على الأسبان مئات الرجال يقذفون الحجارة والحراب على معسكرهم دون انقطاع. على الجانب الآخر تجمع حشد من الكهنة للمشاركة فى الاحتفال بموتى أما فى أسفل، فى الميدان الكبير، فقد كان هناك آلاف من البشر، بعضهم مشغول بقتال الأسبان، أما غالبيتهم فقد تجمعت لمشاهدة قتلى.

وصلنا إلى قمة الهرم قبل منتصف النهار بساعتين، فقد كانت هناك مراسم إحتفالية لابد أن تجرى قبل التضحية. فى البداية قادونى إلى معبد تيزكات، الإله الذى أحمل اسمه تتصدره صورة له محفورة على رخام أسود وموشاة بزخارف ذهبية وفى يده درع من

الذهب المصقول، مثبت عليه عينان من الجواهر، تقومان بقراءة كل ما حدث على الأرض التى خلقها كما قال الكاهن. وأمامه طبق من الذهب، قام كبير الكهنة بتنظيفه، كما لا حظت، بقطعة كبيرة من اللباد، ثم قرب قطعة اللباد من شفتى حتى أشمعها فشعرت بغثيان وبنوع من الإغماء، فتيقنت أن الوقت قد حان لانتزاع قلبى الذى شعرت بضرباته داخل صدرى.

لم أدر عما إذا كانت هذه المراسم الاحتفالية قد جرت أم لا، لأننى سمعت فى هذه اللحظة ضوضاء فظيعة فى الميدان، وأسرع الكهنة بحملى لخارج المعبد. كل ما وعيته هو: هوس يصل إلى حد الجنون من خلال عاصفة من الحجارة والرماح والسهام التى تسقط عليهم من أعلى، فقد قام الأسبان بمهاجمة المعبد، حيث كانوا يتدفقون داخل الساحة بإعداد كثيرة، تحت قيادة كورتس نفسه، ومعهم حلفاؤهم من التلاسكالان، فى نفس الوقت كان آلاف المقاتلين الأزتيك يندفعون إلى بداية الدرج الصاعد لملاقاتهم، وبعد خمس دقائق أصبح القتال شرسا، من حين لآخر كان الأسبان يتفوقون على الأزتيك، لكن خيولهم كانت تنزلق على الأرضية المبلطة بالحجارة، وأخيرا ترجلوا عن خيولهم وواصلوا القتال وجهاً لوجه. وببطء ومع إراقة الكثير من الدماء تراجع الهنود، واستولى الأسبان على الدرج الصاعد إلى الهرم. لكن ظل مئات من الأزتيك

متجمعين على الطريق الصاعد الملتوى، ومئات آخرون عند القمة، وكان من الواضح أن الأسبان لو أحرزوا النصر، فستكون المهمة صعبة للغاية، عندما رأيت ما يحدث، داهمنى أمل قوى مثل ضربة مباغتة، بأن الآسبان لو إستولوا على المعبد فلن تكون هناك تضحية لأن مراسم التضحية لايمكن أن تتم إلا فى منتصف النهار، كما قالت لى أتومى، ولن يتم ذلك إلا خلال ساعتين تقريبا، فإذا انتصر الأسبان خلال ساعتين - فسوف تكون هناك فرصة للحياة، وإذا لم يكن، فلابد أن أموت.

أثناء كل ذلك كنت أقف بالقرب من صخرة التضحية، وأتومى إلى جانبى، وحولى دائرة من الكهنة، وفوق الصخرة قطعة قماش سوداء مربعة على أربعة قوائم مثبتة فى الأفريز، فى وسط قطعة القماش السوداء تلك زخرف على شكل غليون مذهب، مقاسه ست بوصات أو نحو ذلك، ومثقوب من عند فمه، وعند ما تتعامد الشمس على هذه الفتحة تسقط منها أشعتها على الظل الموجود فوق صخرة التضحية.

عندئذ وبإشارة من كبير الكهنة، قام معاونوه، بتمزيق ما بقى على من ثياب فاخرة مثلما يقوم الصبيان الأشقياء بنتف ريش طائر حى، حتى وقفت عاريا فيما عدا اللون الذى دهنت به، وقطعة قماش حول وسطى، فى تلك اللحظة، تأكدت أن ساعتى قد

حانت، ومن الغريب أن أقول، أنه لأول مرة فى هذا اليوم داهمتنى شجاعة كبيرة، وإبتهجت لمجرد التفكير فيما يجب على أن أفعله بأعدائى. التفت إلى أتومى لأودعها بصوت جلى واضح، ولدهشتى الشديدة، أنهم بها مثلما فعلوا بى، فمزقوا ثيابها الثمينة، ووقفت قبالتى مجردة تماما إلا من جمالها، وشعرها المنسدل على كتفيها، وعباءة من القطن المغزول.

قالت لى بصوت خفيض، ترد على سؤال رفض لسانى أن ينطق به «لا تندهش، يا تويل، فأنا زوجتك، وفراش حبنا مازال قائما هناك. والأول والأخير. ورغم أنك لم تحبنى، إلا أننى اليوم أموت بموتك وإلى جانبك، وهذا ما يجب على أن أفعله، فأنا لم أستطع انقاذك، يا تويل، لكن على الأقل، باستطاعتى أن أموت معك.

لم أستطع أن أرد عليها فى لحظتها، لأن دهشتى اخرستنى، وقبل أن أعثر على لسانى لأنطق، طرحنى الكهنة أرضا، ورقدت للمرة الثانية على صخرة التضحية. عندما أمسكوا بى انطلقت صرخة مرعبة طويلة لم يحدث مثلها من قبل، تعلن أن الأسبان على آخر درجة فى المدرج الصاعد للهرم. ما كاد جسدى يستقر فى وسط الصخرة الكبيرة، حتى أرقدوا أتومى إلى جوارى، بالقرب منى جدًا حتى تلامس جانبانا، لأننى يجب أن أكون فى وسط الصخرة لذا كان هناك متسع كبير لها، ولما لم تكن لحظة التضحية

قد دنت، قام الكهنة بتثبيتنا بواسطة حبال ربطت فى حلقات نحاسية مثبتة على الأرض، ثم إستداروا لمراقبة القتال.

ظللنا راقدين جنبا إلى جنب لعدة دقائق، وأثناء ذلك نما فى قلبى شعور بالإعجاب العظيم والامتنان، الإعجاب بشجاعة هذه المرأة إلى هذا الحد، والامتنان لما أسبغته على من حب، أنهته بدماء حياتها. ولأن أتومى أحبتنى اختارت هذه الميتة الفظيعة، أحبتنى باخلاص شديد لدرجة أنها رغبت فى أن تموت على هذا النحو إلى جانبى، بدلا من أن تحيا فى عظمة وأبهة بدونى!

فجأة، وأثناء ماكنت غارقا فى أفكارى، أشع نور جديد على قلبى، ثم تحول نحوها. أحسست بأنه لا توجد امرأة أعز إلى قلبى ولا أعظم من تلك المرأة على الأطلاق. شعرت.. كلا، لا يستطع أحد أن يعبر عما شعرت به حيالها؟. وعندما تيقنت من ذلك، انفجرت الدموع من عينى، وانسدلت على جانبى وجهى، أدرت رأسى لأتطلع إليها. كانت راقدة على جنبها الأيسر، بالقدرالذى تسمح به يداها، وشعرها الطويل منسدل من فوق الصخرة الرهيبة، ووجهها تجاهى. كانت لصيقة بى جدًا، ولم تكن هناك بوصة بين شفاهنا.

همست:«أتومى، اصغ إلى. أنا أحبك. يا أتومى». لحظتها رأيت صدرها يعلو تحت الأربطة، وجرت دماء الحياة فيها.

أجابت: «إذن، فقد كوفئتُ أحسن مكافأة!».

الفصل الرابع عشر

إنتصار الحب

قلت لها: «أتومى. متى سيقتلوننا»؟

أجابت: «عندما تسقط دائرة الضوء على الدائرة المرسومة على قلبك أدرت رأسى عنها، وتطلعت إلى أشعة الشمس التى تنشر فوق المظلة التى فوقنا مثل قلم ذهبى. كانت أشعة الشمس تبعد عن جنبى بنحو ست بوصات، وتوقعت أن تضع فوق الدائرة الحمراء المرسومة على صدرى خلال خمسة عشر دقيقة: فى تلك الأثناء كان صوت المعركة يغدو أعلى وأقرب، حركت نفسى بالقدر الذى تسمح به الأربطة، ورفعت رأسى إلى أعلى، فرأيت أن الأسبان قد وصلوا إلى قمة الهرم، ولم أرى قتالا أشرس من ذلك، فقد كان الأزتيك يقاتلون بجنون ويأس، ولا يفكرون كثيرًا فى حياتهم كان همهم فقط إبادة الأسبان، ولأن معظم أسلحتهم البدائية لم تكن

تستطيع أختراق دروع الأسبان، لم يكن امامهم إلا أن يلقوا بالرجال البيض من فوق قمة الهرم، ليتكسروا مثل البيض، فوق الطوار الاسفل، وعلى بعد مائتى ياردة إلى أسفل.

إقترب القتال من صخرة التضحية، فتحلق حولنا كل من ظل على قيد الحياة من الأزتيك، وكان عددهم مئاتين وخمسين، بالإضافة إلى الكهنة فى شكل دائرة كانت بقعة أشعة الشمس تزحف ولمست بداية الجزء المدهون على صدرى، فإلتهب مثل الحديدالساخن. عندما لمستنى أشعة الشمس أمسك بى خمسة كهنة من أطرافى ورأسى، وأمسك أحدهم سكينة الحجرى بكلتا يديه. داهمنى ألم قاتل، فأغلقت عينى وتخيلت أن كل شىء قد إنتهى، لكننى سمعت صوت ذلك الرجل الشرس العينين يقول لجلاد الموت.

«اليس بعد، ياكاهن تيزكات! لو ضربت ضربتك قبل أن تتعامد أشعة الشمس على قلبه، فويل لآلهتكم، وويل لشعب أناهوك».

طحن الكاهن أسنانه من الغضب، وتطلع بقوة إلى أشعة الشمس التى تزحف على، ثم تطلع من فوق كتفه إلى المعركة الدائرة. رويدًا رويدًا أخذت دائرة المدافعين تنغلق علينا، وببطء شديد أخذت أشعة الشمس الذهبية، تضرب من الدائرة المرسومة

فوق قلبى، فرفع الكائن سكينه الرهيبة ثانية، فأغمضت عينى، ومرة أخرى سمعت دوى صرخة عالية. «ليس بعد، ليس بعد وإلا سوف تموت الهتكم»!

بعد ذلك سمعت صوتًا آخر. كان صوت أتومى تصرخ طالبة النجدة.

«أنقذونا، أيها الأسبان، إنهم يقتلوننا»! سمعها الأسبان. وجاء الرد بالأسبانية: «هيا، أيها الزملاء! الكلاب يقومون بالقتل على المذبح»!

حدث اندفاع فظيع من قبل الأسبان، وتداعى دفاع الأزتيك عن المذبح، ورفعوا كاهن التضحية من قدميه وقذفوا به تجاه جسدى. تواصل هذا الهجوم ثلاث مرات كموج البحر، وفى كل مرة كان دفاع الأزتيك يضعف. وأخيرًا تحطمت حلقة حصارهم على ولمعت سيوف الأسبان فى كل مكان فى الوقت الذى أصبحت فيه الأشعة الذهبية فوق قلبى، فصاح صوت:

«إضرب ضربتك الآن، يا كاهن تيزكات، إضرب، إضرب، من أجل رفعة الآلهة»!.

بصرخة وحشية رفع الكاهن سكينه، فرأيت إنعكاس أشعة الشمس التى تعامدت فوق قلبى على نصلها، وبينما هى تهوى على

رأيت نفس الأشعة منعكسة على نصل معدنى يمر أمامى ويستقر فى صدر الكاهن القاتل فسقطت السكين الحجرية البشعة:، لكنها انحرفت عن هدفها، ولم تسقط على صدرى، ولم أكن لأستطيع الهرب منها. هوت السكين مباشرة فوق المذبح، وتحطمت إلى قطع صغيرة تناثرت بين جانبينا، فأصابت جسدينا فإختلطت دماؤنا على الصخرة فوحدت بيننا، كما سقط الكاهن أيضا بيننا للمرة الثانية، لكنه لم ينهض ثانية، وأخذ يتلوى ليموت بين من كان سيقتلهما.

بعد ذلك، سمعت بكاء الرجال حزنًا على آلهة أنا هوك، وكأنه حلم، كانوا يولولون ويقولون: «مات الكاهن وسقطت آلهته. لقد رفض تيزكات القربان وسقط، لقد سقطت آلهة أنا هوك! والنصر للمسيحيين»!.

فى تلك اللحظة إمتدت ذراع قوية وسحبت الكاهن الميت بعيدًا عنا، ودحرجته إلى الخلف من فوق المذبح، حيث النار المشتعلة دائما، ليكون بلحمه ودمه وقودا للأجيال القادمة؛ وإمتدت سكين لتقطع الحبال التى تربطنا.

جلست أتطلع حولى بذهول، وجاء صوت بالأسبانية، لم يكن موجها لى بالطبع وإنما لزملائى وقال «هذان المسكينان كانا على

وشك الموت. لو أن تدخلى تأخر ثانية واحدة، لكان ذلك المتوحش أحدث فجوة فى صدره. بحجم رأسى لكن البنت جميلة، بحق الله! ولو إغتسلت تكون أجمل. سوف أطلبها من كورتس مكافأة لى على ما قمت به».

هذا الصوت أنا أعرفه. ليس هناك شخص آخر على الإطلاق يملك رنة الصوت القوية هذه. لقد عرفته على التو، فتطلعت إلى أعلى وأنا أنزلق من فوق صخرة الموت، فرأيته أمامى، إنه عدوى دى جارسيا يرتدى زيا عسكريا كان سيفه وبتوجيه من العناية الإلهية، هو الذى أصاب صدر الكاهن. لقد أنقذنى، ولو كان يعلم، فقد كان من الممكن أن يوجه سيفه ناحية قلبى.

تطلعت إليه، وأنا أتساءل عما إذا كنت أحلم، ثم نطقت شفتاى: «دى جارسيا»!

تراجع إلى الخلف عندما سمع صوتى، كما لو أنه أصيب بطلقة رصاص، ثم نظر إلى بصعوبة، وهو يفرك عينيه بيديه، وتطلع إلى ثانية، وأخيرا تعرف على رغم الأصباغ التى كانت على جسدى.

فغر فاه وقال: « يا أم المسيح! أنت المخادع توماس وينجفيلد، وأنا الذى أنقذت حياتك»!

كانت حواسى قد بدأت تعاودنى فى ذلك الوقت، فأدركت مدى حماقتى، واستندت لأهرب، لكن دى جارسيا، لم يهتم بذلك، ورفع سيفه وقفز نحوى بصيحه وحشية كلها غضب وكراهية. وبسرعة كما أذكر لففت حول صخرة التضحية، لكنه طاردنى رافعا سيف أعدائى. كاد السيف أن يلمسنى، لأننى كنت واهنا بسبب الخوف والجوع، كما أن أطرافى كانت متيبسه بسبب القيود الحديدية، فى تلك اللحظة تقدم أسبانى آخر خمنت من زيه ومظهره أنه لابد أن يكون كورتس، وضرب سيف دى جارسيا وأطاح به بعيدا، وصاح فيه:

«كيف يمكن أن تفعل ذلك الآن، يا سارسيدا، هل أنت مجنون بالتعطش للدماء؟ من الأجدى أن تقتل رجالا وثنين مثل الكهنة؟ دع ذلك البائس المسكين يمضى»!.

صاح دى جارسيا، وهو: يجاهد ثانية للوصول إلى «إنه إنجليزى يعمل لحساب انجلترا».

فقال كورتس وهو ينظر إلى «لابد أن صديقنا قد جن، يقول إن هذا المخلوق البائس إنجليزى هيا، ابتعدا عن بعضكما، وإلا فسوف يرتكب شخص آخر، نفس الخطأ، ثم أشار بسيفه إشارة تعنى أن ينصرف كلانا، وكان يظن أننى لم أفهم كلماته ثم أضاف غاضبا،

عندما لم يتوقف دى جارسيا عن سبابى ومحاولة الاشتباك معى ثانية:

فقال كورتس: «كلا، بحق السماء! لن أسمح بذلك. نحن مسيحيون وجئنا هنا لخلاص الناس، وليس لقتلهم، هيا، أيها الرفاق، خذوا هذا الأحمق، قبل أن يلوث روحه بالقتل.

أمسك الأسبان دى جارسيا من ذراعيه وهو يلعنهم ويتوعدهم بغضب شديد مثل حيوان كاسر، أكثر منه إنسانا، وقفت متحيرًا، لا أدرى إلى أين أهرب. ومن حسن حظى حقا، أن من كانت إلى جانبنى و رغم أنها كانت لاتفهم الأسبانية، كان لديها سرعة بديهة.

وبينما كنت واقفا هكذا، أمسكت أتومى بيدى وهمست لى «إهرب، بسرعة»! وقادتنى بعيدا عن صخرة التضحية.

أخيرا قلت: «إلى أين سنذهب، أليس من الأفضل أن نثق فى الأسبان؟

فأجابتنى ثق فى ذلك الرجل الشرير وسيفه؟ إهدأ، يا تويل، واتبعنى؟.

قادتنى وتركنا الأسبان نمضى دون إيذاء، فى الحقيقة،بل كانوا أثناء سيرنا يدعماننا بكلمات متعاطفة لأنهم كانوا يعرفون أننا أنقذنا من التضحية بنا.

مضينا فى سيرنا، وعندما وصلنا إلى حافة الهرم، نظرنا خلفنا، فرأينادى جارسيا قد تخلص من الذين كانوا يمسكونه، وأخذ يتكلم يشرح لهم حقيقة الموقف. ثم قفز نحونا من فوق صخرة التضحية ولمسافة خمسين ياردة تقريبا شاهرا سيفه. فبعث فينا الخوف القوة وإنطلقنا نجرى كالريح. كنا نتخبط من جانب ونحن نتقفز فى الممر المنحدر فوق جثث مئات الموتى والذين يموتون، ونتوقف من حين إلى آخر لنتفادى السقوط فى الهواء، بسبب جثث الكهنة التى كان الأسبان يلقونها من فوق قمة الهرم، وحانت منى إلتفاته إلى أعلى فرأيت دى جارسيا يجرى بعيدا بأعلى، لكن بعد ذلك لم نره ثانية فمما لاشك فيه انه تعب من المطاردة، أو كان يخشى أن يقع بين أيدى المقاتلين الأزتيك، الذين كانوا لايزالون متجمهرين عند قاعدة الهرم

تعرضنا فى ذلك اليوم لمخاطر عديدة، الأميرة أتومى وأنا، وأخطر ما تعرضنا له كان قبل أن نعثر على مأوى، فبعد أن وصلنا إلى قاعدة الهرم، وإستدرنا لنختلط بالجماهير المذعورة التى تغلى غضبا وتتوافد على ساحة المعبد، سمعت جلبة مثل قصف الرعد. تطلعت إلى أعلى، لأن الصوت كان آتيا من فوق، فرأيت كتلة ضخمة تتقفز على جانب الهرم المنحدر توقعت ما حدث، كان تمثال الإله تيزكات الذى إنتزعه الأسبان من مكانه المقدس، وقذفوا به

من فوق الهرم، فاندفع نحونا مثل شيطان غاضب. كان فوقنا مباشرة، ولم يكن هناك مفر من موت محقق، وبعد أن نجونا من التضحية بنا لروح الإله، ها نحن نكاد نسحق تحت ثقل تمثاله الحجرى، أثناء سقوطه من أعلى صاح الأسبان صيحة فرح. شعرت أن الجبل الصلد يرتج، وفى لحظة امتلأ الهواء بقطع كبيرة من الحجارة تناثرت فوقنا وحولنا، لقد تفتت الإله تيزكات وتطايرت قطعه مثل السهام، ورغم ذلك لم نصب بسوء. فقط لامست قطعة من رأسه رأسى، وسقطت قطعة من قدمه بجوار قدمى لكن لم أصب بأى شىء لأن الإله المزيف لم يكن يملك القدرة للسيطرة على الأضحية الذى هرب منه!

بعد ذلك لم أتذكر شيئا، حتى وجدتنى مرة أخرى فى حجرتى بقصر مونتزيوما، التى لم أكن أتوقع أن أراها أبدًا، كانت أتومى بجانبى، وأحضرت ماءً لأغسل جسدى من الألوان التى تغطيه والدماء بسبب جرحى الذى ضمدته هى بكل مهارة، لأنه كان غائرا من جراء سكين الكاهن ونزفت بسببه كثيرا. ارتدت أتومى ثوبا أبيض ناصعا وأحضرت لى ملابس نظيفه لأرتديها، وكذلك طعاما وشرابا. رجوتها أن تأكل، وعندما انتهت جمعت شتات فكرى وقلت لها:

«وماذا بعد؟ سوف يحضر الكهنة ثانية، ويجرونا إلى صخرة التضحية لم يعد لى أمل هنا، لابد أن أهرب وأحتمى بالأسبان.

«تحتمى بذلك الرجل صاحب السيف، قل لى، يا تويل، من هو؟

«إنه ذلك الأسبانى الذى حكيت لك عنه، يا أتومى، أنه عدوى الذى تعقبته عبر البحار.

«وتريد الآن أن تضع نفسك تحت رحمته، حقيقة، أنت أحمق يا تويل».

قلت لها: «قد يكون من الأفضل أن أكون بين يدى رجال مسيحيين على أن أكون بين أيدى كهنتك».

قالت: «لا تخف، لاضرر من الكهنة بالنسبة لك. لقد نجوت منهم وهذه هى النهاية. قليل جدا هم الذين نجوا من أيديهم من قبل، ومن يحدث لهم ذلك، يصحبون أكثر من بشر فى الحقيقة. وأنا أعتقد أن الهك أقوى من آلهتنا، لأنه شملنا برعايته عندما كنا مستلقيين فوق صخرة التضحية. آه! يا تويل، إلى أى مدى جعلتنى أحيا، حتى أشك فى آلهتى واستنجد بأعداء وطنى لمساعدتك عند الحاجة. أنا لم أكن لأفعل ذلك من أجل خاطرى، طالما أننى سأموت وكلمات حبك تطرب أذنى، لكننى الآن يجب أن أعيش وأنا أعرف أن تلك السعادة والمرح قد إنتهت.

قلت لها: كيف ذلك؟ إن ما قلته كنت أعنيه أتومى. لقد كنت ستموتين معى، وأنت أنقذت حياتى بتفكيرك السريع، بطلب المساعدة من الأسبان. وإعتبارا من اليوم، الأمر متروك لك، لأنه ليس هناك امرأة أخرى فى العالم، لها رقتك وشجاعتك، وأنا أقولها ثانية، با أتومى، يا زوجتى بأننى أحبك، لقد إمتزجت دماؤك بدمائى فوق صخرة التضحية، فليكن ذلك عقد زواجنا، ربما لن يكون أمامى الكثير من الوقت لأعيشه، لكن حتى أموت ساكون لك يا أتومى يا زوجتى»!

رغم أنى كنت أتكلم من صميم قلبى الا أن قوتى وشجاعتى كانتا منهارتين. وسيطر على خوفى ووحدتى، لكن كان هناك شيئان قد بقيالى فى هذا العالم، ثقتى بالعناية الإلهية، وحبى لهذه المرأة، التى تحملت الكثير من أجلى

الفصل الخامس عشر

توماس يتزوج

إستدارت أتومى وخرجت وراقبت الستائر المذهبة وهى تسدل بعد خروجها، إستلقيت على أحد الحشايا وسرعان ما غرقت فى نوم عميق، لأننى كنت متعبا جدا، ولا أكاد أرى من شدة تهالكى، خاصة بعد أن إسترجعت كل ما حدث، لابد أننى نمت ساعات طويلة لأننى عندما إستيقظت كان الوقت متأخرا كان الوقت ليلا لكنه لم يكن مظلما، فسمعت من خلال قضبان النوافذ أصوات قتال، ورأيت وهجا أحمر، نتيجة اشتعال المنازل، أحد هذه النوافذ كان فوق حشيتى، فوقفت فوق الفراش، وأمسكت بقضبانها، ورفعت نفسى إلى أعلى، وأنا أتحامل على نفسى بسبب آلام جرحى، وتطلعت من خلال القضبان. فإكتشفت أن الأسبان لم يكتفوا بالسيطرة على منطقة الهرم، بل قاموا بهجوم ليلى، وأشعلوا النار فى المئات من بيوت المدينة. على ضوء النيران إستطعت رؤية

الرجال البيض وهم يتراجعون إلى مناطق إقامتهم يتبعهم آلاف الأزتيك. الذين كانوا يضغطون عليهم ويرمونهم بالحجارة.

نزلت من فوق النافذة وبدأت أفكر فيما ينبغى على فعله، لأن فكرى داهمه الشك ثانية، هل أهجر أتومى وألجأ إلى الأسبان، إذا كان ذلك ممكنا، وتتاح لى الفرصة للموت على يد دى جارسيا؟، أم أبقى هنا مع الأزتيك، إذا كان لديهم الاستعداد لحمايتى، وأتزوج أتومى؟

بينما كنت جالسًا على الحشية أفكر، فتحت الستارة ودخل رجل يحمل شعلة. كان جواتيموك، عائدا من القتال، الذى توقفت فيما عدا حرق المنازل، كانت خوذته منزوعة الريش، ودرعه الذهبى متهتك بسيوف الأسبان، كما كان ينزف بسبب طلقة أصابت عنقه.

قال: «مرحبًا، يا تويل، لم أكن بالتأكيد، آمل بأن أراك حيا الليلة، أو أكون أنا حيا كذلك على الإطلاق، لكنه عالم غريب، فرغم أن ذلك لم يحدث من قبل أبدًا فى المكسيك، إلا أنه حدث ونراه بالفعل لكن ليس لدى وقت للحديث. لقد حضرت لأدعوك إلى الاجتماع».

سألته: «حتى الاقى مصيرى ثانية؟ وأجر ثانية إلى صخرة التضحية؟

«كلا لا تخشى ذلك، ولن أكمل الباقى. خلال ساعة من الممكن أن تموت، أو تصبح رجلاً عظيما بيننا . لو كان أحد منا يستطيع أن يدعى أنه عظيم فى هذه الأيام المخجلة لقد قامت أتومى بجهد كبير من أجلك بين الأمراء والمستشارين على حد قولها، ولو أنك تحبها حقا، فلابد أن تشكر لها هذا الجميل، فقليل من النساء فى إعتقادى من يحببن رجلاً بمثل هذا القدر، أنا الان مشغول بالقتال ثم نظر إلى درعه المتهتك، وقال «وسوف أترك صوتى لك فى المجلس، والآن هيا، يا صديقى لأن الشعلة تكاد تخبو، فى هذه الفترة يجب أن تتعود على المخاطر وتألفها، فمهما كثر أوقل ما يقع من أحداث جسام، فلا ينبغى أن تؤثر فيك إلا بالقدر القليل».

نهضت وتبعته إلى القاعة الكبرى، التى تم فيها ذات صباح ترسيمى إلها أما الآن، فأنا لم أعد إلها، إنما سجين يحاكم من أجل حياته فوق المنصة التى وقفت عليها ساعة تنصيبى إلها، كان يحتشد الأمراء المستشارون الذين ظلوا على قيد الحياة. كان بعضهم مثل جواتيموك، يرتدى ملابس حربية ودروعا ملوثة بالدماء والبعض الآخر يرتدى ملابس عادية، وشخص واحد يرتدى عباءة الكهنة. كان الجميع يشتركون فى ملمحين: الجدية البادية على وجوهم، وعلو مكانتهم.. وقد اجتمعوا هذه الليلة، ليس لتقرير

نهايتى، التى تعد شيئا بسيطا، وإنما لأخذ رأى المجلس فى كيفية طرد الأسبان، قبل أن تدمر المدينة.

عندما دخلت، كان يجلس فى الوسط، رجل يرتدى درعا من السلاسل، عرفته كان كويتلاهو، الذى سيصبح امبراطورا فى حالة وفاة مونتيزوما، فتطلع إلى وقال: «من هذا الشخص الذى أحضرته معك، يا جواتيموك؟ آه! لقد تذكرت؛ إنه الإسبانى الذى حلت فيه روح الإله تيزكات، ونجا من التضحية اليوم، أصغوا إلى أيها النبلاء. ما الذى يمكن أن نفعله مع هذا الرجل؟ هل من الشرعى، أن نعيده ثانية إلى منصة التضحية؟

أجاب الكاهن: «ليس شرعيا أيها السادة النبلاء. لقد شجى هذا الرجل على مذبح الإله، وجرح بالسكين المقدس، لكن الإله رفضه فى تلك الساعة ولا يجوز أن يسجى ثانية على المذبح. إقتلوه إذا أردتم، لكن ليس على صخرة التضحية.

فتساءل الأمير ثانية. «إذن ما الذى يمكن أن تفعله معه؟ إن دماءه أسبانية، لذا يعد من أعدائنا. الشىء الوحيد المضمون، بألا يسمح له بمخالطة هؤلاء الشياطين البيض، حتى لا يمدهم بمعلومات عن معاناتنا، وهذا ليس بافضل من قتله على الفور؟

هز بعض النبلاء رؤوسهم، فى حين ظل الآخرون صامتين ولم تبدر منهم أى إشارة.

فقال كويتلاهو: «هيه، أيها السادة، ليس لدينا وقت نضيعه بشأن هذا الرجل، فى الوقت الذى تتعرض فيه حياة الآلاف للخطر السؤال هو، هل يقتل الأسبانى؟!

بعد ذلك، قام جواتيموك وتكلم، قائلا: «عضوا، يا عمى النبيل، إعتقد أنه من الممكن الإستفادة منه! إستفادة جيدة، بدلا من أن نقتله. أنا أعرفه حق المعرفة؛ فهو شجاع ومخلص، وقد تحققت من ذلك بنفسى، إضافة إلى أنه ليس أسبانيا على الإطلاق، فتصفمه من سلالة أخرى تكره الأسبان، كما يكرههم هو، كذلك هو على دراية بعاداتهم وأساليب قتالهم، التى تجهلها، وأرى أنه من الممكن أن يكون قادرا على إبداء آراء صائبة فى ورطتنا».

قال كويتلاهو بهدوء: «نصيحة الذئب للحمل، التى ربما تؤدى بنا أيها السادة إلى الوقوع فى براثن الأسبان. لكن من ذا الذى سيضمن ذلك الأجنبى الشرير؛ بالأ يبيعنا، إذا منحناه ثقتنا؟»

أجاب جواتيموك «أنا أضمنه بحياتى».

«حياتك غالية الثمن، حتى تضحى بها هكذا، يا ابن أخى. فهؤلاء الناس من الجنس الأبيض، كذابون، وكلمتهم غير موثوق بها، أعتقد أنه من الأفضل أن تقتله وننهى شكوكنا».

فقال جواتيموك ثانية: «هذا الرجل زوج لأتومى، أميرة مقاطعة أتومى، ابنه مونتزيوما، وأبنة أخيك، وهى تحبه، حتى أنها ضحت بنفسها لتموت معه فوق صخرة المذبح، وهى سوف تضمنه أيضا، إن لم أكن مخطئا. هل يمكن إستدعاؤها أمامكم»؟

«إذا رغبت يا ابن أخى، لكن المرأة عندما تقع فى الحب تصبح عمياء، وبلاشك فقد خدعها هى كذلك، هذا بالإضافة إلى أنها كانت زوجته طبقا للقواعد الدينية فقط. وعلى كل، هل ترغبون فى إستدعائها أمامكم أيها الزملاء؟

قال بعضهم لا، لكن الغالبية التى كسبتهم أتومى لصفها، قالوا نعم، وأنتهى الأمر بإرسال واحد منهم لإحضارها.

حضرت الأميرة وكان يبدو عليها الإرهاق الشديد، لكنها كانت تملك زمام نفسها باعتزار وترتدى ملابس ملكية وإنحنت أمام المجلس.

قال كويتلاهو: «السؤال، أيتها الأميرة، هل يقتل هذا التويل على الفور، أم يقسم بأن يكون واحدا منا. لقد دافع الأمير جواتيموك عنه، وقال أكثر بكثير، مما سوف تقولينه عنه. والمرأة تستطيع أن تفعل ذلك بطريقة واحدة، بأن تتكلم عنه باعتباره

زوجا، وأنت قد تزوجته بالفعل طبقا للقواعد الدينية. فهل ترغبين فى زواجه طبقا لعادات بلادنا، وتضمنى العيش معه طيلة حياتك»؟

أجابت أتومى بهدوء «سأتزوجه، إذا كان هو يرغب فى ذلك».

قال كويتلاهو: «حقيقة، هذا شرف كبير تقدمينه لذلك الكلب الأبيض تذكرى أنك أميرة مقاطعة أتومى، وإحدى بنات العائلة الملكية اللاتى يعتد بهن، ونحن نتطلع إليك لإعادة قبائل جبال مقاطعة أتومى بصفتك أميرة لها، وقطع صداقتهم غير الشرعية مع التلاسكالان الملاعين، عبيد الأسبان، أليست حياتك غالية جدا، حتى تضحى بها من أجل هذا الأجنبى؟ وللعلم، يا تومى لوأنه أثبت عكس ذلك، فلن يفيدك دمك الملكى فى شىء».

أجابت بهدوء «أعرف كل ذلك، وسواء كان أجنبيا أم لا، فأنا أحب هذا الرجل، وسوف أضمنه بدمى. بالإضافة إلى أننى أتطلع إلى مساعدته لإستعادة أهل أتومى ثانية. لكن أرجوك، يا سيدى أنت تدعه يتكلم بنفسه فربما لا تكون لديه الرغبة فى إتخاذى زوجة له».

إبتسم كويتلاهو بلطف وقال: «عندما يكون الأختيار بين الموت، وبين ذراعيك الجميلتين، يا إبنة أخى، فمن السهل معرفة الجواب، وعلى كل، تكلم، يا تويل، وبسرعة».

أجبت وقد تلاشت عنى فى هذه اللحظة كل مخاوفى وشكوكى الصعاب التى مرت بى، قلت «ليس لدى الكثير لأقوله، يا سيدى. لو أن الأميرة أتومى ترغب فى الزواج منى، فأنا أرغب فى زواجها وكما توقع كويتلاهو، فقد كان من السهل معرفة إختياره، بين الموت والأميرة.

عندما سمعت الأميرة ذلك، نظرت إلى نظرة قاسية وقالت بصوت خفيض: «تذكر كلماتك، يا توبل، فى أمور مثل الزواج، يجب أن تنسى ماضيك، وتهبنى مستقبلك».

فقلت لها: أذكر كل شىء.

تطلع إلى كويتلاهو، وكأنه يفتش فى أعماق قلبى، وقال «لقد سمعت كلماتك، يا توبل. أنت مجرد رجل أبيض متشرد، وستتخذ هذه الأميرة زوجة لك، وسوف تصبح من خلالها ذا مرتبة عالية بين قوم هذا البلد، لكن، كيف يتسنى لنا أن نثق بك؟ ولو أنك خدعتنا، فإن زوجتك ستموت فعلا، لكن ربما لا يشكل لك ذلك أى أهمية».

أجبت: «أنا على إستعداد لأن أقسم يمين الطاعة. أنا أكره الأسبان، ويوجد بينهم ألد أعدائى، الذى أبحرت عبر البحار لكى أقتله الرجل الذى حاول أن يقتلنى هذا اليوم بالذات، ليس لدى ما

أقوله أكثر من ذلك إذا كنت تشك فى كلامى فمن الأفضل أن تنهى حياتى لقد لاقيت كثيرا من المعاناة حقيقة، على يد شعبكم، ولا يعنينى فى قليل أو كثير أن أموت أو أعيش».

لقد تحدثت بجسارة يا تويل. والآن، أيها السادة، أسألكم الحكم، هل نقدم هذا الرجل زوجا لأتومى، ويقسم بأن يكون واحدا منا، أم يقتل على الفور؟ أنتم تعرفون الموضوع كله. إذا كان يوثق به، كما يعتقد جواتيموك وأتومى، فسوف يساوى جيشا بالنسبة لنا، لأنه يعرف لغتهم وعاداتهم وأسلحتهم وأساليب قتال هؤلاء الشياطين البيض، الذين تركتهم الآلهة ينقضون علينا، أما إذا لم يؤكد ثقته فينا، فقد يسبب لنا أضرار جسيمة، لأنه فى النهاية سيهرب إلى الأسبان، يخبرهم بأسرارنا وإمكانياتنا واحتياجاتنا، الأمر متروك لكم أيها السادة».

شرع أعضاء المجلس فى التداول مع بعضهم، مجموعة تقترح شيئا. والأخرى تقترح شيئا آخر، لأنهم جميعا، لم يكونوا على مستوى الموقف، أخيرا وبعد أن أنهكهم النقاش، طلب منهم كويتلاهو طرح الأمر للتصويت برفع الأيدى، فى البداية رفع أولئك الذين يحبذون موتى أيديهم، ثم أولئك الذين يرون أنه من الحكمة الإبقاء على حياتى. كان عدد الموجودين بالمجلس ستة وعشرين،

بدون كويتلاهو. صوت ثلاثة عشر لموتى، وثلاثة عشر لبقائى على قيد الحياة.

قال كويتلاهو بعد ان تم عد الأصوات : «الآن، يبدو أنه لابد أن أدلى بصوتى، لأحسم الأمر. عندما نطق بذلك تجمد الدم فى عروقى لأننى أحسست أنه لا يقف فى صفى، حدث أن إندفعت أتومى، قائلة».

عفوا يا عمى، لكن قبل أن تتكلم لدى كلمة أود أن أقولها، أنت فى حاجة إلى خدماتى أليس كذلك؟ لو أنك أدنت هذا الرجل وحكمت عليه بالموت، فيجب عليك أن تبحث عن شخص آخر ليعيد مقاطعة أتومى لتأييد أنا هوك».

أنغمس كويتلاهو فى تفكير عميق، وأخذ يتطلع فى الظلام الذى يخيم بأعلى، وهو يجذب لحيته، وساد صمت طويلا، إذا لا يعرف أحد ماذا سيكون قراره. وأخيرًا تكلم».

«نحن فى الواقع، بحاجة إلى أتومى، إبنة أخى، ولن تعود علينا فائدة من الوقوف ضد حب إمرأة، تويل، لقد وهبناك حياتك ونهبك مع الحياة، الشرف والجاه، وأعظم نسائنا لتتزوجها وكذلك مكانا فى مجلسنا، خذ هذه الهدايا وخذها هى أيضا، لكنى أقول لكليكما كونا يقظن فى استخدام هذه المزايا. لو أنكما بعتمانا، فأنا

أقسم بأنكما سوف تموتان ميتة في البطء والفظاعة. تحيل قلبك إلى ماء لمجرد سماع اسمها، أنت وزوجتك وأطفالك وخدمك، هيا، دعوه يقسم»!

عندما سمعت ذلك، دارت رأسى وأظلمت الدنيا أمام عينى، هاأنذا أنجو من موت محقق، مرة ثانية. رفعت بصرى، فالتقت عيناى بالمرأة التى أنقذتنى، أتومى زوجتى، فابتسمت ابتسامة حزينة، بعد ذلك تقدم الكاهن ناحيتى وهو يحمل وعاء خشبيا مزخرفا بعلامات عربية، وسكينا حجرية، وطلب منى أن أكشف عن ذراعى جرح ذراعى بالسكين فانبثق الدم إلى الوعاء. وأفرغ شيئا من هذا الدم على الأرض، وهو يبتهل إلى الآلهة أثناء ذلك ثم التفت إلى كويتلاهو، يستأذنه، فأجاب كويتلاهو بضحكة مريرة وقال: «دع دمه يمتزج بدم الأميرة أتومى، إبنة أخى، لأنها أقسمت من أجله».

فقال جواتيموك: «كلا، أيها الأمير، فقدا إمتزجت دماؤها بالفعل فوق صخرة التضحية، وهما زوج وزوجة، لكننى أقسمت من أجله أيضا، وأنا أقدم دمى برهانا لثقتى فيه.

قال كويتلاهو: «تويل هذا ،لديه صديق مخلص. أنت تقدره أكثر من اللازم. لكن لا بأس».

ثم تقدم جواتيموك إلى الأمام، وعندما هم الكاهن ليجرحه بالسكين، ضحك وقال، مشيرًا إلى الجرح الذى فى عنقه:

لا داعى لذلك أيها الكاهن الدم ينزف هنا من جراء إصابة الأسبان لى ليس هناك من هو أنسب منى لهذا الغرض».

فك الكاهن الرباط من حول عنقه، وترك دم جواتيموك يتساقط فى وعاء آخر أصغر، ثم إتجه نحوى وغمس إصبعه فى الدم وقام برسم علامة فوق جبينى، ثم قال: «باسم آلهتنا وفى حضرته، المتواجد فى كل مكان ويرى كل شىء، أوسمك بهذا الدم لتكون من ذلك الدم. باسم إلهنا وفى حضرته، المتواجد فى كل مكان ويرى كل شىء، أمزج هذا الدم بذلك الدم. (ثم صب الدم من وعاء إلى وعاء). وبهذه الدماء ألمس لسانك (وغمس إصبعه فى الوعاء ثم لمس به طرف لسانى) أرجو أن تقسم على ما يلى:

«فلتصبنى كل الشرور التى تصيب جسد الإنسان، ولتكن حياتى كلها بؤس، ولأمت فى عذاب رهيب، ولتسحق روحى فى أبراج الشمس، فلا تجول هائمًا مشردًا فى ظلام الكون خلف الكواكب والنجوم لو أننى أحنثت بقسمى.. أقسم، أنا، تويل، أن أكون مخلصًا، لشعب أناهوك، ولحكامه الشرعيين، أقسم أن أشن الحرب على أعدائهم حتى نلقيهم فى البحر أقسم بأن أكون

مخلصا لزوجتى أتومى، أميرة مقاطعة أتومى، إبنه مونتزيوما سيدى، طوال حياتها أقسم بالأ أحاول الهرب، من هذه الشواطىء، أقسم بأن أنسى أبى وأمى والبلد الذى ولدت فيه، وأرتبط بهذا البلد الجديد، وسيظل قسمى ثابتا، حتى يكف جبل بوبو عن نفث دخانه ولهيبه، وحتى لا يبقى هناك ملك للمكسيك، وحتى لا يوجد كهنة لخدمة مذابح الآلهة، وحتى لا يعود هناك شعب فى أناهوك».

«هل تقسم على كل ما جاء فى القسم»؟

«أقسم على كل ما جاء فى القسم».

كان لابد أن أقسم رغم وجود بنود لم تعجبنى كثيرا.

عندما أقسمت تقدم جواتيموك نحوى وأحاطنى بذراعيه، وقال: «مرحبا، يا توبل، شقيقى بالدم والقلب. أنت الآن واحد منا، ونحن نأمل منك المساعدة والرأى. تعال، أجلس بجانبى».

نظرت إلى كويتلاهو بريبة لكنه ابتسم بسخاء وقال: «لقد انتهت محاكمتك، يا توبل. الآن بصفتك زوجا لأتومى، فقد أصبحت نبيلا من ضمن النبلاء، لك كل التبجيل والمكانة الرفيعة، فلتجلس جوار شقيقك جواتيموك وشارك فى مجلسنا».

أشار عليهم توماس بفتح بوابات المياه، فتفيض المياه وتغرق الطرق حول المدينة، فيجد الأسبان صعوبة فى مغادرة المدينة، ثم يمنع عنهم الغذاء، حتى يموتوا جوعًا».

الفصل السادس عشر

الليلة الرهيبة

قبل أن أستيقظ بفترة طويلة، كانت الجسور المقامة على الطرق الكبيرة قد تحطمت بسبب اندفاع مياه البحيرة. بعد ظهر ذلك اليوم إرتديت زى الهنود، وتوجهت مع جواتيموك وقواد آخرين للكلام مع كورتس، الذى أتخذ مقرا له، فى نفس البرج الموجود فى القصر الذى وقف فيه مونتزيوما عندما أصابه سهم جواتيموك.

قال جواتيموك إلى كورتس: «الكثير منا يموتون، لذا يتحتم أن تموتوا أنتم أيها الأسبان، تموتوا من الجوع والعطش، تموتوا فوق مذابح الآلهة. لا مهرب لكم، فلقد تحطمت الجسور».

إلتقطت الجماهير هذه الكلمات، وأرعدت بها: «لا مهرب لكم، أيها الأسبان، فقد تحطمت الجسور»!.

ثم بدأ إطلاق السهام، فتوجهت إلى القصر لأخبر زوجتى أتومى بما سمعته عن حالة أبيها، الذى يقول الأسبان إنه مازال راقدا يعانى سكرات الموت.

بعد ذلك بيومين ذاعت أنباء تفيد موت مونتزيوما، وأن الأسبان سلموا جثته إلى الأزتيك ليقوموا بدفنه، فألبسوه أردية ملكية فاخرة ووضعوه وسط القاعة الكبرى للقصر، ثم هرعوا به سرا أثناء الليل إلى شابولتيك، وهنا دفنوه فى إحتفال بسيط، خشية أن تفتك به الجماهير الغاضبة.

فى صباح ذلك اليوم كان قد نشب قتال مع الأسبان الذين هبوا لإصلاح الطريق، بعد اليوم الأول من القتال عينت قائدا لمجموعة تتكون من ثلاثة آلاف من رماة السهام لكن الذى أسعدنى كثيرا، أننى حصلت على درع من الجنازير كان لقائد أسبانى، هذا الدرع الذى إرتديته دائما لعدة سنوات، وأنقذ حياتى أكثر من مرة، لأن الرصاص لم يكن يخترقه.

بعد تسلمى قيادة رماة السهام بثمانية وأربعين ساعة فقط، بدأت الإضطرابات أثناء الليل، تلك الليلة التى مازالت تعرف لدى الأسبان بالليلة المرعبة. خرجت أنا وجواتيموك وبعض الجنود لتفقد مواقع الحراسة التى أقمناها على الطريق الرئيسى كان

الظلام دامسا والمطر يتساقط، لدرجة أن الإنسان كان لا يرى أمامه أكثر من ياردة أوياردتين، التقينا بالحراس الذين أفادوا أن كل شيء هادىء، وأثناء عودتنا إلى الميدان الكبير، سمعت فجأة صوت أقدام لآلاف الجنود.

قلت: «أصغ!»

فهمس جواتيموك، قائلا« أنهم الأسبان، يحاولون الهروب».

جرينا بسرعة عبر شارع متفرع من الميدان الكبير يؤدى إلى الطريق الرئيسى وهناك رغم شدة الظلام والمطر لمحنا بريق الأسلحة. فصحت صيحة عالية، «إلى السلاح! إلى السلاح! الإسبان يهربون عبر الطريق الرئيسى المؤدى إلى تلاكوبان».

التقط الجنود صيحتى على الفور وسرعان ما إنتقلت من مكان إلى مكان فى كل أرجاء المدينة الغاضبة تعالت الصيحات فى كل شارع وكل قناة وترددت من فوق أسطح المنازل ومن فوق قمم مئات المعابد ولقد استيقظت المدينة. ومن البحيرة جاءت أصوات المجاديف بالآلاف. هنا، وهناك، بدت المشاعل وكأنها نجوم متهاوية، وعزفت الأبواق ألحانا حماسية، وطغى على ذلك هدير الطبول ذات جلود الافاعى، التى كان الكهنة يدقونها بعنف فوق الهرم.

وبالتدرج تحولت الصيحات إلى زئير، وإندفع الرجال المسلحون من كل مكان تجاه الطريق الرئيسى المؤدى إلى تلاكوبان. كان الأسبان وعددهم حوالى ألف وخمسمائه، بالإضافة إلى ستة أو ثمانية آلاف من التلاسكان، يتقدمون على الطريق الرئيس فى صف طويل، اندفعت أنا وجواتيموك سبقناهم، ونحن نجمع الرجال اثناء تقدمنا، حتى وصلنا إلى القناة الأولى، حيث كانت القوارب متجمعة بالعشرات وما إن وصلت طليعة الطابور الأسبانى، حتى بدأ القتال، خلال الظلام حيث لم يستطع القادة رؤية رجالهم، فعمت الفوضى والإضطراب، ولم يستطع الرجال أيضا أن يسمعوا أوامر قادتهم.

كان عدد الرجال لا يحصى، وتملكتهم رغبة واحدة، وهى قتل الأسبان، زأرت المدافع وأرسلت وابلا من القنابل علينا، وتمكنا على ضوئها من رؤية الأسبان وهم يحملون جسرًا من الخشب، كانوا يضعونه على القناة. إنقضضنا عليهم، وكل رجل يقاتل بمعرفته. ووجدت نفسى أنا وجواتيموك مكتسحين فوق ذلك الجسر، فى أول إندفاع للأعداء، مثلما تكتسح العاصفة أوراق الأشجار، ورغم أننا لم نصب بأذى إلا أننا لم نرى بعضا فى تلك الليلة إندفع معنا وخلفنا عدد كبير من الأسبان والتلاسكان، وكان الأزتيك ينقضون عليهم من كل جانب، مثل النمل عندما ينقض على دودة جريحة.

لا أستطيع أن أعرف كيف أنقضت تلك الليلة؟ لا أستطيع لأننى لم أر إلا القليل فقط. كل ما أعرفه أننى واصلت القتال لمدة ساعتين مثل المجنون عبر الأسبان القناة الأولى، وعندما انتهوا إنهار الجسر وغاص فى الطين واصبح من غير الممكن تحريكه على حين كان على مبعدة منهم القناة الثانية التى كانت أكثر عمقًا وإتساعًا، لم يستطع الأعداء عبورها إلا بعد عمل جسر من جثث الموتى. تساقط الكثير منهم على جانبى الطريق وذبحوا فى مياه البحيرة، أو أخذوا فى القوارب للتضحية بهم، كما غرق العديد منهم فى القنوات، وغاص المزيد فى الطين حتى ماتوا، قتل المئات من الأزتيك أيضا، أغلبهم كان على يد أصدقائهم، الذين يضربون دون أن يعرفوا على من ستقع ضرباتهم.

أما بالنسبة لى فقد قاتلت مع المجموعة القليلة التى تجمعت حولى، حتى طلع النهار. كانت هناك مجموعات غير منتظمة من الأسبان والتلاسكان لاتزال تعبر القناة الثانية، فقمت بالهجوم عليهم مع ما تبقى معى من الرجال، اندفعت مباشرة إلى وسط المجموعة، وفجأة رأيت أمامى وجه دى جارسيا. فإندفعت نحوه بصرخة وحشية سمع صوتى فعرفنى. ضربنى على رأسى وهو يسبنى، فنزل سيفه الثقيل فوق خوذتى المصنوعة من الخشب، فشطر جانبا منها، وأسقطنى على الأرض، لكننى قبل أن أسقط

ضربته فى صدره بهراوة كنت أحملها، وأجبرته على الوقوع على الأرض، زحفت نحوه وأنا نصف ميت ونصف أعمى، وسط هذا الزخم فألقيت نفسى فوقه مطبقًا على رقبته، وتدحرجنا معا على جرف الطريق حتى وصلنا إلى منطقة ضحلة على حافة البحيرة. كنت أنا فوقه، وفى فرحة شرسة مسحت الدماء من فوق عينى لأرى كيف أقتل عدوى أخيرا، كان جسده فى البحيرة ورأسه على الشاطىء المنحدر، كانت خطتى أن أجره إلى الماء وأغرقه فيه، لأننى فقدت هراوتى.

صرخت بالأسبانية «أخيرا وقعت بين يدى يادى جارسيا إنطلق صوت مخنوق يقول «بحق الله دعنى يا أحمق، فأنا لست كلبا هنديا تطلعت إلى وجه الرجل عن قرب. لقد قبضت على دى جارسيا، لكن الصوت ليس صوته، والوجه ليس وجهه، بل كان وجه جندى إسبانى.

سألته وأنا أرخى قبضتى عليه: «من أنت؟ أين دى جارسيا الذى تنادونه سارسيدا!»؟

«سارسيدا؟ لا أعرف. منذ لحظة كان ملقى على ظهره بالطريق،

وصحت بالإسبانية: أخيرًا .. دى جارسيا!

لقد أوقعنى أحد الزملاء، ثم تدحرج خلفى. دعنى، أرجوك، فأنا لست سارسيدا، وحتى لو كنت، فهل هذا وقت تصفية حسابات خاصة؟ أنا زميلك برنال دياز، قل لى بحق مريم العذراء! من أنت؟ من الأزتيك. وتتحدث الأسبانية؟!

أجبته «أنا لست من الأزتيك، أنا إنجليزى وأقاتل مع الأزتيك، حتى أستطيع أن أقتل المدعو سارسيدا. بالنسبة لك ليس بينى وبينك أى شىء، باربرنال دياز، إذهب وأهرب إن إستطعت. لكن، سوف أخذ سيفك».

قال الرجل وهو يسحب نفسه من الطين»! سواء كنت أنجليزيا، أسبانيا، ازتيكيا، أم شيطانا، فأنت رجل طيب، وأعدك، بأننى إذا نجوت من هذه المعركة، ولم يحدث لى مثل ما حدث على يديك، فلسوف أفديك برقبتى، وأذكر صنيعك الطيب هذا. وداعًا»!.

ودون أن ينطق بكلمة أخرى اندفع الرجل إلى شاطىء البحيرة واندس وسط مجموعة من زملائه الفارين، تاركا سيفه الممتاز فى يدى، حاولت أن أتتبعه ، على أمل العثور على عدوى، الذى هرب منى بخدعة، لكن قواى خارت، لأن سيف دى جارسيا كان قد اصابنى فى رأسى ونزفت كثيرا. فجلست فى مكانى حيث أنا، حتى

يأتى قارب ويحملنى إلى أتومى لتضمد جرحى، مرت عشرة أيام حتى أستطعت السير ثانية.

كان ذلك هو القدر الذى شاركت به فى نصر هذه الليلة المرعبة. لكن للأسف كان نصرا غير كامل، صحيح أنه قتل أكثر من خمسة آلاف أسبانى، وآلاف من أتباعهم. وبدلا من ملاحقة الأسبان حتى لا يبقى واحد منهم حيا، قام، الأزتيك، بسرقه الموتى وأخذ من هو حى للتضحية به.

أما بالنسبة لدى جارسيا، فلم أستطع معرفة ما حدث له، وما إذا كان حيًا أو ميتا!

الفصل السابع عشر

دفن كنوز مونتزيوما

توج كويتلاهو امبراطورًا للأزتيك فى قصر أخيه مونتزيوما، كان الأزتيك على و شك الجنون من الصرخة لخروج الأسبان أخيرًا. فنسوا أو تناسوا فقدان الآلاف من مقاتليهم الشجعان وزهرة شباب نبلائهم، وكالعادة وبأى حال من الأحوال لم يتدبروا أمر مستقبلهم. فمن بيت لبيت ومن شارع إلى شارع،كانت تجرى مجموعات من الشباب والفتيات متوجين بالزهور ويهللون «الأسبان رحلوا، شاركونا فرحتنا، الأسبان رحلوا»! مع عدم مراعاة شعور الآخرين من الحزانى، أو أولئك الذين خربت بيوتهم بسبب موت ذويهم كما أن تماثيل الآلهة قد أقيمت مرة أخرى عند قاعدة الهرم وأعيد بناء المعابد.

عندما سمعت بكل ذلك، تغلب غضبى على تعقلى، فتحدثت باندفاع وقوة قائلا: «لقد أرتبطت بقسم لقضيتكم، يا جواتيموك يا أخى، وتزوجت من دمائكم، لكننى أقول لك أنه منذ تلك الساعة إن قضيتكم ملعونة، لان دماءكم ملوثة بالوثنية والكهنة، إنها ملعونة!».

«أنت تتكلم باندفاع يا أخى» أجاب جواتيموك بنوع من التعالى الزائد، ولاحظت أن وجهه شحب لما فى كلماتى من عنف، ثم واصل كلامه: «أقول إنك تتكلم باندفاع ولو سمعك أحد، فسوف يجبروك على الرقاد، ثانية على مذبح الآلهة التى تتحدث عنها بسوء دعنا لا نتكلم فى هذا الموضوع أكثر من ذلك، وفأرجوك، يا أخى، ألا تتفوه بمثل هذه الكلمات ثانية، لأنها من الممكن أن تفسد حبنا .. إذن فإنت ترى أن الأسبان سوف يعودون».

«نعم، يا جواتيموك، مثلما أنا متأكد من طلوع شمس الغد، عندما قبضت على كورتس ثم أطلقت سراحه، ومن ثم حقق نصرًا على أتومبان. هل تعتقد أنه من ذلك الصنف من الرجال، الذين يتخلون عن السيف الذى أشهروه ذات مرة، ويتلاش فى الظلام بعيدا عن ساحة الشرف؛ قبل أن يمضى عام سيعود الأسبان ثانية أمام بوابات المكسيك».

قال جواتيموك:«أنت متعب الليلة، يا أخى، رغم أنى أخش أن تكون كلماتك صحيحة. على أى حال، لو تحتم علينا القتال، فدعنا نقاتل لننتصر. الآن على الأقل، لا يوجد مونتزيوما حتى نضع الحية على صدرة، وترعاها حتى تلد غه.«بعد ذلك نهض وأنصرف فى هدوء، لكننى أحسست أن قلبه مفعم بالأسى.

ذات يوم بعد هذا الحديث، جاءنى ثانية ليقول لى، بأن لديه اوامر من الأميراطور كويتلاهو، بالذهاب معه فى مهمة سرية جدا، وهذه المهمة تظهر إلى أى مدى الثقة التى يكنها له قادة البلاد، لأنه ليس هناك مهمة أعظم سرية من مهمة إخفاء الكنوز التى إستردت ثانية من الأسبان ليلة القتال المرعبة إياها، كما أن هناك ما هو أخطر من إخفاء كنوز الإمبراطور.

عندما حل الظلام بدأنا مهمتنا، أنا وجواتيموك وبعض النبلاء، ولما وصلنا إلى شاطىء البحيرة، وجدنا عشرة قوارب كبيرة فى إنتظارنا، مليئة بأجولة قطنية بداخلها أشياء.. دلفنا إلى هذه القوارب سرا، ونحن نعتقد بأن أحدا لا يرانا، كل ثلاثة فى قارب، فكان عدد الجميع ثلاثين فردا، تحت قيادة جواتيموك، وظللنا نجدف لمدة ساعتين أو أكثر داخل البحيرة، حتى وصلنا إلى شاطىء بعيد، حيث توجد منطقة يمتلكها، هذا الأمير، رسونا، وأخرجت الأجوله من داخل القوارب، وكانت تحوى جرارا كبيرة

وجدفنا لمدة ساعتين عبر البحيرة.

وأكياسا بداخلها ذهبا ومجوهرات، بالاضافة إلى أشياء أخرى ثمينة، من بينها رأس تمثال لمونتزيوما مصنوعة من الذهب الخالص، ثقيلة جدا، حملتها أنا وجواتيموك.

حملنا كل ذلك على عدة مراحل، إلى قمة يصل إرتفاعها ستمائة درجة من سطح البحيرة، بها فتحة ضيقة عندما أحضرنا كل شيء من أسفل، لمس جواتيموك كتفى، وسألنى إذا كنت أريد النزول معه خلال تلك الفتحة لأخفاء الكنوز.

أجبته: «بكل سرور» لأننى كنت شغوفا لرؤية المكان.

أمسك جواتيموك شعلة فى يده وأنزلوه إلى أسفل بواسطة حبل بعد ذلك جاء دورى، فأنزلت معلقا بحبل مثل عنكبوت على خيوطه كانت الفتحة عميقة جدا، أخيرا وجدتنى أقف إلى جوار جواتيموك عند مدخل سرداب. يمتد لمسافة عشرة أقدام وبإرتفاع كاف لسير أى شخص ويؤدى إلى حجرة خالية تماما، بالقرب من مدخل هذه الحجرة كانت توجد شواهد من الطوب والرخام.

سألت «من الذى حفر هذا المكان»؟

أجاب جواتيموك «أولئك الذين لم يعرفوا ماذا يحفرون».

بعد ذلك بدأ الذين فى أعلى ينزلون الجرار والأجولة المليئة بالكنوز وعندما كانت تصل إلينا واحدة واحدة، كان جواتيموك يهز

الحبل، بعد ذلك كنا نقوم بنقلها عبر السرداب إلى الحجرة مثلما يحدث عندنا فى إنجلترا عندما يقوم الرجال بدحرجة براميل الجعة الخشبية ظللنا نعمل لمدة ساعتين أو أكثر حتى وصل كل شئ إلى أسفل كاملا. آخر شئ تم انزاله كان جوالا من المجوهرات، فتح أثناء إنزاله فإنهمر علينا مطر من الأحجار الكريمة وحدث أن أستقرت على كتفى قلادة رائعة من الزمرد ذات حجم كبير.

فضحك جواتيموك، وقال: «إحتفظ بها، يا أخى، ذكرى لهذه الليلة». وبسعادة غامرة أخفيتها فى صدرى هذه القلادة ظلت معى، أحجار هذه القلادة تعد أصغر ما كان موجودا ولقد أهديت واحدة لملكتنا إليزابيث ولقد لبستها أتومى لعدة أعوام، ولهذا السبب سوف تدفن معى، غادرنا الحجرة ثم بدأنا نبنى حائطاً.

بعد أن انتهى كل شئ وقبل أن نضع آخر حجر، دفعت بالشعلة إلى الداخل، وتطلعت إلى الكنز للمرة الأخيرة حيث كانت الدرر تبرق فوق الجرار، ورأس مونتزيوما الذهبية تضوى وعيونه الزمردية كأنها تنظر إلى بقسوه.

سحبت الشعلة بسرعة، وأنهينا كل شئ بسرعة سرنا حتى نهاية السرداب وتطلعت إلى أعلى، وسعدت جدا لرؤية النجوم

تسطع فوقى وبإشارة ما تم سحبنا إلى أعلى ووصلنا إلى سطح الأرض بسلام.

بعد ذلك شرع الرجال فى ردم الفتحة بالتراب وبلا توقف طلع الفجر علينا قبل أن ننتهى من مهمتنا. عندما تم كل شىء أخرج واحد ممن كانوا معنا بزورًا ونثرها على الأرض وغرس شجرتين أحضرهما معه فوق القمة جمعنا الحبال والأدوات، وعدنا إلى المكسيك فى الصباح غادرنا القوارب فى المرسى خارج المدينة وسرنا إلى بيوتنا فرادى أو أثنان معا.

هذا ما قمت به فى دفن كنوز مونتزيوما، هذا الأمر الذى عانيت من أجله عذابا فى الأيام القادمة.

بعد ذلك إنتقل توماس او أتومى إلى مدينة بنيس مقر مقاطعتها وكسبت تأييد الناس للمشاركة فى الحرب ضد الأسبان

الفصل الثامن عشر

سقوط المكسيك

بعد إنقضاء أعياد الميلاد بفترة قصيرة، تحرك كورتس بجيش كبير من الأسبان، ومن انضموا إليه من أهل الساحل، وعشرات الآلاف من الموالين له، واتخذ من وادى المكسيك مقرًا لقيادة جيشه، بعد ذلك بدأت أشرس المعارك التى شهدها العالم. وكانت النهاية أن دمرت مدينة المكسيك وعدد من المدن الجميلة الآهلة بالسكان وقتل معظم الأتيك أثناء الحرب أو بسبب المجاعة، وانمحت دولتهم إلى الأبد، وليس فى نيتى أن أقص عليكم قصة هذه الحرب الطويلة، بل يكفى القول بأن خطة كورتس قامت على تدمير كل المدن المتالحفة مع الأزتيك وقتل أناسها قبل أن يواجه مدينة المكسيك، ملكة الوادى، وهذا ما هيأ نفسه للقيام به بكل مهارة وجسارة ووضوح رؤية، حتى ليندر ظهور قائد مثله منذ أيام قيصر.

كيف يتسنى لى أن أصور الرعب الذى رزحت المدينة تحت عبئه يوما بعد يوم؟ فسرعان ما نفدت الموادالغذائية، لدرجة أن الرجال والنساء والأطفال كانوا يأكلون ما تعافه الخنازير حفاظا على حياتهم حتى ولو لفترة قصيرة كانت الأعشاب ولحاء الأشجار واليرقان، بعد أن تغسل فى مياه البحيرة النصف مالحة، هى أفضل طعام بالنسبة لهم، إضافة إلى لحوم المضحى بهم، ثم بدأوا يموتون بالمئات، ثم بالآلاف. كانوا يموتون بسرعة ولا يجدون من يدفنهم ويظلون راقدين مكانهم حيث ماتوا، حتى نتج وباء الطاعون من أجسادهم، هذا الوباء الأسود الرهيب الذى أفنى آلافًا أخرى منهم، حتى أصبحت المدينة مصدرا للطاعون. ومقابل شخص واحد يقتله الأسبان أو أتباعهم، كان يموت شخصان من الجوع والطاعون. لك أن تتصور اذن، عدد الموتى: كان لا يقل عن سبعين ألفًا بالسيوف أو الرصاص ويقال أن أربعين ألفا قتلوا بهذا الأسلوب فى يوم واحد، اليوم الأخير لإنتهاء الحصار.

ذات ليلة عدت للمأوى الذى نعيش فيه أنا وأتومى، لأن جميع القصور أحرقت كنت أتضور جوعا، حيث لم أذق أى طعام منذ أربعين ساعة، كان كل ما أعدته لى زوجتى ثلاث قطع من الخبز مخلوطة بلحاء الشجر. ألحت على أن أكل فإكتشفت أنها لم تذق هى الأخرى أى طعام فى ذلك اليوم، فلم آكل إلا بعد أن شاركتى

الطعام لاحظت أنها تبتلع الطعام بصعوبة، كما أنها كانت تحاول إخفاء دموعها التى أنحدرت على وجهها.

سألتها: «ماذا حدث، يا زوجتى»؟.

فإنفجرت فى بكاء شديد مرير، وقالت: «لقد جف اللبن فى صدرى منذ يومين بسبب الجوع. فمات رضيعنا، إنظر، إنه يرقد ميتا! ورفعت قطعة قماش وأرتنى جسده النحيف.

قلت: «كفى، لقد إرتاح. فنحن لم نكن نتمنى أن يعيش طفلنا ليرى مثل هذه الأيام السوداء، التى رأيناها، وعلى أى حال، كلنا سنموت فى النهاية؟

فبكت ثانية، وقالت: «إنه إبننا، أول مولود لنا، آه! لماذا يتحتم علينا أن نعانى هكذا»؟

«لابد أن نعانى يا أتومى، لأننا خلقنا لكى نعانى، أن السعادة الحقيقية التى نبغيها، هى أن ننقذ من الجنون، لا أكثر».

بعد ذلك حفرت حفرة خارج المنزل، وتلوت عليه الصلوات ودفنت جسد طفلنا بعيدا عن الانظار.

بكينا بعد ذلك ونحن نحتضن بعضنا فى محاولة للنوم، وأخذت أتومى تتمتم من حين لآخر وتقول: «آه! يا زوجى كم أتمنى لوننام وننسى أنفسنا والطفل أيضا».

قلت لها: «إستريحى الآن، فالموت قريب منا».

فى اليوم التالى، إندلع قتال رهيب، أبشع من أى قتال حدث من قبل، وبعد مرور عدة أيام وسقوط مزيد من القتلى، ظللنا أحياء، لأن جواتيموك كان يمدنا بالغذاء.

بعد ذلك، بعث كورتس رسلا، يطلب منا الاستسلام، بعد أن تهدمت ثلاثة أرباع المدينة، ومات ثلاثة أرباع المدافعين عنها، كان القتلى مكومين داخل المنازل مثل النحل المدخن ليموت داخل الخلية، وملقون بكثافة فى الشوارع، حتى كنا نسير فوقهم.

أستدعى المجلس للإجتماع. رجال أشداء قهرهم الجوع والقتال، وأخذوا يتدارسون رسالة كورتس.

قال رئيس المجلس أخيرا: «ما رأيك يا جواتيموك»؟

فأجاب غاضبا: «هل أنا مونتزيوما حتى تسألنى؟ لقد أقسمت أن ادافع عن هذه المدينة حتى النهاية، وسأقوم بذلك، فمن الأفضل أن نموت جميعا، على أن نؤخذ أسرى فى أيدى الأسبان».

فردد الجميع: «وهذا رأينا، أيضا». وهكذا تقرر المضى فى الحرب أخيرا حل يوم قام الأسبان فيه بهجوم جديد، وإحتلوا جزءا آخر من المدينة. هناك تجمع الناس مثل قطيع غنم فى حظيرة. حاولنا أن ندافع عنهم، لكن أذرعنا وهنت من الجوع، أطلقوا علينا

النار، فأطاحوا بنا مثل حبوب القمح، وقيل إن أربعين ألفا قتلوا فى ذلك اليوم ولم يبق أحد. فى اليوم التالى (وكان آخر يوم فى الحصار) جاءت رسالة جديدة من كورتس يستدعى فيها جواتيموك لمقابلته. كان الرد مثل السابق، لأن روح الفارس النبيل لا تهزم.

قال جواتيموك للرسول: «قل له، إننى سأموت حيث أنا، ولن يكون لى معه حديث. نحن بلا حول أو قوة؛ فليمرح كورتس كما يحلو له على جثثنا».

فى ذلك الوقت كانت المدينة قد دمرت، وتجمعنا نحن الذين بقينا على قيد الحياة على الطريق الرئيسى خلف الأسوار المهدمة، رجال وأطفال ونساء.

هاجمونا ثانية. وقرعت الطبول فوق الهرم للمرة الأخيرة. وللمرة الأخيرة تعالت صيحات المقاتلين نحو السماء، قاتلنا بأقصى ما لدينا من قوة، وقتلت فى ذلك اليوم أربعة رجال بالسهام التى كانت أتومى تناولها لى وهى بجانبى. لكن أغلبنا لم تكن لديه قوة طفل، فما الذى كان يمكننا أن نفعله، فقد كانوا يقتلوننا بالمئات. دفعوا بنا ناحية القنوات المائية ووطأونا بالأقدام لنموت هناك، حتى تكونت جسور من أجسادنا، ولا أعرف كيف نجونا.

وأخيرا دفع جزء منا، وكان جواتيموك من ضمنه، إلى شاطىء البحيرة حيث كانت توجد بعض القوارب إنطلقنا بها ونحن لا نعرف ماذا نفعل، وإعتقدنا إننا من الممكن أن نهرب، لأن المدينة كلها سقطت فى أيديهم لكن السفن الأسبانية شاهدتنا فأبحرت خلفنا بريح مواتيه، وسرعان ما لحقت بنا واحده منها، وبدأت إطلاق النار علينا، فنهض جواتيموك وخاطبهم قائلا:

أنا جواتيموك. خذونى إلى كورتس لكن دعوا ما تبقى من أهلى حيا.

قلت لأتومى التى كانت بجانبى: «الآن، حانت ساعتى، لأن الأسبان سيشنقونى بالتأكيد، وأنا أفكر الآن، يا زوجتى، بأن أقتل نفسى، حتى أنقذ نفسى من الموت مجللاً بالخزى والعار».

فقالت بحزن: «كلا يا زوجى، وكما قلت سابقا، سيكون هناك أمل طالما أنك حى، لكن موتك لن يفيد كثيرا. لعل الحظ، يحالفنا أما، إذا فكرت فى غير ذلك، فأنا على إستعداد للموت أيضا».

وهذا ما لا أتمناه أبدا، يا أتومى».

«إذن لابد أن ترفع ذراعك يا زوجى، لأننى منذ الآن ودائما سأتبعك إلى حيث تذهب».

همست قائلا: «إصغ إلى، لاداعى لأن يعرف أحد أنك زوجتى؛ قدمى نفسك كواحدة من وصيفات الملكة، أو أختها مثلا لو حدث أن افترقنا، أو سنحت لى فرصة للهرب، فسأحاول الذهاب إلى مدينة بينيس هناك وسط رعيتك، ربما نجد مكانًا آمنا».

أجابت بإبتسامة حزينة: «ليكن الأمر كذلك، ياحبيبى. لكنى لا أعرف كيف سيستقبلنى أهل أتومى، بعد ان قتل منهم عشرون ألفًا من أشجع رجالهم فى القتال.

نقلنا على ظهر أحد السفن الأسبانيه، وبالتالى توقفنا عن الكلام، وبعد أن سخر الأسبان منا لفترة: نزلنا إلى الشاطئ، وقادونا إلى أحد المنازل التى كانت لاتزال باقية، حيث إستعد كورتس لاستقبال الملك الأسير. وقف القائد الأسبانى، وحراسه حوله، وقبعته فى يده، وإلى جواره كانت تقف مارينا، وقد غدت أكثر جمالا عن ذى قبل، والتى لم أقابلها منذ أن افترقنا فى توباسكو.

إلتفت أعيننا فتراجعت للوراء، رغم أنه قد يكون من الصعب عليها أن تتعرف على صديقها تويل، الملطخ بالدماء والمتهالك جوعًا والممزق الثياب، والذى لا يستطيع الوقوف. لم يدر بيننا أى حوار،

لأن الأنظار كلها كانت متجهة لمشاهدة اللقاء بين كورتس وجواتيموك، بين المنتصر والمهزوم.

وبكل فخر واعتزاز تقدم جواتيموك منتصب القامة، رغم أنه يبدو كالهيكل العظمى، حيث يقف الأسبان، وتكلم، ومارينا تترجم كلماته. فقال : «انا جواتيموك، الإمبراطور، ياكورتس. لقد فعلت ماينبغى على للدفاع عن شعبى، فانظر ثمرة مافعلت». ثم أشار إلى ركام المدينة المدمرة، على إمتداد مرمى البصر. ثم واصل كلامه : «والآن وان كنت قد وصلت إلى هذا الوضع، فلان الآلهة لم تكن فى صفى. تعامل معى كما يحلو لك، وسيكون من الأفضل أن تقتلنى الآن». ثم لمس خنجر كورتس بيده، وقال : «سوف يخلصنى هذا بسرعة من بؤس الحياة».

أجاب كورتس : «لا تخشى شيئًا، ياجواتيموك، لقد قاتلت بشجاعة وشرف. أنت آمن معى، لأننا نحن الأسبان، نقدر العدو الشجاع. أنظر، هاك طعام لكم. «وأشار إلى مائدة تنتشر عليها صنوف من الطعام لم نرها منذ عدة أسابيع. «كل أنت ورفاقك معا، لأنكم فى حاجة إلى ذلك. وبعد ذلك نتكلم».

أكلنا بنهم، واتجه جزء من تفكيرى، أنه قد يكون من الأفضل بالنسبة لى أن أموت ومعدتى ممتلئة، على أن أموت بمعدة خالية،

بينما كنا نأكل كان الأسبان يراقبوننا بدون تعاطف. فرأيت واحدًا منهم يهمس فى إذن كورتس، فلاحظت أن وجهه قد إربد لونه.

فقال لى بالأسبانية: «ألست انت ذلك الخائن، الذى ساعد الأزتيك ضدنا؟».

أجبت بكل جسارة، لأن الطعام والنبيذ بعثا فى حياة جديدة: «أنا لست خائنا، إيها الجنرال. أنا إنجليزى، ولقد حاربت مع الأزتيك لأن لدى سببًا لكراهيتكم أيها الأسبان».

فقال بغضب : «سوف يكون لديك سبب أفضل، أيها الخائن. خذوا هذا الرجل، وأشنقوه على صارى تلك السفينة هناك».

فى هذه اللحظة، تيقنت أن كل شئ انتهى، وأعددت نفسى لملاقاة الموت: عندما أفضت مارينا ببضع كلمات فى أذن كورتس. لم أستطع سماع كل ما قالته، لكنى سمعت بضع كلمات، منها «ذهب - مخبوء»! إستمع إليها، ثم صمت، بعدها تكلم بصوت عال: «لا تشنقوا هذا الرجل اليوم. ضعوه تحت حراسة مشددة. وغدا سوف أحقق القضية بنفسى.

الفصل التاسع عشر

إدانة توماس

فور انتهاء كورتس من كلامه، تقدم جنديان اسبانيان وأمكابى بقوة من ذراعى، وقادونى عبر سطح المنزل نحو السلم. لم تفهم أتومى، لكنها إستطاعت قراءة وجه كورتس، فعرفت أننى ذاهب إلى السجن أو إلى الموت. بينما كنت أمر من امامها، همت إلى الأمام وخوف شديد يشع من عينيها. كادت أن تلقى بنفسها على صدرى، لتكشف أنها زوجتى، وتلحق نفسها بمصيرى، نظرت إليها نظرة صارمة، ثم سقطت عند قدميها، ربما من أثر الخوف والذهول. ضحك الجنديان اللذان يمسكانى بسخرية: وركلنى أحدهما بحذائه الثقيل. إلا أن أتومى إنحنت ومدت يدها لمعاونتى على النهوض، وأثناء قيامى تحدثنا بسرعة وبصوت خفيض.

قلت لها : «وداعًا، يازوجتى، ومهما حدث إلزمى الصمت».

قالت : «وداعًا. إذا كان لابد ان نموت، فإنتظرنى عند بوابات الموت، لأننى سألحق بك هناك».

«كلا، بل عيشى. سوف يجلب لك الزمن الراحة».

«انت حياتى، ياحبيبى. بوجودك معى، ينتهى الزمن بالنسبة لى».

وقفت على قدمى ثانية، وإعتقدت أن لا أحد قد سمع همسنا، لأن الجميع كانوا منتبهين إلى كورتس الذى أخذ يلعن الجندى الذى ركلنى.

«لقد عهدت إليك بحراسة هذا الخائن، لا أن تركله. هل تريد أن تعرضنا لعار كبير أمام هؤلاء الأوغاد؟ لوفعلت ذلك ثانية. فسوف تعاقب على ذلك. فليكن ماقامت به هذه المرأة درسًا لك فى التعامل، فلقد تركت طعامها رغم جوعها لمساعدة سجينك على الوقوف. خذه الآن إلى المعسكر، وتأكد بألا يصيبه أى أذى، لأن لديه الكثير الذى يمكن أن يخبرنى به».

قادانى الجنديان وهما يغمغمان أثناء سيرهما، وكان آخر شئ رأيته هو وجه أتومى زوجتى، وهى تتابعنى بنظراتها، يكاد يغمى عليها من ألم الفراق، عندما وصلت إلى بداية السلم حيث، كان جواتيموك يقف هناك، أمسك يدى وشد عليها.

قال بإبتسامة ثقيلة: «وداعًا، ياأخى، لقد إنتهت الجولة التى لعبناها سويًا، والآن حان الوقت لنستريح. شكرا لشجاعتك وتعاونك!»

قلت له : «وداعًا، ياجواتيموك، صحيح انك هزمت، فليكن ذلك راحة لك، فلقد حققت بهزيمتك هذه صيتًا لن يموت».

صاح الجنديان : «هيا، هيا!» سرت وأنا أفكر كيف يمكن أن نتقابل أنا وجواتيموك ثانية.

أوصلانى إلى أحد القوارب، فأخذني التلاسكان عبر البحيرة، حتى وصلنا إلى المعسكر الأسبانى.

عندما وصلنا سرت عبر المعسكر وخلفى جمع من التلاسكان القساة وغيرهم، وكلهم رغبة فى تمزيقى إربًا إربًا، لولا خشيتهم من فعل ذلك. رأيت بعض الأسبان كذلك، وكلهم بهجة ومرح لسماعهم أنباء سقوط مدينة المكسيك، وبالتالى إنتهاء أعبائهم أخيرًا، لكنهم لم يهتموا بوجودى. وحقيقة لم أر جنونًا أبدًا مثل ذلك الجنون الذى تملك هؤلاء الحمقى، إذ تصوروا أنهم منذ الآن فصاعدًا سيأكلون فى أطباق من ذهب. فمن أجل الذهب تبعوا كورتس: ومن أجل الذهب واجهوا الموت فوق المذابح وقاتلوا فى مئات المعارك، ووالآن يعتقدون أنهم حققوا ذلك.

إحتجزونى داخل حجرة بأحد البيوت المبنية بالحجارة، كان بها نافذة ذات حواجز خشبية قوية، من خلال هذه الحواجز كنت استطيع رؤية الجنود وسماع أغانيهم. كانوا طوال النهار ومعظم أوقات الليل يمرحون ويغنون، يمرحون ويغنون، حتى تسيطر عليهم حماقتهم، فيشرعون فى الرقص بجنون جيئة وذهابًا وهم يقبضون على أشعة الشمس ويصرخون «ذهب! ذهب! ذهب!».

إستمر ذلك عدة أيام، كنت خلالها أجلس وأنام في سجنى لايزعجنى أى شئ، فيما عدا تلك المرأة الآزتيكية التى كانت تقوم على خدمتى وتحضر لى طعامًا بوفره. خلال هذه الأيام أكلت كما لم آكل من قبل، ونمت كثيرًا. وفى الحقيقة، فقد زاد وزنى في نهاية الأسبوع بمقدار النصف، واستعدت قواى وأصبحت قويًا ثانية. لكن عندما كنت آكل أو أنام، كنت أتطلع من خلال النافذه وكلى آمال واهية، بأن أرى شخص أتومى اوجواتيموك. فإذا كان من غير المتاح ان أرى أصدقائي، فعلى الأقل رأيت عدوى، لأنه حدث ذات مساء أن حضر دى جارسيا، وألقى نظرة على سجنى. لم يرنى، ولكنى رأيته بإبتسامته الشيطانية التى تتراقص على وجهه وهو يبتعد عن المكان مثل الذئب، وقد جعلنى ذلك أرتعد من الخوف خشية أن يدخل. لأنه وقف لمدة عشر دقائق يتطلع إلى نافذتى، وهو يتلمظ

مثل قط يراقب طائرًا فى قفص، وأحسست أنه كان في انتظار الباب أن يفتح» وكنت على يقين أنه لابد أن يفتح قريبا .

حدث ذلك فى اليوم السابق لليوم الذى قاموا فيه بتعذيبى.

فى ذلك اليوم، أيضا، كان هناك تجمع كبير فى الميدان المواجة لسجنى، ورأيت كورتس فوق حصان أبيض يرتدى ملابس فاخره. كان مكان التجمع بعيدًا فلم أستطع أن أسمع مادار من حوار، لكنى لاحظت أن العديد من الضباط كانوا يتحدثون مع كورتس بغضب، وكانت كلماتهم تلقى ترحابًا كبيرًا من قبل الجنود، أخيرًا قام القائد العظيم بالرد عليهم بالتفصيل، بعد ذلك ساد صمت تام، فى صباح اليوم التالى وبعد أن تناولت إفطارى، حضر أربعة جنود إلى سجنى وأمرونى بالذهاب معهم.

سألت : «إلى اين؟»

اجاب قائدهم : «إلى القائد، ياخائن».

قلت لنفسى : «يبدو أن النهاية قد دنت». ثم قلت له : «لابأس، فأى تغيير عن هذه الحضرة، تغيير إلى الأفضل».

فقال : «بالتأكيد، وهو آخر تحرك لك».

عرفت أن الرجل كان يعتقد أننى ذاهب إلى الموت. خلال خمس دقائق كنت واقفًا امـام كورتس فى منزله الخاص. كانت مـارنيا تقف إلى جواره، وحوله عديد من رفاق السلاح. تطلع إلى القائد العظيم لفترة، ثم تكلم:

«اسـمك وينجـفيلد، دمك مـختلط. نصـفـه انجليـزى ونصفـه أسـبانـي. قذفت بك مياه نهـر توباسكو، ثم أخـذت إلى المكسـيك. وهناك أجبـرت على القيام بدور الإله تيزكات، إله الأزتيك، وأنقذت على أيدينا عندما إستـولينا على الهـرم العظيم. بعد ذلك انضمت إلى الأزتيك، وشاركت بالقتال فى معركة الليلة الرهيبة. وأصبحت صديقا ومستشارًا لجواتيموك، وساعدته فى الدفاع عن مدينة المكسيك. هل هذا صحيح، أيها السجين؟

أجبت : «كل ذلك صحيح، ياجنرال».

«عظيم. أنت الآن أسيرنا، واذا كان لك ألف حياة، فقد سقط حقك فيها، بسبب خيانتك لجنسك ودمك. لقد قتلت العديد من الأسبان وانصارهم، وهذا يعتبر جريمة خيانة عظمى، وبالتالى فأنت مجرم قاتل.. وينجفيلد، لقد فقدت حياتك، وأنا أحكم عليك بالموت شنقا باعتبارك خائنا لجنسك ولربك».

أجبت بهدوء رغم الخوف الفظيع الذى جمد الدم فى عروقى: «إذن، فليس هناك المزيد لكى يقال».

فأجاب كورتس : «هناك شئ ما. رغم أن جرائمك كثيرة، إلا أننى على إستعدداد لأن أهبك حياتك وحريتك بشرط ما. وعلى إستعداد لفعل المزيد، بأن أجدلك وسيلة لإعادتك إلى أوربا فى أول فرصة، حيث يمكنك أن تبدد أصداء آثامك لو كان الرب كريمًا معك. الشرط هو. نحن على ثقة تامة بأنك تعرف مكان إخفاء كنوز مونتزيوما التى سرقت منا عنوة خلال معركة الليلة الرهيبة. لايتوقف الأمر على مجرد علمنا فقط، بل لقد شوهدت وانت تذهب فى القوارب المليئة بالكنوز. والآن عليك أن تختار إما أن تموت مينة خزى وعار، أو تخبرنا بسر هذه الكنوز».

أجبت بهدوء: «أنا لا أعرف شيئًا عن هذه الكنوز، ياجنرال. فلتبعث بى إلى الموت».

«هل يعنى هذا أنك لن تبوح بأى شئ عنها. فكر ثانية. لو أنك أقمت أية أيمانات، فان الرب يحلك منها. فإمبراطورية الأزتيك في نهايتها، وملكها أسيرى، وعاصمتها دمرت. لقد انتصر الرب على هؤلاء الشياطين بواسطتى. ثرواتهم ملكى، ولابد أن أحصل عليها لأكافئ رجالى الشجعان، الذين لن يصبحوا أثرياء من فراغ. فكر ثانية».

«أنا لا أعرف شيئا عن هذه الكنوز، ياجنرال».

«الذاكرة أحيانا تنشط، أيها الخائن. أقول لك إنك سوف تموت لو أن ذاكرتك خانتك، وسوف تتأكد من ذلك، الموت لايكون دائما بشكل سريع. هناك أساليب... ولاشك أنك عشت فى أسبانيا وسمعت عنها...» ثم رفع حاجبيه ونظر لى بتمعن، وأكمل : «تلك الأساليب التى تُميت الانسان لكنه يظل حيًا لعدة أسابيع. والآن، أنا آسف إذا كنت مضطرًا لفعل ذلك، اذ يبدو أن ذاكرتك مازالت خاملة، ولابد أن أجد بعض السبل لإنعاشها – قبل أن تموت».

أجبت : «انا بين يديك، ياجنرال، أنت تقول اننى خائن ومخادع. أنا لست خائنا. أنا أحد رعايا ملك انجلترا، وليس ملك أسبانيا. لقد جئت إلى هنا لمطاردة شخص شرير، إرتكب فى حقى وحق ذوى خطأً مريرًا، وهو أحد رفاقك ويدعى دى جارسيا أو سارسيدا. ولكى أعثر عليه ولأسباب أخرى إنضمت إلى الأزتيك، الذين هزموا وأصبحت أنا أسيرك. فتعامل معى، على الأقل كرجل شجاع يتعامل مع عدو مهزوم. أنا لا أعرف شيئًا عن الكنوز، أقتلنى وضع نهاية لهذا الأمر».

«كإنسان، كم أود أن أفعل ذلك، يا وينجفيلد، لكنك قمت بدور هام فى معاونة تلك الديانة الوثنية، فقد رأيت زملاءك المسيحيين يُضحى بهم ويؤكلون من قبل هؤلاء الأوغاد. ولهذا السبب فقط، فأنت تستحق العذاب إلى الأبد. أما بالنسبة لدون سارسيدا، فأنا

أعلم أنه رفيق سلاح شجاع، وأنا بالتأكيد لن أستمع إلى مايقال ضده من حكايات على لسان متشرد باع وطنه. حظك سيئ، مهما كانت الأحوال».

وهنا ومضى خاطر ظهر على وجه كورتس، فقال: «لابد أن تكون بينك وبينه عداوة قديمة، لذا ستكون تحت رعايته. والآن للمرة الأخيرة، أقول لك، عليك أن تختار، هل ستخبرنى بمكان الكنوز وتصبح حرًا، أم نسلمك لدون سارسيدا لتكون تحت رعايته، حتى يجد الوسائل التى تجعلك تتكلم؟».

فى تلك اللحظة اجتاحتنى إغماءة فظيعة، لأننى تأكدت أنه قد حكم على بالتعذيب، وأن دى جارسيا هو الجلاد. أى رحمة يمكن أن أتوقعها من قلبه القاسى، عند ما أكون أنا عدوه المميت، تحت سيطرته؟. ورغم ذلك فإن إرادتى وشرفى كانا لايزالان أقوى من مخاوفى، فقلت له :

«لقد قلت لك، ياجنرال، بأننى لا أعرف شيئًا عن هذا الكنز. أفعل بى اسوأ ماالديك، وربما يغفر الرب لك قسوتك».

«كيف تجرؤ على نطق هذا الاسم المقدس، فأنتم تنكرونه، لأنكم وثنيون، يا آكلى لحوم البشر. إستدعوا سارسيدا».

مضى الرسول لاستدعائه، وساد صمت لفترة، لمحت فى عينى مارينا شعور بالأسى والشفقة. لكى لم يكن فى إستطاعتها مساعدتى، لأن كورتس كان قد جن بسبب عدم العثور على الكنز، خاصة وأن صيحات الجنود المطالبين بمكافآتهم كانت تؤرقه. إلا أنها حاولت الكلام معه من أجلى، همسًا فى أذنه. أنصت لها كورتس لفترة، ثم دفعها بعيدًا عنه في خشونة.

قال : «الرحمة، يامارينا! لماذا أبقى على حياة هذا الكلب الإنجليزى، فى حين أن سلطاتى وربما حياتى متعلقة بالعثور على الذهب؟. كلا، هو يعرف جيدًا، أين يوجد الذهب، لقد قلت ذلك أنت نفسك، عندما كنت سأشنقه لخيانته، ثم ماذا يهمك من أمر هذا الرجل حتى تتحدثى بشأنه؟ كفى عن مضايقتى، يامارينا؛ فأنا مجهد بما فيه الكفاية!». ووضع كورتس كفيه على وجهه وغرق فى أفكاره. أما مارينا، فقد نظرت إلى بأسى، وتنهدت كما لو أنها تقول، «لقد بذلت أقصى مالدى»، فعبرت عن شكرى لها بعينى.

سمعت صوت أقدام، فرفعت بصرى لأجد دى جارسيا واقفًا أمامى. لم يؤثر الزمن ولا الحياة الصعبة إلا قليلاً على مظهره، وأضفت الشعيرات البيضاء فى شعره المسترسل ولحيته المدببة مظاهر النبل. عندما تطلعت إليه فى ملابسه الاسابنية الداكنة وعباءته الفخمة والسلسلة الذهبية، وهو ينحنى أمام كورتس، لم

أتصور أبدًا أننى رأيت جنديا اكثر روعة ولاشخصا مثله، يعطى مظهره كل هذا الخداع، نظرًا للقلب الأسود الذى بداخله. ولأننى أعرفه تمام المعرفة، فقد غلى دمى بالكراهية عند رؤيته، وعندما فكرت فى ضعفى، وفى المهمة التى جاء من أجلها، طحنت أسنانى، ولعنت اليوم الذى ولدت فيه.

إبتسم دى جارسيا ناحيتى ابتسامة صغيرة قاسية، ثم تحدث إلى كورتس.

«أوامر سعادتكم، سيدى الجنرال؟»

فأجاب كورتس: «تحياتى، أيها الزميل. تعرف هذا الشخص بالطبع؟

«أعرفه جيدًا. سيدى الجنرال. حاول قتلى ثلاث مرات».

«حسن، لكنك نجوت، وهاهى فرصتك الآن، ياسارسيدا.

هو يقول إن بينكما عداء؛ فما هو؟»

صمت دى جارسيا، وأخذ يمسح لحيته المدببة، ثم أجاب: «أنا آسف لإخبارك بالموضوع، لأنها حكاية غلطة ارتكبتها ومازلت آسف من أجلها. لكنى سأقصها عليك حتى لاتظن بى سوءًا، هذا الرجل لديه بعض المبررات لكراهيتى؛ فعندما كنت أصغر مما أنا عليه

الآن، وتنساق فى حماقات الشباب، حدث أن قابلت أمه فى إنجلترا. سأحكى باختصار: فوقعت فى حبى، ومنذ ذلك الحين وهذا الشخص يكرهنى».

كاد قلبى ينفجر من الغضب، فبالإضافة إلى سفالته، فقد قام دى جارسيا بتلفيق هذه الحكاية الخسيسة التى تدين أمى الشريفة الميتة.

صحت وأنا أشد الحبال التى تقيدنى: «انت تكذب، إيها القاتل».

فاجاب دى جارسيا ببرود : «لابد أن أطلب حمايتى من هذه الاهانات، ياسيدى الجنرال».

فقال كورتس بهدوء: «كيف تجرؤ على الحديث بهذا الشكل لهذا الرجل الأسبانى المهذب؟ انت أيها الكلب الوثنى، سوف يُشد لسانك بكلابات ساخنة. خذه باسارسيدا، وليكن تحت رعايتك الخاصة. فى البداية دعه يعانى مع الآخرين، وبعد ذلك، إذا لم يحرك فيه ذلك ساكنا، فليعذب وحده. أترك اسلوب التعامل معه لك، اذا تكلم، إستدعنى».

«لكن عـفـوا، سـيـد الجنـرال، فـهـذه المهـمـة لاتتناسـب مع رجل اسبانى مهذب». بعد أن قال دى جارسيا ذلك، رأيت نظرة الانتصار تشع من عينيه، وسمعت صدى سعادته فى صوته الغاضب.

«أعرف ذلك، أيها الـزميل» لكن لابد من تنفيـذ ذلك؛ رغم اننى أكره ذلك، لكن لابـد أن يتم، فليس هناك سـبـيل آخـر. لا ترحـمـه، تذكر أنه يجب أن يُرغم على أن يتكلم؟

«أوامـرك مطاعـة، ياكـورتس، وسـأقـوم بتـنفـيـذها، رغم أنهـا لاتروقنى كـثـيـرا، لـكن على أى حـال - هل من الممكن أن تعطينى الأمر كتابة؟

أجاب الجنرال: «سيتم ذلك فورًا. والآن، خذه واذهب».

«إلى أين؟

«إلى السـجن الذى غادره تواً. كل شئ معد، وسوف يجد رفاقه هناك».

أستدعى الحارس، وأعادونى ثانية إلى حيث كنت.

الفصل العشرون

دى جارسيا ينفذ مايدور فى ذهنه

فى البداية لم يأخذونى إلى الحجرة التى كنت فيها، بل وضعونى فى حجرة صغيره مواجهة لها، حيث كان الحارس نائما. ظللت فى هذه الحجرة لفترة مقيد اليدين والقدمين يحرسنى جنديان يحملان سيفين مشرعين. بينما كنت أنتظر، يمزقنى الغضب والخوف، وسمعت صوت دق مسامير في الحائط، تبعه صوت صراخ أليم. إنتهى الإنتظار بعد فتره، وفتح الباب، ودخل منه هنديان شرسان من التلاسكان وجذبانى من شعرى وأذنى، وجرونى حتى حجرتى.

أثناء ذلك سمعت أحد الجنود الأسبان، يقول: «بائس مسكين، خائن أوغير خائن، أنا حزين من أجله. إن مايحدث عمل اجرامى».

أغلق الباب، فوجدت نفسى فى غرفة للتعذيب. كانت الغرفة مظلمة بسبب الستر التى علقوها على جواجز النافذه، لكن كانت هناك نار مشتعلة فى وعاء. أمكننى على ضوئها أن أتعرف على تفاصيل المشهد. على أرضية الحجرة كان يوجد ثلاثة مقاعد صلبة، وأحد منها خال. أما الأثنان الآخران، فكان يجلس عليهما شخصان: جواتيموك امبراطور الأزتيك، وبجواره صديقه أمير تاكيويا. كانا مقيدين بالمقاعد، ووضع فحم متوهج تحت أقدامهما، وخلفهما كان يقف كاتب معه ورق ومحبرة، وحولهما بعض الهنود مشغولين ببعض الأعمال المخيفة. بالقرب من المقعد الثالث كان يقف أسبانى آخر، لايشارك فى هذه اللعبة، كان دى جارسيا. وبينما كنت أتطلع، رفع احد الهنود وعاء النار، وأمسك بقدم أمير تاكيويا العارية ودسها فى النار المتوهجة. ساد صمت للحظة، بعدها إنفجر تاكيوبان فى صراخ أليم. أدار جواتيموك رأسه ناحيته وتكلم. وبينما كان يتكلم رأيت قدمه تستقر فى وعاء النار. قال بصوت واضح «لماذا تتألم، ياصديقى، بينما أنا صامت؟ هل أنا أستمتع فى فراشى الآن؟ إفعل مثلى تمامًا ودائما، ياصديقى، ولتصمت خلال معاناتك».

دون الكاتب هذه الكلمات، لأننى سمعت صوت خريشة الريشة على الورق، وبينما كان يكتب، أدار جواتيموك رأسه ورآنى. كان

وجهه أسود من الألم، لكنه كان يتكلم مثلما كان يتكلم مئات المرات فى المجلس ببطء ووضوح. قال: «وأسفاه! هل أنت هنا أيضا، ياصديقى تويل؟ كنت أعتقد أنهم أخلوا سبيلك. أترى، كم يحافظ الأسبان على شرف كلمتهم. لقد أقسم كورتس ان يعاملنى بكل كرم، وها هو يشرفنى بكرمه، بالفحم المتوهج تحت قدمى. انهم يعقدون اننا دفنا الكنز، ياتويل، ويحاولون أجبارنا على الكلام لمعرفة مكانه. وأنت تعلم ان كل ذلك مجرد وهم. لوكان لدينا كنز، لكنا وهبناه طواعية، للمنتصرين علينا. نحن ابناء كويتزال؟ انت تعلم، أنه لم يبق شئ سوى حطام مدننا وعظام موتانا».

توقف عن الكلام فجأة لأن الوغد الذى يعذبه ضربه على مخه، قائلاً: «أسكت، يا كلب».

عندما أدركت الموقف، أقسمت داخلى أن أموت قبل أن أبوح بسر إخوتى. كان ذلك هو النصر الأخير الذى يمكن أن يحرزه جواتيموك، بأن يحفظ ذهبه من قبضة الأسبان الشرهين، هذا الإنتصار الذى دعمنى حتى لا أبوح بالسر. ما إن أقسمت، حتى وضع فمى تحت الإختبار، فبإشارة من دى جارسيا، أمسك بى التلاسكان وقيدونى فى المقعد الثالث.

ثم قال لى بالأسبانية فى أذنى: «كم هى مذهلة سبل العناية الإلهية، ياونجفيلد. لقد تتبعتنى عبر العالم، وتقابلنا عدة مرات،

ودائما ما كانت النتيجة محزنة لك. عندما إلتقينا فى الماء، لكنك نجوت بطريقة ما. ولما عرفت ذلك حزنت، أما الآن فلم يعد بى حزن، لأننى أرى أن الزمن قد إدخرك لتكون بين يدى هذه اللحظة. سيكون من المستحيل إن تهرب هذه المرة، ياونجفيلد، وسوف نقضى عدة أيام مع بعضنا قبل أن نفترق. ساكون مهذبًا معك، وأطلب منك إختيار طرق تعذيبك. بأى منها نبدأ؟.

لم أجب، لأننى إتخذت قرارًا بالأ أتكلم أو تصدر منى صرخة، مهما فعلوا معى.

واصل دى جارسيا كلامه وهو يمشط لحيته بنعومة: «دعنى أفكر، دعنى أفكر، آه! وجدتها. هيا، أيها العبيد».

لمدة ساعتين أو أكثر ظل هذا الشيطان بساعدة التلاسكان يمارس على عذاباته الشريرة. وعندما كان يغمى على، كانوا يلقون الماء البارد على ويصبون داخل حلقى شرابًا كحوليا، حتى أسترد وعيى. ورغم ذلك فقد قررت بكل كبرياء، خلال هاتين الساعتين. ألا أصدر أى صوت. مهما كانت معاناتى فظيعة، ولا أنطق بكلمة سواء خيرًا أم شرا.

لم تكن آلام جسدى فقط التى كان على أن أتحملها، بل كان أعدائى يمارسون على ضغطا بالسخرية منى بكلمات مريرة، كانت

تمزق روحى، تمامًا مثل الفحم المتوهج الذى كان يؤلم جسدى. أخيرًا أمرهم بالتوقف، ووصفنى بأننى خنزير انجليزى عديم الإحساس، فى تلك اللحظه دخل كورتس هذا المكان الدامى وكانت مارينا معه.

قال بإستخفاف، رغم أن وجهه شحب من ذلك المشهد المرعب: «كيف تسير الأمور؟».

أجاب الكاتب وهو يتطلع فى اوراقه : «لقد إعترف أمير تاكيوبا بأن الذهب مدفون فى حديقته، إما الإثنان الآخران فلم يقولا شيئا، ياسيدى الجنرال».

تمتم كورتس لنفسه وقال : «رجال شجعان حقيقة». ثم قال بصوت عال: «خذو أمير تاكيوبا غدًا إلى الحديقة التى ذكرها، فلعله يدلنا على مكان الذهب. اما بالنسبة إلى الآخرين، فدعوهما وحدهما هذا اليوم. فربما يغيران فكرهما قبل الغد. أنا واثق من ذلك!».

ثم توجه إلى ركن الغرفه وأخذ يتكلم مع سارسيدا والآخرين، تاركا مارينا وجهًا لوجه قبالنى أنا وجواتيموك. فأخذت تحملق فى الأمير بهلع.

ثم وقع بصرها على فبدأت تبكى.

وقالت : «وأسفاه! أيها المسكين. وأسفاه! ياصديقى».

قلت لها بلغه الأزتيك: «لاتبك من أجلى، ياماريناء لأن دموعك لن تجدى شيئا، لكن، ساعدينى اذا استطعت».

«آه، لو كان فى استطاعتى» ثم أخذت تبكى واندفعت خارجة من المكان، يتبعها كورتس.

عاد الأسبان ثانية لأخذ جواتيموك وأمير تاكيوبا، حملوهما من أذرعهما لأنهما لم يقويا على السير.

قال جواتيموك وهو يمر بى : «وداعًا، يا تويل، أنت ابن حقًا لكويتزال ورجل شهم، لعل الآلهة تكافئك مقابل ماعنيت من أجلى، طالما ليس فى استطاعتى».

ثم حملوه إلى الخارج، وكانت هذه آخر كلمات سمعتها منه.

وهكذا تركت وحدى مع التلاسكان ودى جارسيا، الذى أخذ يسخر منى كما حدث من قبل.

قال : «لاشك أنك متعب بعض الشئ، ياصديقى وينجفيلد، أليس كذلك؟ أنا أعرف أن اللعبة صعبة، حتى تتعود عليها. سيريحك نوم الليل وينعشك، وغدًا ستصبح رجلاً جديدًا. ربما تعتقد أننى فعلت أسوأ ما لدى، صحيح أنه شئ سيئ، لكن هذه هى

البداية. أظنك تعرف سيدة أزتيكية من العائلة المالكة، إسمها أتومى؟

صرخت قائلا : «أتومى، ماذا حدث لها؟» كانت هذه أول مرة أتكلم فيها، لأن خوفى عليها، أثارنى، أكثر من كل الآلام التى تحملتها.

«لم يحدث لها شئ ما يونجفيلد؛ فقط أود أن أقول لك، انها أتومى، يابنة مونتزيوما، وبالمناسبه فهى إمرأة جميلة جدا، وهى زوجتك طبقاً للتقاليد الهندية. أنا أعرف القصة كلها - وللعلم فهى تحت سيطرتى».

ولأول مرة ركعت وتوسلت إليه أن يرحمها رغم أنه عدوى.

صرخت : «لا تقتلها، أتوسل إليك، إفعل لى مايحولك، لكن لاتقتلها! أنت بالتأكيد لك قلب، لأنك إنسان. ولايمكن أن تفعل ذلك أبدًا، وكورتس لن يسمح لك بذلك».

أجاب : «لن يعلم كورتس شيئًا عن ذلك - إلا بعد أن يتم».

تغلب على ضعفى ومعاناتى، فأغمى على. عندما أفقت، وجدت يدى مفكوكتين، وأرقد فوق سرير، بينما كانت هناك إمرأة منحنية فوقى تبثنى كلامًا كله رقة وحب، كان الليل قد حل. لكن كان هناك

ضوء فى الحجرة، فإكتشفت أن المرأة لم تكن سوى أتومى نفسها، ورغم ماكانت تعانيه من ضعف ووهن، إلا أنها كانت لاتزال على جمالها قبل أيام الحصار والجوع.

صرخت رغم أن شفتى مجروحتان: «أتومى! أنت هنا!». وعادت إلى مشاعرى، فتذكرت كلمات دى جارسيا.

قالت برقة : «نعم، ياحبيبى، انه أنا. لقد أطلقوا سراحى لأقوم برعايتك، رغم أنهم أشرار. آه، يصعب على أن أراك فى هذه الحال، وليس بيدى شئ أفعله». ثم انفجرت فى البكاء.

قلت لها : «كفى! كفى! هل لدينا طعام؟

«بوفرة تحضره امرأة من طرف مارينا».

«ناولينى الطعام، يا أتومى».

قامت بإطعامى، وزالت عنى آلامى المبرحة، رغم أن جلدى كان لايزال ملتهبًا بسبب النار.

«إسمعى، ياأتومى. هل رأيت دى جارسيا؟»

«كلا، يازوجى. منذ يومين فرقوا بينى وبين أختى وسيدات أخريات، وعوملت معاملة حسنة، ولم أر جنودًا أسبان، فيما عدا

الجنود الذين أحضرونى إلى هنا، وقالوا لى إنك مريض». وبدأت تبكى ثانية.

«لابد أن أحدًا رآك، وأبلغهم أنك زوجتى».

أجابت: «يبدو ذلك معقولا، لأن أمر زواجنا كان معروفًا لكل الجيش، ومثل هذه الأمور لايمكن أن تظل سرًا. لكن لماذا يعاملونك على هذا النحو؟ ألانك حاربت ضدهم؟»

سألتها: «هل نحن وحدنا؟»

«الحارس بالخارج، ولايوجد أحد غيرنا بالحجرة؟»

«قربى رأسك منى، فسوف أقول لك شيئا». ثم قلت لها كل شئ.

عندما. انتيهت انتفضت واقفة وعيناها تلمعان، وتضم يديها إلى صدرها، وقالت: آه! إذا كنت قد أحببتك من قبل، فأنا الآن أحبك أكثر، أنت يامن عانيت كل هذه الفظاعة وتظل مخلصًا للمنهزمين ولقسمك. مبارك ذلك اليوم الذى رأيت فيه وجهك لأول مرة، آه، يازوجى، يا أصدق الرجال».

«لكن ويالللأسف، ياأتومى، يجب أن احكى لك كل شئ». وبصوت متهرج رحت أقص عليها الحكاية، ولحظة ان قلت لها الهدف من

احضارها إلى هنا، اخذت تنصت دون ان تنطق بكلمة، وإربدت شفتاها.

فقالت بعد أن انتهيت، «ان هؤلاء الأسبان أقسى من كهنتنا، حقا. والآن، يا زوجى، بماذا تنصح؟ بالتأكيد لك رأى».

فقلت وأنا أئن: «ليس لدى ما أستطيع أن أقدمه لك، يازوجتى.

أجابت أتومى بكبرياء مرير: «أنت خجول مثل الفتاة التى لا تريد أن تكشف عن حبها، حسن، سأقول أنا مايدور بخاطرك. ان ما تفكر فيه، هو ان نموت الليلة».

قلت : «هو كذلك بالفعل، الموت الآن، أو العار والألم الذى لايحتمل غدًا، ثم الموت فى النهاية، هذا هو إختيارنا».

ثم أخذنا نناقش الأمر بقدر ماتسمح به معاناتى.

وأخيرًا قالت أتومى بصوت خفيض وقور: «لاشك أنك منهك من المعاناة، يازوجى، وأنا ضعيفة واهنة. لقد حان الوقت الذى يتحتم فيه إن تفعل مايجب فعله. إن قدرنا حزين، لكن الراحة أمامنا، على الأقل. أشكرك، يازوجى، لرفقتك، واشكرك أكثر لثقتك فى أهلى وشعبى.

هل أستعد الآن لرحلتنا الأخيرة؟».

أجبتها : «إستعدى!»

فجأة فتح الباب وأغلق، ووقفت أمامنا إمرأة ذات نقاب، تحمل شعلة فى يد، وربطة فى اليد الأخرى. تطلعت إلينا، وإكتشفت نيتنا الفظيعة، فاندفعت نحونا .

وصاحت : «ماذا تفعلان؟» عرفت من صوتها أنها مارينا، «هل انت مجنون، ياتويل؟»

فتسألت أتومى: «من تلك التى تعرفك جيدًا، يازوجى، ولاتريدنا أن نموت فى سلام».

فأجابت المرأة ذات النقاب: «أنا مارينا، وقد جئت لأنقذكما، لو إستطعت».

الفصل الحادى والعشرون

الهروب

هبت أتومى واقفة قبالة مارينا .

قالت فى هدوء وكبرياء: «إنت إذن مارينا، التى جلبت الدمار على وطنك وقدمت آلاف الأطفال للموت والعار والعذاب، وتأتين لإنقاذنا. الآن ، لوكان لدي سبيل آخر، فلم أكن أقبل مساعدتك، كلا، وكنت أنقذت نفسى بالأسلوب الذى كنت على وشك تنفيذه.

اجابت مارينا: «من أجل حبى لكورتس، فقد ساعدت كورتس، لذا دعى حبك يتكلم مع حبى، وأنت تعرفين أن الحب بالنسبة لنا نحن النساء، هو كل شئ».

أجابت أتومى: «اذا أخذنا فى الاعتبار ما مضى، نحن الآن مطرودون، وعندما وجدنا أنفسنا على وشك الموت كالكلاب، فقد قرر زوجى أن يموت، حتى لا يعيش، ويرى الأيدى تتلقفن، مثلما

حدث له، فقررت أنا أن أموت معه، لأن أميرة أتومى، التى تحمل دماء مُونتزيوما، لا تقبل أن تعانى أى خزى وعار، طالما أن الموت له باب واحد ندخل منه زاحفين».

«أوه! كفى ياسيدتى، كفى.» وغطت عينيها بيدها، لأنها استبشعت منظر أتومى، ثم أكملت كلامها: «هل معنى ما قلته، أنك أنت، السيدة أتومى، قد أحضرت إلى هنا لتعذيبك؟».

- «حتى لوحدث ذلك، وأمام أعين زوجى. فلماذا يتحتم على أنا ابنه مونتزيوما، أميرة أتومى، ان تهرب من مصير امبراطور الأزتيك؟».

فقالت مارينا: «أقسم لك، بأن كورتس لايعلم شيئًا عن هذا الأمر. أما بالنسبة للباقى، فقد دفع إلى ذلك بسبب مطالب الجنود، الذين أتهموه بسرقة الكنوز التى لم يرها أبدًا. وهو يرى من التصرفات الأخيرة».

«إذن دعيه يسأل سارسيدا عن ذلك».

«بالنسبة لسارسيدا، فأنا أعدك أيتها الأميرة بأننى سأجعله يدفع ثمن ذلك، ان إستطعت. لكن أرجوكم، الوقت قصير، وقد جئت بمعرفة كورتس، ليرى عما إذا كنت أستطيع أن أظفر بسر

الكنوز من تويل زوجك، لكننى من أجل الصداقة، فأنا على إستعداد لأن أخون ثقة كورتس، وأساعد زوجك وأنت على الهرب، فهل ترفضين مساعدتى؟»

لم تقل أتومى أى شئ، لكنى تدخلت بالكلام لأول مرة.

«كلا، يامارينا، أنا لأحب مصير اللصوص هذا، إذا كان باستطاعتى تقاديه، لكن كيف يمكن تنفيذه؟

«الفرصة محدودة، ياتويل، وأنا أعتقد، أنك بمجرد خروجك من هذا السجن يمكنك أن تهرب بملابس أخرى».

وبينما هى تتكلم كانت تفك الربطة التى معها، التى كانت تحتوى على ملابس وسيف، مثل السيف الذى أخذته من الأسبانى دياز فى موقعة الليلة الرهيبة.

قالت مارينا: «أنظر، إن قضبان نافذة هذه الحجرة من الخشب، وما أسهل أن يكسرها السيف، بعد أن تخرج، إذا شاهدك أحدًا، فعليك أن تلعب دور جندى يقوم بالحراسة فى هذه المنطقة. أما ما يمكن أن يحدث بعد ذلك فلا أعلم عنه شيئا، فيما عدا أننى سأصبح فى خطر عظيم من أجلك، لو أكتشف أننى قمت بمساعدتك، ساعتها لن أستطيع مواجهة غضب كورتس».

قلت : «أنا أستطيع أن أثبت على قدمى اليمنى، أما الباقى، فلابد أن نعتمد على الحظ».

«ليكن الأمر كذلك يا تويل، والآن وداعًا، لأنى لا أستطيع البقاء أكثر من ذلك. وليس بامكانى فعل شئ آخر».

قلت لها وهى تذهب: «وداعًا، مارينا».

سمعنا الباب يغلق خلفها، وأصوات خدمها الذين يحملون أمتعتها من على بعد، ثم خيم سكون تام. أخذت أتومى تتسمع ماخلف النافذة لبرهة، وبدا أن الحراس قد تركوها. ولم تكن هناك أصوات سوى الجنود فى المعسكر على بعد.

قلت لأتومى: «الآن، هيا إلى العمل».

«كما ترغب، يازوجى، لكنى أخشى أن يكون ذلك بلا فائدة، فأنا لا أثق فى هذه المرأة».

اجبتها : «لايهم كثيرا، فحالنا لن يكون اسوأ مما نحن عليه الآن؛ فليس فى الحياة من شرور، إلا الألم والموت، ونحن نعايشهما بالفعل».

وقفت فوق المقعد، وأحسست بقوة ذراعى عندما رفعتها، وسددت ضربة بالسيف الحاد نحو قضبان النافذ، فكسرتها واحدًا

تلو الآخـر، حتى أصـبح هناك فـراغ يـسـمح بخـروجنا. مـا إن انتـهى ذلك حتى ألبسنى أتومى ملابس الجندى الاسبانى، التى أحضـرتها مـارينا، لأننى لم أكن أستطيع ارتداءها بنفسى.

بعد ذلك مـرت هى من خـلال الفـتحـة بسـرعـة، وقـمت أنا بالوقوف فوق المقعد وتبعتها بقـدر ماتسمح به أوجاعى. لم يكن يوجد أحد، وصوت صخب الجنود كان قد تلاشى.

قلت : «إلى أين نتجه؟»

همـست لى : «إلى البـوابة الجنوبيـة، من المحـتمل ألا يوجـد عندها حراس، بعد أن انتهت الحرب».

بدأنا السير، وأنا أتكأ على كتفها، وأقفز على قدمى اليمنى، كـان ذلك مؤلما، وقطعنا مسافة ثلاثمائة ياردة دون أن نقابل أحدًا لكن سوء الحظ واجهنا لحظة أن كنا نمر حول زاوية أحد المبانى، عندما أصبحنا وجهًا لوجه أمام ثلاثة جنود عائدين إلى خيامهم بعد حفلة منتصف الليل، ومعهم بعض الخدم من الأزتيك.

قال أولهم: «من هناك؟ ما اسمك أيها الزميل؟».

اجبت بالأسبانيه وأنا أتكلم ببطء وصوت غليظ «مساء الخير، ياأخى، مساء الخير».

وساعدتنى حتى أتغلب على كل آلامى.

قال : «بل تقصد صباح الخير»، لأن الفجر كان قد طلع، ثم قال: «ما إسمك، أنا لا أعرف وجهك، رغم أنه يبدو لى أنك كنت مشتركا فى الحرب». ثم ضحك.

قلت بهدوء وأنا أتطوح إلى الامام وإلى الخلف. «لايجب أن تسأل عن اسم زميلك. فربما يستدعينى القائد، وأنت تعرف أنه حاد المزاج. ناولينى ذراعك يا فتاة؛ فقد حان الوقت لننام، فقد غربت الشمس».

ضحكوا، لكن واحدًا منهم خاطب أتومى، قائلا: «دعك من ذلك الحيوان المخمور، ياحلوة، وتعالى معنا». ثم أمسكها من ذراعها. لكنها التفتت إليه بنظرة شرسة، فتركها ومضى وهو مندهش، وإتجهنا نحو ركن منزل آخر، لنبتعد عن أنظارهم، هناك سقطت بعد أن تغلب على الألم، وبعد فترة ظهر الجنود ثانية، فأجبرت على السير بقدمى المصابة حتى لايشكوا فى أمرى. لكن أتومى رفعتنى إلى أعلى، وهى تقول :

«هيا، ياحبيبى، لابد أن نعبر هذا المكان وإلا فسوف نموت».

أخيرًا وصلنا إلى البوابة ، ولحسن الحظ كان الحراس الاسبان نائمين فى كشك الحراسه.

كـان هناك ثلاثة من التـلاسكان متكفـئين فـوق نار مـوقـدة، وبطاطينهم فوق رؤوسهم تحاشيا لطل الفجر.

قلت بصوت آمر: «إفتحو البوابة، أيها الكلاب!»

عندما رأوا جنديا أسبانيا، نهض أحدهم لتنفيذ الأمر، لكنه تريث قليلا وقال : «لماذ بأوامر ممن؟»

لم أتمكن من رؤية وجه الرجل بسبب البطانية، لكن صوته كأن مألوفًا لدى، فإنتابنى الخوف. لكن كان لابد أن أتكلم.

«بأوامر ممن؟ بأوامر منى، فأنا الضابط المنوب هذه الليلة، واذا لم تطع، فسوف أجعلك تجلد بالسياط، حتى لاتسأل سؤالاً آخر».

فقال الرجل بغضب لرفيقه «هل أوقظ الأسبان؟»

فأجاب : «كلا، فالقائد سارسيدا متعب، وأعط أوامر بعدم ايقاظه دون سبب مهم. أما أن تمنعهم وإما أن تدعهم يمرون، كما تشاء، لكن لاداعى لإيقاظه».

إرتعدت كل اطرافى؛ فقد كان دى جارسيا نائمًا فى كشك الحراسة، فماذا يحدث لو أيقظوه، وخرج ورآنى؟. هذا بالإضافة... إلى أن الصوت الذى سمعته الآن، كان لأحد الرجال التلاسكان الذين كانوا يشاركون فى تعذيبى، فماذا يحدث لو أنه رأى وجهى؟

بالتأكيد كان سيعرفنى. داهمتنى الكآبة من الخوف، فلم أستطع قول شئ ولو لا سرعة بديهية أتومى لأنتهينا. فقد لعبت دورها ببراعة، وإستطاعت إن تلطف من مزاج الرجل، ففتح البوابه، وسمح لها بالخروج وأنا معها. بعد أن عبرنا البوابة، تملكتنى إغماءة فجائية، فترنحت وسقطت على ظهرى.

فقالت أتومى بضحكة جافة: «إنهض، ياصديقى، إنهض! إذا كان ولابد أن تنام، فإنتظر حتى نجد بعض الشجيرات لنرتاح تحتها».

ثم شدتنى لترفعنى. كان الرجل لايزال يضحك، فتقدم لمساعدتها، واستطعت بمساعدتهما أن أشعر بقدمى، وبينما كنت أقف، سقط غطاء رأسى. فالتقطه الرجل وناوله لى، والتقت أعيننا، لكن وجهى لحسن الحظ كان فى منطقة ظليلة. وعلى التو بدأت أسير مندفعًا وأنا أعرج، ثم لاحت منى التفاتة إلى الخلف، فرايت الرجل يتابعنا ببصره وهو لايكاد يصدق عينيه.

قلت لأتومى: «لقد عرفنى، وعندما يتذكرنى، سوف يتتبعنا».

فقالت أتومى : «هيا، هيا! هناك توجد شجيرات يمكن الأختباء فيها».

«لقد إنتهيت، لا أستطيع السير أكثر من ذلك». ثم بدأت أتهاوى.

أمسكت بى أتومى، وإستجمعت كل قواها، ورفعتنى مثل الأم التى تحمل طفلها بين ذراعيها. حملتنى هكذا المسافة خمسين ياردة تقريبا، فقد منحها الحب القوة، حتى وصلنا أخيرًا حدود الشجيرات، ثم سقطنا سويًا على الأرض. ألقيت بنظرة إلى الخلف عبر الممر الذى سرنا فيه، فرأيت الرجل التلاسكانى قادمًا يحمل هراوة مسننة، ليقبض علينا.

قلت لاهثا: «لقد إنتهى الأمر. الرجل قادم».

كان رد فعل أتومى، أن سحبت السيف وأخفته بين الحشائش وقالت: «حاول أن تتظاهر بالنوم، انها فرحتنا الأخيره».

طرحت ذراعى فوق وجهى وأغلقت عينى. سمعت صوت أقدام الرجل وهو يسير فوق الحشاش. ثم وقف فوق رأسى.

سالته أتومى : «ماذا تريد؟ ألا تراه نائمًا؟ دعه نائمًا».

أجاب : «لابد أن أرى وجهه أولاً، يا إمرأه» ثم أزاح ذراعى من على وجهى وقال: «بحق الآلهة، كما توقعت. إنه الأسبانى الذى تعاملنا معه بالأمس، والذى هرب».

فقالت أتومى وهى تضحك: «أنت مجنون. لقد فر من المكان، لقد أنقذته من عراك مع مجموعة من زملائه»

ـ أنت تكذبين، يا إمـرأه. واذا كنت لاتكذبين، فـأنت لاتعـرفين شيئا. هذا الرجل لديه سر كنوز مونتـزوما، وهو يساوى ثمن ملك ثم رفع هراوته. فـقـالـت «ورغم ذلك تريد قـتله! على كل، أنا لا أعرف عنه شيئًا. خذه عندما يصحو من نومه. ما هو إلا حيوان سكير وسوف أتخلص منه».

«رأى صائب. ستكون حماقة منى اذا قتلته. ولو أننى حملته إلى سارسيدا» فسوف أحصل على مكافأة كبيرة، تعالى ساعدينى».

ردت بغضب: «ساعد نفسك. لكن فتشه اولا، فربما يكون معه بعض النقود، نقتسمها سويًا.

فقال: «رأى صائب، أيضا». ثم ركع على ركبتيه وإنحنى فوقى وبدأ يتحسس ملابسى.

كانت أتومى تقف خلفه. رأيت وجهها يتغير ويصدر من عينيها وميض مرعب، مثل ذلك الوميض الذى كان يوجد فى عينى كاهن التضحية. وبسرعة شديدة سحبت السيف من بين الحشائش وهوت به بكل قوتها على عنق الرجل المنحنى. فسقط فاقد النطق، وسقطت هى الأخرى بجانبه. بعد لحظة كانت تقف على قدميها ثانية، وتنظر إليه بفزع والسيف فى يدها.

قالت: «إنهض، قبل أن يأتى آخرون ويقبضوا علينا، كلا، لابد أن تنهض».

وهكذا أخذنا نسير ونقاوم الحشائش، وقد إنتابنى ذهول شديد. وبعد فترة خيل لى أننى ضائع فى حلم رهيب، وأمشى فوق حديد أحمر متوهج بعد ذلك، داهمنى مشهد رجال مسلحين بحراب مشرعة، وأتومى تجرى ناحيتهم وذراعاها مفرودتان.

ولم أع شيئًا بعد ذلك.

الفصل الثانى والعشرون

اتومى تناشد مواطنيها من اجل حياتى

عندما إستيقظت وجدت نفسى فى كهف، حيث الاضاءة معتمة، وأتومى منحنية على، وعلى مسافة ليست بعيدة منها رجل كان يطبخ فى وعاء فوق نار من أوراق الأشجار الجافة.

تساءلت: «أين أنا وماذا حدث؟!»

فأجابتنى: «أنت فى أمان، يا حبيبى، لفترة على الأقل. عندما تأكل سأحكى لك كل شئ».

أحضرت لى الطعام وأكلت بنهم، وعندما شبعت تكلمت:

- أنت تذكر كيف تتبعنا ذلك الرجل... وكيف تخلصت منه؟:

- «اذكر، يا أتومي، ولا أدرى من أين جاءتك هذه القدرة على قتله؟

ـ «منحنى إياها الحب والخوف، وكل ما أرجوه ألا أكون فى حاجة إلى ذلك أبداً ـ لاداعى للتحدث فى هذا الموضوع، يازوجى، أفظع شئ حدث أكثر من أى شئ آخر فى حياتى ـ وعلى أى حال فهناك شئ فى هذا الموضوع يريحنى، فأنا لم أقتل الرجل، لأن السيف القوى فى يدى وأعتقد أنه لم يمت. بعد ذلك فررنا إلى مكان أبعد قليلاً، وعندما نظرت خلفى وجدت رجلين آخرين من زملائه، كانا يبحثان عنه وعنا ـ فوصلا إلى حيث يرقد الرجل الغائب عن الوعى وتطلعا إليه. ثم شرعا فى الجرى وراءنا، كان من الممكن أن يقبضا علينا، لأنك كنت فى هذا الوقت لا تكاد تتحرك، وفاقد الوعى، وأنا لم يعد لدى قوة لحملك، وهكذا ظللنا ندفع بأنفسنا حتى أصبحا على بعد خمسين ياردة منا، وفجأة رأيت رجالا مسلحين، اندفع ثمانية منهم نحونا خلال الشجيرات. اكتشفت أنهم من قومى، مجموعة جنود من مقاطعة أتومى الذين خدموا تحت قيادتك، كانوا يراقبون المعسكر الأسبانى، وعندما شاهدوا أسبانيا وحده، جاءوا ليقتلوه. عندما كانوا على وشك تنفيذ ذلك، إستطعت فى النهاية أن اتكلم لأنى كنت متقطعة الأنفاس.

وبكلمات قليلة عرفتهم بنفسى وشرحت لهم الحالة التى أنت عليها ـ فى هذه الأثناء كان الرجلان قد وصلا، فطلبت من رجالى

أنقاذنا، فإنقضوا على الرجلين، فقتلوا واحداً وأخذوا الثانى أسيرا. بعد ذلك صنعوا محفة وضعوك عليها وحملوك لمسافة خمسين ميلاً فى الجبال دون توقف، حتى وصلنا إلى هذا المكان السرى، وهنا رقدت ثلاثة أيام بلياليها. فتش الأسبان عنك فى جميع الأماكن النائية. لكن بحثهم كان دون جدوى.

بالأمس فقط، مر جنديان أسبانيان بصحبة عشرة من التلاسكان على بعد مائة خطوة من هذا الكهف، وكان من الصعب أن أمنع قومى من مهاجمتهم. بعد أن فروا، فكرت أن وجودنا هنا لن يكون آمنا لفترة طويلة. لذا عندما تتحسن حالتك يمكننا الذهاب من هنا.

«إلى أين يمكننا الذهاب؟ نحن طيور بلا أعشاش».

«لابد أن نجد ملجأ». يجمعنا فى مدينة بنيس أو نهرب عبر البحر، ليس هناك خيار، يا زوجى».

«لايمكن أن نهرب عبر البحر، يا أتومى، لأن كل السفن التى تبحر فيه أسبانية، كما أننى لا أدرى كيف سنستقبل فى مدينة بنيس بعد أن تسببنا فى ضياعها، وفقدان الآلاف من مقاتليها».

«لابد أن نواجه ذلك الخطر، يا زوجى، فمازالت هناك قلوب مخلصة فى أناهوك، وعلى إستعداد لمساندتنا فى محنتنا ومحنتهم.

فنحن على الأقل، قد هربنا من الخطر الأعظم. والآن دعنى أغير لك جراحك ثم تستريح قليلاً».

ظللت لمدة ثلاثة أيام أخرى، راقداً فى هذا الكهف، وأتومى ترعانى، وفى نهاية المدة تحسنت حالتى بالقدر الذى يسمح لى بالترحال، فيما عدا بعض الآلام التى كانت تجعلنى لا أستطيع أن أضع قدمى على الأرض.

وفى اليوم الرابع، بدأ ترحالنا ليلا، وحملنى الرجال على أكتافهم حتى عبرنا الوادى الضيق الذى يؤدى إلى مدينة بنيس. كنا نستوقف عند نقاط الحراسة. فكانت أتومى تخبرهم بقصتنا، وترجوهم أن يذهب بعضهم قبلنا ليحكوا القصة لقائد المدينة. كنا نسير خلف الدليل ببطء. لأن الرجال الذين كانوا يحملوننى تعبوا وأنهكوا، حتى وصلنا إلى بوابات المدينة الجميلة، وشمس الغروب الحمراء تنعكس على قمة الجبل الثلجية الذى يقف شامخاً خلف المدينة، محولة الدخان المتجمع حولها إلى غضب أحمر، مثل الحديد المنصهر.

كانت أبناء وصولنا قد انتشرت، وتجمعت هنا وهناك مجموعات صغيرة لمشاهدتنا أثناء مرورنا. كان معظم الناس يقفون

صامتين، لكن من حين لآخر، كانت بعض النسوة، اللاتى فقدن أزواجهن فى حصار المدينة، يبصقن علينا ويلعننا.

أخيراً عبرنا الميدان تحت ظل الهرم، ووصلنا إلى القصر بينما كان آخر ضوء من النهار يتلاشى. أعد لنا إستقبال بسيط، وتناولنا العشاء المكون من شطائر اللحم والماء على ضوء المشاعل مثل المساكين الأذلاء فى البلد. بعد ذلك، ذهبنا لكى نستريح، وبينما أنا راقد مستيقظ سمعت أتومى، التى ظنت أنى نائم، تنفجر فى بكاء مكتوم مرير مكتوم وهى إلى جانبى. فقد أذل كبرياؤها أخيراً، وهى التى لم أرها تبكى بمثل هذه المرارة قط إلا عندما مات وليدنا الأول أثناء الحصار.

سألتها: «لماذا كل هذا الحزن والأسى، يا أتومى».

فاجابت وهى تبكى: «لم أكن أعلم أنك مستيقظ، يا زوجى، وإلا كنت كبحت أحزانى، أنا حزينة، يا زوجى لكل ما جرى لنا ولقومى.. وحزينة كذلك، رغم أن هذه مجرد أشياء تافهة، لأنه أحط من قدرنا وعوملنا معاملة من لا وطن لهم».

قلت لها: «معك حق، يا زوجتى. لكن ماذا سيفعل أهل أتومى بنا، هل سيقتلوننا، أم يسلموننا إلى الأسبان؟».

«لا أعلم، سوف نعرف غداً، وعن نفسى فأنا لم أسلم للأسبان حية».

«ولا أنا كذلك يا زوجتى، الموت أفضل من معاملة كورتس ومساعده دى جارسيا. لكن هل هناك أى أمل؟».

«نعم، هناك أمل، يا حبيبى، إن أهل أتومى منسحقون عاما، ويذكرون أننا من دفع بزهرة شبابهم إلى ساحة الموت. لكنهم شجعان وقلوبهم نبيلة، وإذا استعطت أن أثير هذه النوازع فيهم، فسيكون كل شىء على ما يرام. إن الهوان والألم والذكريات تجعلنا ضعفاء. فى حين ينبغى أن نتمسك بالشجاعة التى تزيل الكثير من الضعف.. ثم، يا زوجى، ودعنى أفكر. سيمضى كل شىء على ما يرام، حتى سوء الحظ له نهاية».

وهكذا نمت، وإستيقظت فى الصباح أكثر نشاطاً، وأسعد فكراً.

وعندما فتحت عينى كانت الشمس قد ارتفعت فى السماء، فى حين أن أتومى كانت قد إستيقظت عند الفجر، وإنشغلت طيلة هذه الساعات، فى البداية وجدت طعاماً، وملابس تتناسب مع مكانتنا بدلاً من الخرق التى كنا نرتديها. كما قامت بلقاء بعض النبلاء من أصدقائها الذين كانوا مخلصين لها فى محنتها، وطلبت منهم أن يبلغوا الناس أنها تريد التحدث إليهم فى منتصف النهار من فوق

درجات القصر، لأن أتومى كانت تعرف جيداً كيف تعزف على أوتار قلوب الجموع بسهولة أكثر من أولئك المستشارين القدامى.

سألتها: «هل سيحضرون للإستماع إليك؟».

أجابت: «لا تخشى شيئاً. سيحضرون بدافع الرغبة فى مشاهدتنا، نحن الذين بقينا على قيد الحياة رغم العديد من المعارك، وأيضا ليعرفوا حقيقة ما حدث، بالإضافة إلى أن البعض سيحضر لمجرد الإساءة إلينا».

كانت أتومى على صواب، فعندما إقترب منتصف النهار، شاهدت أهل مدينة بنيس يتجمعون بالآلاف، حتى أصبح المكان فيما بين درجات القصر وأوجهة الهرم ساحة سوداء، قامت أتومى بتمشيط شعرها الكستنائى وزينته بالزهور، ووضعت مئزراً من الريش على كتفها، تدلى على ملابسها البيضاء، وزينت صدرها بالقلادة الزمردية التى أعطاها لى جواتيموك، وربطت على وسطها حزاماً ذهبياً، كما أمسكت بيدها عصاً من الأبنوس أطرافها مذهبة، وعلقت بعض الأوسمة والنياشين التى تدل على مكانتها ورفعة قدرها، وبدت كأعظم ملكة وقعت عليها عيناى.

بعد ذلك أمرت بأن أحمل إلى الخارج بنفس المحفة الخشنة، وأكون إلى جانبها، وعندما حل منتصف النهار، حملنى أولئك

الجنود الذين حملونى عبر الجبال. خرجنا من الباب الكبير بالقصر وأخذنا مكاننا فى مدخل القصر المنبسط بالقرب من بداية الدرج. فقوبلنا بصيحات عالية من آلاف الناس، صيحات شرسة مثل التى تطلقها الحيوانات المفترسة عند حاجتها للطعام. علت الصيحات أكثر وأكثر، بشكل يثير الرعب فى أى قلب جسور، وفى النهاية أدركت معنى الصيحات.

كانت الصيحات تقول: «اقتلوهم، سلموهم للأسبان».

تقدمت أتومى حتى حافة منبسط الدرج، رفعت العصا الأبنوس، ووقفت ساكنة، وأشعة الشمس تسقط على وجهها الجميل وهيئتها. لكن الحشد الغوغائى بدأ يسبنا بكلمات قذرة، وأخذت الضوضاء تتزايد. وفجأة إندفعوا نحوها كما لو كانوا يودون تمزيقها، لكنهم تساقطوا فوق الدرج بسبب تدافعهم، وتساقطت موجات من الحجارة وقذف رمح مر بين عنقها وكتفها.

فى تلك اللحظة تأكد الجنود الذين حملونى بموتنا، ولم تكن لديهم رغبة فى المشاركة فى ذلك، فوضعوا مقعدى على أرضية الشرفة، وانسحبوا إلى داخل القصر، حدث كل ذلك وأتومى لم تهز، حتى عندما مزقت الحربة جانبها. وقفت أمامهم بثبات وكبرياء، ملكة حقيقية. ورويدا رويدا إستطاعت أن تهدئهم

بشجاعتها وجلالها. عندما عم الصمت، بدأت تتكلم بصوت واضح كان له تأثير كبير.

تساءلت بمرارة: «هل أنا وسط أهلى ومواطنى أتومى، أم أننى ضللت طريقى، لأجد نفسى بالصدفة وسط قبائل التلاسكان المتوحشين؟ أصغوا إلى، يا أهل أتومى أريد شخصا واحدا يتحدث باسمكم جميعا، أختارو نائبا عنكم يتكلم بلسانكم، ودعوه يفضى إلى بما تضمروه فى قلوبكم» علت الضجة مرة ثانية، وتعالت أصوات باسم شخص ما، وأصوات أخرى باسم شخص آخر، فى النهاية تقدم كاهن نبيل يدعى ماكستلا، وهو رجل له نفوذ كبير على شعب أتومى، كما كانت له علاقة حميمة مع الأسبان، وعارض فى إرسال جيش للدفاع عن مدينة المكسيك. لم يتقدم وحده، لكن كان معه أربعة من الكهنة الكبار، إكتشف من ملابسهم أنهم من التلاسكان ومبعوثون من قبل كورتس. سقط قلبى بداخلى لأنه كان من السهل معرفه سبب قدومهم.

قلت أتومى. «تفضل بالكلام، يا ماكستلا، لأننا يجب أن نسمع ما لديك حتى نستطيع الإجابة عليه، أما أنتم يا شعب أتومى، فأرجوكم الهدوء، حتى يمكنكم الحكم بيننا عندما ينتهى الحوار».

خيم صمت رهيب على الجموع، التى تضغط على بعضها مثل أغنام داخل حظيرة استعدادا لسماع كلمات ماكستلا.

والقت على قومها خطبة بليغة.

«سيكون كلامى معك أيتها الأميرة ومع زوجك غير الشرعى، ثويل، قصيرا وقاسيا منذ عدة شهور مضت حضرت إلى هنا لتأخذى جيشا لمساندة كويتلاهو إمبراطور الأزتيك فى حربه ضد الأسبان. وأعطيناك هذا الجيش على غير إرادة الكثيرين منا. ومضيت ومعك عشرون ألفا من زهرة شبابنا إلى مدينة المكسيك، أين هم الآن سأقول لك، عاد منهم مائتان تقريبا يجرون أذيال الهزيمة، أما الباقى فقد تلقفهم الموت، أنت دفعت بهم لملاقاة حتفهم، فهل، من الكثير إذن، أن نأخذ حياتكما أنتما الاثنين، عوضا عن أرواح العشرين ألفًا، من أبنائنا وأزواجنا وآبائنا، ورغم ذلك، فنحن لن نطالب بذلك، إلى جانبى يقف مبعوثون من قبل كورتس قائلا الأسبان، وصلوا إلى المدينة منذ ساعة فقط، وقد حملوا رسالة من كورتس، هذا نصها:

أرجو تسليم أتومى ابنة مونتزيوما والخائن الذى معها، الذى يعرف باسم تويل الهارب من العدالة بسبب جرائمه، وستمض الأمور معكم، يا شعب أتومى على ما يرام أما إذا أخفيتموها أو رفضتم تسليمها فإن مصير مدينة بنيس سيكون نفس مصير مدينة المكسيك ملكة الوادى إختاروا إذن، ما بين رضاى وما بين غضبى يا شعب أتومى إذا أطعتم فسوف نتغاضى عن كل ما حدث فى

الماضى، وستكون معاملتى لكم طيبة، إما إذا رفضتم، فسوف تسوى مدينتكم بالأرض، وينمحى ذكركم تماما من تاريخ العالم.

«أليست هذه كلمات كورتس أيها الرسل»؟

قال كبيرهم: «كلماته بالنص، ياماكستيلا».

تعالت الصيحات ثانية بين الجموع، بعضها يطالب بتسليمها لكورتس من أجل السلام، تقدت أتومى للامام لكى تتكلم فتلاشت الصيحات، لأن الجميع كانت لديه الرغبة سماع كلماتها. قالت:

«يبدو يا شعب أتومى - أننى أحاكم أمام مواطن وزوجى معى على أى حال، سوف أقدم مبرراتى مثلما تفعل أى إمرأه، ويما لديكم من قوة، سوف تحكمون بينى وبين ماكستلا، وأعوانه، التلاسكان وكورتس، ما هو دفاعنا؟.. لقد جئنا إلى هنا بأمر من كويتلاهو لنطلب المساعدة فى حربه مع الأسبان فماذا قلت لكم ساعتها؟ قلت لكم، إن شعب أناهوك إذا لم يتحد ضد الرجال البيض فسوف يتحطم مثل أعواد الحطب التى لا تجمعها حزمة واحدة، ومن ثم تلقى إلى النار واحدة بعدا أخرى، هل قلت أكاذيب؟.. كلا، لقد قلت الحقيقة، لأنه بسبب خيانة بعض قبائلها، سقطت أنا هوك، ودمرت مدينة المكسيك وإمتلأت بالقتلى».

صاح صوت: «هذا صحيح»!

«نعم، يا شعب أتومى، هذا صحيح، لكنى أقول لو أن جيوش كل بلاد أناهوك قامت، بما قام به أولادكم، لكانت الأمور إختلفت لقد ماتوا، ولأنهم ماتوا، لابد أن تهبونا المزيد لمواجهة أعدائنا،

وأنا لا أرثيهم، رغم أن من بينهم الكثير من دمائى، أليس من الأفضل أن يموتوا بشرف محققين لأنفسهم تاجا من الشهرة ومكانة خالدة فى بيوت الشمس على أن يعيشوا كعبيد، لكن يبدو أن هذه رغبتكم.

ياشعب أتومى ليست هناك كلمة واحدة كاذبة فيما قلته لكم إن العصى التى استخدمها كورتس لضرب مخططات جواتيموك، سوف تحطم وتحوق تحت وعاء لطهى الأسبان».

توقفت عن الكلام فسارت همهمات شك وعدم إرتياح بين آلاف من استمعوا اليها، تقدم ماكستلا بضع خطوات، وكاد أن يتكلم لكن الناس طالبوه بالتراجع وهم يصيحون «أتومى أتومى دعونا نسمع كلمات أتومى».

قالت «شكرا لأهلى، مازال لدى الكثير لأقوله لكم. إن جريمتنا تتحصر فى أننا سحبنا جيشا وراءنا ليحارب ضد الأسبان لكن كيف جمعنا هذا الجيش؟ هل أمرتكم أنا بجمع حشودكم؟ كلا، لقد عرضت قضيتى وقلت، الآن عليكم أن تختاروا، فاخترتم بحر

إرادتكم وأرسلتم رجالكم الشجعان، الذين هم أموات الآن.. جريمتى اذن، تتمثل، فيما به أنتم من إختيار خاطئ كما تقولون، لكن طالما أنا مازلت مصرة على صواب رأيى وبسبب هذه الجريمة، أنا على إستعداد أنا وزوجى الأن تسلمونا للأسبان قربانا للسلام. أصغوا إلى؟ دعونى أقول لكم شيئا عن المعارك التى قمنا بها، قبل أن تهبونا إلى الأسبان، وتسكت أفواهنا إلى الأبد».

ثم واصلت كلماتها النارية عن أهوال الحرب ضد الأسبان، وشجاعة رجل مقاطعة أتومى الذين كانوا تحت قيادتى. ظلت تتكلم على هذا النحو لمدة ساعة وكان الجمع الكبير مشدودا بكلماتها، كما أشادت بالدور الذى قمت به أنا فى الحرب، وما قمت به من أفعال، ومن حين لآخر كان بعض الجنود الموجودين ضمن الجمع والذين خدموا معى يصيحون قائلين: «هذا صحيح، لقد رأيناه بأعيننا».

« يا شعب أتومى، يا أهلى، أرجو ألا تقيموا أى علاقات مع الأسبان الخونة، ونظل جسورين أحرارا . إن أعناقكم لا تليق للعبودية والجلد بالسياط، إن أبناءكم وبناتكم ينحدرون من دماء سامية، حتى يقوموا بخدمة الأجنبى وتلبية حاجاته ومسراته، هاهو جيلكم الشامخ يحثكم على دحر كل أسبانى فى أنا هوك، يا شعبى يا شعبى أرجو ألا

تظنوا أنى اطالب بأى شىء لنفسى، أو حتى لزوجى الذى هو عزيز لدى عن أى شىء آخر، الا الشرف والنبل. إذا كنتم تتصورون أنكم ستسعدون اذا سلمتمونا أحياء لهؤلاء الكلاب التلاسكان، فأنتم مخطئون؟ انظروا! ثم اتجهت ناحية الحربة التى قذفت عليها وكانت موجودة على الأرض، ورفعتها، وقالت «هذه وسيلة من وسائل الموت، بعث بها إلينا صديق، وإذا كان فى بيتكم عدم مساندتى، فسوف ترونها تستعمل امام أعينكم. بعدها. يمكنكم إرسال جسدينا إلى كورتس قرباناً للسلام. لكن أرجوكم، من أجل خاطركم، دعوا كورتس يفعل مايريد؟ وإذا كان لابد أن تموتوا فى النهاية، فلتموتوا أحراراً، وليس عبيداً للأسبان، إنتظروا إذن خدمات كورتس الجليلة، بل المزيد منها لوأنكم أخذتم بنصيحة ماكستلا» (ثم إتجهت إلى الكرسى الذى أجلس عليه، وشقت ثوبى بسرعة، وتركتنى عرياناً حتى منتصفى، وفكت رباط جراح أطرافى، ثم رفعتنى إلى أعلى حتى وقفت على قدمى.

وقالت «انظروا! قالت ذلك بصوت عال مؤثر، وهى تشير إلى جراحى غير الملتئمة على وجهى وسامى، وأكملت: «أنظروا! إلى مافعله الأسبان والتلاسكان، أنظرو كيف يتعامل العدو مع من يستسلم له. استسلم لنا إذا أردت، أو ارحل إذا أردت، لكن لابد أن ترسم أجسادكم بنفس الأسلوب، حتى لا تبقى أوقية ذهب تشبع

نهم الأسبان، أو رجل أو سيرة يمكن أن تقوم بخدمته وهو مستلق فى كسل.

توقفت على الكلام وتركتنى أجلس برقة على الأرض، لأننى لم أكن أستطيع الوقوف وحدى، ووقفت قبالتى والحرية فى يدها، إنتظاراً لتدفع بها إلى قلبى.

●●●

خيم صمت تام للحظة، وفجأة اندلعت ضجة صاخبة مشحونة بالغضب أكثر من المرة الأولى عشرات المرات. لكنها لم تكن موجهة إلينا. فلقد إنتصرت أتومى. فقد كان لكلماتها النبيلة، ولجمالها وقصتنا المحزنة، ومنظرى وأنا عارٍ تأثير بالغ عليهم، فاشتعلت قلوب الناس بالغضب ضد الأسبان، الذين دمروا جيشهم، وضد التلاسكان الذين ساعدوهم..إزداد صياحهم ومزقوا ملابسهم ورفعوا أسلحتهم فى الهواء. حاول ماكستلا أن يتكلم، لكنهم جذبوه إلى أسفل، واستطاع أن ينجو بحياته. ثم تحولوا ناحية الرسل التلاسكان، وأوسعوهم ضربا بالعصى وهم يصيحون:

«هذا ردنا على كورتس. فلتسرعوا، أيها الكلاب بردنا إليه»

حتى طردوا من المدينة.

أخيرا هدأت الضجة، وأقبل أحد الزعماء الكبار وقبل يدا تومى، وقال «أيتها الأميرة، نحن أبناؤك سوف نحرسك حتى آخر يوم فى حياتك. لأنك زرعت فينا قلوباً جديدة. أنت على صواب: من الأفضل أن يموت الانسان حراً، على أن يحيا عبداً،

قالت أتومى: «والآن، يا زوجى، أدركت أننى لم أكن مخطئة عندما قلت لك، إن شعبى مازال مخلصا وواثقاً فى، والآن، دعنا نستريح، فأنا منهكة تماماً.

أجبت: «أتومى، ليس هناك امرأة أعظم منك، على وجه الأرض.

قالت وهى تبتسم: «لاأدرى، يازوجى، وإذا كنت قد فزت بثنائك ومديحك وسلامتك، فهذا يكفينى.»

الفصل الثالث والعشرون

حصار مدينة بنيس

عشت عدة أعوام فى أمان بمدينة بنيس. كانت مقاطعتنا فقيرة وذات طبيعة صخرية، وكنا نراوغ الأسبان ولا ندفع لهم الفدية.

ففى تلك الفترة عاد كورتس إلى أسبانيا، ولم تعد لدى الأسبان نزعة قوية لمحاربتنا. فقد كانت معظم مقاطعات أنا هوك تحت سيطرتهم، ولم تكن هناك فائدة كبيرة تعود عليهم، إلا الخسارة من جراء القتال لضم مقاطعة أتومى لسيطرتهم. وبالتالى تركونا ننعم بالهدوء فترة معقولة.

أخيراً وصلت أنباء تفيد بأن قوات ضخمة من التلاسكان ومن الهنود، قد تجمعت لإبادتنا أصلاً وفرعاً، ومعهم أكثر من مائة أسبانى تحت قيادة القائد برنال دياز، الذى أنقذت حياته فى معركة الليلة الرهيبة، ومازال سيفه معلقاً بجانبى حتى اليوم.

أقترب الأعداء منا بسرعة كبيرة. فتقدمت إلى الممر الوحيد الذى يمكن من خلاله أن يصلوا إلينا منه، ومعى قوة صغيرة، وقسمت الباقى إلى مجموعتين متساويتين فوق جافتين منحدرتين، بحيث يهيمنان على الطريق؛ وأمرتهم بأن يمطروا الأسبان بالحجارة عندما أعطيهم إشارة ما، وهى أن أركض سريعاً أمامهم فى الممر.

كان الوقت إحدى ليالى بداية الصيف؛ ودعت أتومى وأخذت ابنى الشاب معى وبعثت بالفرقتين على جانبى الجرف المنحدر، ثم عبرت فتحة الممر المظلمة، . مع بضعة مئات من الجنود الذين بقوا معى. علمت أن الأسبان سيمرون خلال ساعة ما قبل طلوع النهار، ظنا منهم أنى قد أكون نائما. فى وقت صباح اليوم التالى على وجه التحديد، سمعت أصواتاً من بعيد، تأكدت من خلالها أن العدد بدأ يتحرك. نزلت إلى الممر لملاقاتهم، الذى لم تكن توجد به صخور، وهذا ممر لم يكن معروفاً لدى ولالرجالى.

لكن بالنسبة للأسبان فقد كان الأمر مختلفا إذ كان الكثير منهم على ظهور الخيل، هذا بالاضافة إلى أنهم كانوا يجرون مدفعين. بمرور الوقت أصبحت حركة المدفين أكثر سرعة على الطريق الصخرى، حتى وصلوا إلى منطقة ما فأمرهم القائد بالتوقف حتى يطلع النهار.

آخيرا طلع الفجر، وملأ الضوء أعماق الممر الكبير، فظهرت صفوف طويلة من الأسبان والمتعاونين معهم، وكلهم زهو بخوذاتهم الملونة وأرديتهم المزينة بالريش. رأونا، فتقدموا ببطء حتى إقتربوا منا بنحو مائة خطوة. فصاح الأسبان صيحة الحرب «ياقديس بيتر»، واندفعوا نحونا بخيولهم.

قابلناهم بوابل من السهام التى عوقت تقدمهم قليلا، إلى حد ما، وسرعان ماأصبحوا وسطنا ودفعونا إلى الخلف بأطراف رماحهم، وقتلوا العديد منا، لأن أسلحتنا الهندية لم تكن ذات تأثير كبير بالنسبة للرجال والخيول، التى تكسوها الدروع، لذلك كان لابد من الفرار، وحقيقة كان الفرار من ضمن خطتى، حيث كنت آمل أن أسحب العدو إلى ذلك الجزء الضيق من الممر الذى يشرف عليه الجرفان، فيمكن سحقه بالحجارة، التى ستنهال عليه من أعلى. قمنا بالفرار، وتبعنا الأسبان حتى وقعوا فى الفخ، فى تلك اللحظة إندفعت صخرة كبيرة واحدة من أعلى سقطت فوق حصان فقتلته، وتوالت بعد ذلك الصخور، وسعدت من كل قلبى لاننى تخيلت أن الخطر قد زال، وأن الخطة نجحت.

فجأة سمعت من أعلى صوت ضجة، كانت ضجة رجال يتقاتلون، أخذت تزداد وتزداد حتى ملأت الجو، ثم سقط من أعلى شئ، لم يكن حجراً وإنما كان أحد رجالى، ثم سقط آخر وآخر.

يا للأسف! لقد اكتشفت الحقيقة؛ فقد وقعت فى فخ. ذلك أن الأسبان. بخبرتهم القديمة فى الحرب، تقدموا داخل الممر بمدافعهم الثقيلة وكان هذا أمراً لابد منه، لكنهم فى نفس الوقت، أرسلوا رجالاً أشداء لتسلق الجبل تحت ستار الليل من خلال ممرات سرية. فى حين كان رجالى يراقبون تقدمهم فى الممر، ولم يتصوروا للحظة أن العدو بالقرب منهم، ففوجئوا تماماً. وبالكاد كان لديهم الوقت للإمساك بأسلحتهم، فى حين كانت تتدفق أعداد كبيرة من الأعداء فوقهم وهم يصيحون صيحات رهيبة!

إكتشفت كل ذلك مؤخراً جداً؛ ولعنت غبائى، فلم أكن أظن أبداً، أن باستطاعة الأسبان معرفة الممرات السرية، التى كانت على الجانب الأخر من الجبل؛ ناسياً أن الخيانة من الممكن أن تحقق أصعب الأمور.

خسرنا المعركة بالفعل. ومن إرتفاع ألف قدم فوقنا ارتفعت صيحات النصر. خسرنا المعركة، لكن كان لابد أن أقاتل. بأسرع ما يمكن طلبت من الجنود الذين بقوا معى أن ينسحبوا إلى زاوية ضيقة فى الممر، حيث يمكن لمجموعة صغيرة من الرجال، أن تعطل تقدم الجيش، وطلبت من بعض الرجال أن يقفوا إلى جانبى، فاستجاب الكثير لدعوتى. أخذت منهم خمسين رجلاً أو يزيد، وطلبت من الباقى أن يسرعوا بأقصى مايمكن إلى مدينة بنيس، ليخبروا أهل المدينة بالخطر الذى سيداهمهم.

فى نفس الوقت كان على أن أقوم بعرقلة تقدم الجيش، حتى تتاح الفرصة لغلق بوابات المدينة ويستعد الرجال فوق الأسوار، كان إبنى ضمن المجموعة التى بقيت معى، فأمرته بالعودة رغم توسلاته الشديدة للبقاء معى، لكن ، عندما تأكدت أنه ليس أمامى سوى الموت، رفضت طلبه.

ذهبت الجميع، وتقدم الأسبان ببطء ناحية الزاوية الصخرية وبحذر، وماإن رأوا بعض الرجال حتى توقفوا . كانت أرض هذه المنطقة رخوة، فلم يستطع مهاجمتنا الإ القليل منهم، ولم يكن فى إمكانهم إحضار أسلحتهم الثقيلة لا ستخدامها ضدنا. كما أن وعورة الطريق أجبرتهم على الترحل من فوق جيادهم، وتحتم عليهم أن يهاجمونا على أقدامهم. وهذا ماقاموا به فى النهاية. سقط الكثير من كلا الجانبين، ولم أصب بأى جروح، لكنهم فى النهاية أجبرونا على التراجع إلى الخلف. خطوة، خطوة، دفعونا إلى الخلف حتى دخلنا فتحة الممر.

لم يكن هناك جدوى من المزيد من القتال، ولم يكن أمامنا سوى أن تموت، أو لفر. فاخترنا الفرار من أجل زوجاتنا وأبنائنا وليس من أجل أنفسنا، جرينا كالغزلان عبر السهل، وخلفنا الأسبان وأعوانهم.

ولحسن الحظ كانت الأرض وعرة مليئة بالأحجار، فلم تستطع خـيـولهم الركض بحـرية، ولسـبب ذلك تمكنا من الوصـول إلى البوابات فى سلام. ونجح كذلك نحو خمسائة أو يزيد من رجالى الذين بقوا على قيد الحياة من دخول المدينة بسلام.

كانت البوابات الثقيلة تتأرجح تحت ضغط الأسبان، ولحسن الحظ كانت مدعمة بقوائم من أشجار البلوط القوية، منذ الهجوم السابق للاسبان، كان قوسى مايزال فى صدرى، وكان معى سهم واحد. ثبته على القوس وشددت الوتر بكل قوتى؟ أطلقت السهم من بين قوائم الباب، تجاه شخص يمتطى حصانا ويتقدم المجموعة. فأصابه فى رقبته تحت غطاء رأسه (خوذته)، ففرد ذراعيه وسقط على الأرض، ولم يحرك ساكنا. إنسحب الجميع، وبعد فترة عاد أحدهم يحمل راية بيضاء فى يده. كانت تبدو عليه ملامح الفرسان، لمايرتديه من زى عسكرى فاخر، وبمراقبته، خيل إلى أن هناك شيئا فى ملامحه وجلسته اللامبالية فوق الحصان والطريقة التى أوقف بها حصانه، تذكرنى بشخص ما.

شد لجام فرسه وأوقفه أمام البوابات، ورفع غطاء خوذتة وبدأ يتكلم.

رفع القناع عن وجهه.. وتكلم.

عرفته على الفور، لقد كان دى جارسيا يقف أمامى، عدوى القديم الذى لم أسمع عنه شيئا، ولم أره منذ مايقرب من إثنى عشر عاما.

صاح دى جارسيا بالأسبانية. «أنتم يامن هناك ! أريد أن أتكلم مع قائد متمردى أتومى، نيابة عن القائد برنال دياز.»

صعدت إلى أعلى السور بواسطة سلم خشبى وأجبته: «تكلم، فأنا الرجل الذى تريده.»

فقال وهو يتطلع إلى بحدة وحاجباه مقطبان: «أنت تتكلم الأسبانية جيدا، يا صديق، قل لى، أين تعلمتها؟ ومااسمك، وعائلتك؟»

«لقد تعلمتها، ياجوان دى جارسيا، من دونا لويزا!، التى كنت تعرفها أيام الشباب. واسمى توماس وينجفيلد.» فسقط دى جارسيا تقريبا من فوق حصانة.

وقال: «أيتها الأم المقدسة! حظى سعيد بالتأكيد، لأن أحد مآسى حياتى، هو هروبك منى فى أغلب الأحيان، أيها الخائن. لكن بالتأكيد، لن يكون فى وسعك الهروب هذه المرة.

قلت له. «أنا أعرف جيداً، أنه لن تكون هناك فرصة للفرار، بالنسبة لى أو بالنسبه لك. نحن الآن نلعب الجولة الأخيرة ،

فلاداعى للتباهى بصوتك العالى، لأن الله وحده يعلم لمن سيكون الفوز. لقد حالفك النجاح طويلا، لكن ربما يأتى يوم تصبح فيه أسيراً، وساعتها ينتهى هذا الزهو مع توقف أنفاسك. والآن ماهى طلباتك يادى جارسيا جلس صامتا للحظة، وهو يجذب لحيته المدببة، ثم قال «هذه رسالتى إليك، وإلى مواطنى أتومى الكلاب الذين تركناهم أحياء حتى اليوم.

ونيابة عن القائد المنتصر برنال دياز، أعرض عليك شروطه.

سألته. «أي شروط؟»

أجاب، «العفو الكامل عن أولئك المتمردين الحمقى الوثنيين مقابل إستسلام المدينة دون قيد أوشرط، وهذا ماسيقبله القائد المنتصر. وحتى لا تقول بعد ذلك إننا نقضنا عهودنا معك، ليكن معلوماً لديك بأنك لن تمضى دون عقاب على جرائمك التى إرتكبتها. أما بالنسبة لقادة أتومى، وحسبما يرى القضاة، فبعضهم سيشنق علانية، وأنت من ضمنهم يا ونجفيلد، وأيضاً وبصفة خاصة تلك المرأة أتومى، ابنة مونتزيوما الملك الراحل. أما مواطنو مدينة بنيس، فعليهم أن يسلموا ماالديهم من ثروات إلى خزينة نائب الملك، كما أنهم سوف يرحلون، رجالاً ونساءً وأطفالا، ويبعث بهم حيثما يتراءى لنائب الملك، إلى الولايات التابعة لاسبانيا،

ليتعلموا فنون الزراعة والتعدين. هذه هى الشروط، وقد أمرت بأن أمنحك ساعة للرد عليها.

«وإذا رفضتها؟»

« فى هذه الحالة، سيصدر برنال دياز أوامره بالاستيلاء على المدينة وحرقها وتدميرها. وسينفذ ذلك خلال أثنى عشرة ساعة، على يد التلاسكان والهنود المخلصين، وسوف يجمع.ماسوف يتبقى من أهل المدينة، ويبعث بهم إلى مدينة المكسيك، وهناك سيباعون كعبيد.»

قلت: «عظيم، سوف تتلقى الرد خلال ساعة.

غادرت البوابة، وتوجهت بسرعة إلى القصر، وبعثت الرسل لإستدعاء المستشارين الذين بقوا على قيد الحياة. قابلت أتومى عند باب القصر، التى قابلتنى بإشتياق، فبعد سماعها أنباء الهزيمة، لم تكن تأمل أبداً فى أن ترانى ثانية.

قلت لها: «تعالى معى إلى قاعة الاجتماعات، هناك سأتحدث معك.

ذهبنا إلى قاعة الاجتماعات، حيث كان الأعضاء قد وصلوا بالفعل. وما إن . اكتملوا (كانوا ثمانية لاغير)، أعدت عليهم كلمات دى جارسيا. تكلمت أتومى بصفتها الأعلى مرتبة ومن حقها ذلك.

قالت: «أيها الأصدقاء، أنتم تعلمون مدى الخطر الذى داهمنا لقد نقل لكم زوجى رسالة الأسبان. ووضعنا لا أمل فيه. ليس لدينا سوى ألف رجل للدفاع عن المدينة، وطن أجدادنا ، ونحن وحدنا دونا عن كل شعب أناهوك مازالت لدينا الجرأة لمواجهة الأسبان بالسلاح. منذ سنوات مضت، قلت لكم، اختاروا بين الموت بشرف، أو الحياة الموسومة بالخزى والعار!. واليوم أقول لكم ثانية ، عليكم أن تختاروا!.

بالنسبة لى ولأهلى، ليس هناك اختيار، فقد تحتم أن يكون الموت قدرنا، بغض النظر عما تقرروه أنتم. فالأمر. بالنسبة لكم مختلف. هل ستموتون وأنتم تقاتلون، أم ستقومون، أنتم وأطفالكم. بالخدمة كعبيد ما تبقى لكم من سنوات عمركم؟

تداول سبعه من الأعضاء لفترة، ثم تكلم واحد منهم.

«أتومى، وأنت ياتويل، لقد تبعنا رأيكما لعدة سنوات، ولم يجلب لنا سوى الضرر، نحن لانلومكما، لأن آلهة أناهوك قد تخلت عنا، لأننا تخلينا عنها. مهما يكن سوء الحظ الذى عانيناه، وشاركتمانا فيه، وهو الآن على وشك النهاية، فنحن لن نخنث بقسمنا فى الساعات الأخيرة لشعب اتومى. لقدّ اخترنا؛ لقد عشنا احراراً معك، ومازلنا أحراراً، وسوف نموت معكما. ولأننا نقدرك ، فنحن

نرى أنه من الأفضل لنا ولأهلنا أن نموت رجالاً أحراراً، على أن نعيش تحت رحمة الأسبان.

قالت أتومى: «هذا عظيم، والآن لم يبق لنا شىء سوى أن نتمسك بميتة عظيمة، تتغنى بها الأجيال القادمة .. لقد سمعت، يا زوجى رد المستشارين. دع الأسبان يسمعوه أيضاً.

عدت إلى الأسوار، وفى يدى علم ابيض، فتقدم رسول من الأسبان ليتحدث معى. لم يكن دى جارسيا، بل كان شخصاً آخر. قلت له بكلمات قليلة إن هؤلاء الناس الذين بقوا على قيد الحياة من مقاطعة أتومى، يفضلون الموت تحت حطام مدينتهم، ولن يعدموا وسيلة فى وجود رمح، وفى ذراع تلقى به، ولن يستسلموا أبداً للاسبان.

●●●

إحتل الأسبان آخر ساتراً ترابيا عند غروب الشمس، وتحت جنح الظلام لاذ من بقى حيا منا إلى الملجأ الذى كنا قد أعددناه فوق الهرم، ولم يحدث أى قتال خلال تلك الليلة.

الفصل الرابع والعشرون

الاستسلام

صمدنا أمام الأسبان بصلابة لمدة ثلاثة أيام، لأنهم لم يستطيعوا إجتياحنا، كما أن قذائفهم كانت تطير فوق رؤسنا بلا إصابات.

وما إن وصل إلى علمهم بأن لدينا من الطعام والشراب فى ملجاء الهرم، ما يكفينا لمدة شهر او يزيد، فرأوا أن لا أمل فى السيطرة على المدينة بقوة السلاح، وبالتالى طلبوا التحدث معنا.

توجهت إلى الحديث مع مبعوثهم، الذى كان يقف فى ممر بأسفل، فى البداية قال، لابد أن نستسلم دون شروط، لكننى فى النهاية رفضت، فقذف لى بورقة على طرف رمح من أسفل. كانت الورقة موقعة من برنال دياز، يقرر فيها إنه قد صدر عفو عنى وعن زوجتى وابنى، وكل الذين يقيمون فى الهرم، وضمان حرية

الذهاب إلى أى مكان ترغب فى الذهاب إليه، على شرط أن نسلم أرضنا وثرواتنا إلى المنتصرين.

رحبت تماما بهذه الشروط، وقد كنت فى الحقيقة لاآمل فى إحراز أى شىء يضمن لنا حريتنا وحياتنا.

توجهت إلى المعبد بصحبة من كانوا معى، وأخذنا الرفاق بهذه الأخبار فتلقوها فى صمت. كثير من الناس كان من الممكن أن يسعدهم ذلك، لانقاذ حياتهم، عندما يكون الموت لايساوى شيئاً مقابل أى خسارة أخرى.

لكن الأمر مختلف مع هؤلاء الهنود. حتى عندما يعاندهم الحظ، فانهم لايتمسكون بالحياة. أما أهل أتومى الذين فقدوا وطنهم وزوجاتهم وثرواتهم (إخوتهم وبيوتهم، فقد كان ماعرضته عليهم، من الحياة والحرية فى الذهاب إلى حيث يريدون، ليس بالشىء الكبير الأهمية بالنسبة لهم.) . لذا فقد قبلوا الهدية التى فزت بها من براثن الأعداء فى صمت.

ذهبت إلى أتومى وأخبرتها أيضاً بهذه الأنباء.

فقالت: «لقد تمنيت أن أموت حيث أنا، ومهما يكن الأمر؛ فالموت موجود دائماً فى كل مكان.»

لكن ابنى كان الوحيد الذى إبتهج بذلك، لأنه كان يعلم أن الله قد أنقذنا من الموت قتلى أو جوعى.

قال لى: «أبى، لقد وهبنا الأسبان الحياة، لكنهم سيستولون على وطننا ويطردوننا خارجه. إلى أين سنذهب إذن؟»

أجبته: «لا أعلم، يا بنى.»

فقال الفتى ثانية: «أبى، دعنا نترك هذا البلد، أنا هوك، حيث لايوجد سوى الأسبان والأسى، دعنا نعثر على سفينة تبحر بنا إلى انجلترا، وطننا.»

نطق الفتى بما كنت أفكر فيه، فقفز قلبى بداخلى عند سماع كلماته، رغم أنه لم يكن لدى تخطيط لهذا الأمر فكرت للحظة، وأنا أتطلع إلى أتومى.

قالت، إجابة على سؤالى الصامت: «الفكرة جيدة، ياثويل، ليس هناك أفضل منها بالنسبة لك ولابنك، أما بالنسبة لى فأجيب بالمثل الذى يقوله شعبى. « الأرض التى نعيش عليها، أحسن على عظامنا من أى شىء آخر.»

●●●

قبل الغروب تحرك جمع حزين من النساء والأطفال تجاه الساحة التى تحيط بالهرم.

عند البوابات كان الأسبان فى إنتظار قدومنا، بعضهم كان يسبنا والبعض الآخر يضحك، أما أصحاب النبالة والأصول الطيبة منهم فلم يتفوهوا بشىء، لأنهم كانوا متعاطفين مع حالة الحزن التى كنا فيها، ويكنون لنا الاحترام للشجاعة التى أبديناها فى المعركة الأخيرة. عند البوابات، تم تقسيمنا : الرجال ذوو الشأن الضعيف مع الأطفال، وأخذوهم تحت حراسة جنود مسلحين، وتركوهم هائمين فوق الجبل، بينما الأفضل حالاً فقد أخذوهم إلى احد المعسكرات الأسبانية، لإستجوابهم قبل إطلاق سراحهم أما أنا و زوجتى وابنى، فقد أخذونا إلى القصر، بيتنا العزيز، حتى نعرف ماذا سيقرر القائد دياز بالنسبة لنا.

كانت المسافة قصيرة، وبينما كنت سائراً تطلعت إلى أعلى، فوجدت دى جارسيا واقفاً أمامى وبمعزل عن الباقى كنت قد فكرت فيه حقيقة منذ عدة أيام، رغم إنشغال تفكيرى بكثير من الأمور، لكن عند رؤيتى لوجهه الشرير، قلت لنفسى، طالما أن هذا الرجل على قيد الحياة، فسوف يلاحقنى الهم والخطر.

كان يراقبنا بعناية أثناء سيرنا، ثم نادانى:

قـال: «وداعـاً، يا ونجـفيلد. لقـد كـتـبت لك الحـيـاة أثناء هذا القتال، وظفـرت بعـفـو كامل أنت وزوجتك وإبنـك. وداعاً، لفترة أيها الصديق أنا ذاهب إلى مدينة المكسيك لأقدم تقريراً عن الوضع هنا إلى نائب الملك، الذى ربما يكون له رأى آخر.»

لم أرد عليـه، لكن إبنـى قـال لى: «أبى، من يكون هنا الأسـبـانى الذى ينظر إلينا شذراً؟»

«هذا هـو الشخص الذى حكيت لك عنه، يابنى، إنه دى جارسيا، الذى أصبح وصـمـة على جنسنـا لمدة جـيلين. أحـذره، يـابنى . الأن وإلى الأبد، أتوسل إليك.»

●●●

وصلنـا إلى القـصـر، وإنتظرنـا وصـول القـائد دياز. مـا إن وصل حتى كنا نقف أمامه. كان رجلاً جهم الطلعة، مكتنز البنية ، عيناه لامعتـان لكنهما قبيحتان، لكن وجهه يتسم بالصدق، مثل وجه فلاح عـمل طول حـيـاته فـى كل الظروف المتـاخـية. فى تلك اللحظة كـان يتضـاحك مع بعض الجنود العـادين، لكن عندمـا رآنا توقف وتقدم نحـونا، قـمت بتحـيـتـه بالطريقة الهندية، بأن لمست الأرض بيـدى، باعتبارى اسيراً هنديا

تفحصى بنظرة سريعة، وقال بسرعة: «سَيِّفَك.»

نزعت السيف من وسطى وناولته إياه، قائلا بالأسبانية:

«تفضل، أيها القائد المنتصر، وهاهو يعود لصاحبه.»

فقد كان هذا السيف نفس السيف الذى أخذته من دباز خلال معركة الليلة الرهيبة.

تطلع إلى السيف، وأقسم قسماً عظيماً، وقال: «لم أتصور شخصاً آخر، الإ أن تكون أنت. وهكذا التقينا ثانية رغم مرور عدة سنوات. حسن، لقد وهبتنى حياتى مرة، وأنا سعيد لأننى عشت حتى أرد الدين. لو لم أكن متأكدا من أنك أنت، فلم تكن قد ظفرت بهذه الشروط السهلة، وياصديقى. ماإسمك؟. كلا، أعرف ما يناديك به الهنود؟»

«اسمى وينجفيلد.»

- أذن، ياصديقى وينجفيلد، أنا أرد لك السيف. لقد عودت نفسى على سيف آخر منذ عدة سنوات مضت، وأنت إستخدمت هذا السيف بشجاعة، لم أر مثلها بين الهنود. هذه أتومى، ابنة مونتزيوما وزوجتك، مازالت تقسم ببهائها ورونقها الملكى، كما أرى. سيدتى نحن نعفو عنك من أجل زوجك.»

إستمعت أتومى لذلك، وهى تقف ثابتة مثل التمثال، ولم تنطق بأى كلمة

فواصل القائد دياز كلامه: «والآن، أيها الصديق وينجفيلد، ما هى خطتك؟ أنت حر فى الذهاب إلى حيث تريد، فإلى أين تريد أن تذهب؟»

أجبت: «لا أعلم.»

. «إذا كنت تقبل نصيحتى، عد إلى المسيحية ثانية وإنضم لخدمة أسبانيا. لكن دعنا أولا نتناول الطعام، ويمكننا التحدث فى هذه الأمور فيما بعد.»

جلسنا لتناول الطعام على ضوء المشاعل فى القاعة مع برنال دياز وبعض الأسبان الآخرين. أرادت أتومى أن تتركنا، ورغم أن القائد الاسبانى رجاها أن تبقى، إلا أنها لم تأكل شيئا، ثم تسللت خارجة من القاعة.

الفصل الخامس والعشرون

الدماء من أجل الدماء

أثناء تناولنا الطعام تحدث دباز عن لقائنا الأول، وكيف أننى كدت أن أقتله خطأً ظنا منى أنه دى جارسيا، ثم سألنى عن سبب عراكى مع سارسيدا.

حكيت له قصة حياتى باختصار بقدر الامكان، وعن كل الاساءات التى سببها لى دى جارسيا، أو سارسيدا، وأننى بسببه تواجدت فى هذه البلاد.

أصغى إلى بدهشة شديدة، ثم قال: «أيتها الأم المقدسة: دائماً ماكنت أعلم أنه شرير، لكن أن يكون على مثل هذه الدرجة من السوء، فهذا ما لاأعلمه.

أقسم بشرفى، لوأننى كنت استمعت لهذه القصة منذ ساعة مضت فلم يكن سارسيدا قد غادر المعسكر حتى يرد على ذلك،

أوبيرئ نفسه بمبارزة معك. لكن أخشى أن يكون الوقت قد فات، فمن المفترض أنه سيسافر إلى مدينة المكسيك عند طلوع القمر، ليكيد لى هناك بسبب مامنحته لك من شروط ليس ذلك مايخيفنى منه هناك، لأن نفوذه ضعيف.»

أجبت»: «أنا لاأكذب. فأنا أستطيع أن أثبت هذه الوقائع، إذا كانت هناك حاجة لذلك، كما أود أن أقول لك ، إنني على إستعداد لأن أهب ماتبقى لى من العمر، لكى أواجهه فى نزال مفتوح. إلا إذا تهرب منى . لكن المباراة بيننا طويلة.»

قال دباز بسرعة: «دعنا نعرف إذا كان قد ذهب أم لا، ونادى على أحد الحراس وهو فى طريقه لمغادرة القاعة. تصادف فى هذه اللحظة أن تطلعت إلى أعلى فرأيت امرأة تقف عند مدخل الباب، وتسنديدها على ضلفة الباب، وشعرها مشعث ووجهها يفيض بالألم، حتى أننى لم أتعرف فيها على أتومى. عندما تعرفت عليها، علمت كل شىء؛ شىء واحد فقط هو الذى سبب لها كل هذا الذعر والألم الذى يشع من عينيها العميقتين.

سألتها «هل حدث شىء لابننا؟»

أجابت في همس قطع قلبى: «لقد مات، مات!

لم أقل شيئا، لأن قلبى حدثنى بما حدث، فسألها دباز

«مات. لماذا من الذى قتله؟»

. «دى جارسيا، وقد رأيته يذهب.» قالت ذلك وهى ترفع ذراعيها إلى أعلى، وسقطت على الأرض ساكنة.

أحسست فى هذه اللحظة، أن قلبى قد تحطم. ولم يكن يؤثر فى شىء مهما كانت قوته، إلاتلك الذكرى التى كانت تدفعنى يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة، إلى الموت وألاقى ابنى هناك.

صرخت صرخة مصحوبة بضحكة مجنونة. «مارأيك، يابرنال دباز؟... هل كذبت عليك بخصوص زميلكم هذا؟!»

ثم انتفضت واقفاً من فوق جسد أتومى، وغادرت القاعة يتبعنى دباز وآخرون.

بالخارج إلتفت ناحية اليسار تجاه المعسكر. لم أكد أسير مائة خطوة تحت ضوء القمر، حتى رأيت مجموعة صغيرة من الفرسان، تتجه نحونا. كان دى جارسيا وخدمه، متجهين نحو الممر الجبلى فى طريقهم لمدينة المكسيك. لقد وصلت فى الوقت المناسب.

صاح برنال دباز: «قف!».

فجاء صوت دى جارسيا»: «من ذلك الذى يأمرنى بالتوقف؟»

فزأر دباز «أنا قائدك. قف، أيها الشيطان، القاتل وإلا سوف تقتل!»

رأيته يفزع ويسحب لونه.

وقال: «هذا سلوك غريب، ياسيدى . فليسمح سموكم، بأن أسأل..

فى هذه اللحظة رآنى دى جارسيا» لأنى خلصت نفسى من دباز الذى كان يمسكنى من ذراعى، واتجهت نحوه. لم أقل شيئاً، لكن وجهى أنبأه بأننى عرفت كل شىء، وأنبأه بمصيره. ألقى نظرة سريعة على، وكان الطريق الضيق مزدحماً بالرجال، اقتربت أكثر ، لكنه لم ينتظرنى، فوضع يده على سيفه، وركب حصانه وانطلق هارباً عبر الشارع.

اطلق دى جارسيا، هارباً، وأنا أجرى خلفه بأقصى مالدى مثل الكلب. فى البداية ابتعد عنى، لكن عندما أصبح الطريق أكثر وعورة لم يستطع أن يجرى بحصانه بنفس السرعة.

كانت المدينة خالية وقتها، وكان هو قد انطلق عبر ممر صغير، كان الهنود يستخدمونه لإحضار الثلج عندما يكون الجو حاراً. كان هذا الممر يمتد لمسافة خمسة أميال تقريبا حتى يصل إلى حدود منطقة الثلج، التى لم يكن لأحد من الهنود أن يتخطاها لأنها

منطقة مقدسة . انطلق عبر الممر، فاكتفيت أنا بمراقبته، لأننى كنت أعرف أنه لايمكن لاحد أن يخرج منه، إلا من الجانب الآخر حيث توجد منحدرات جبلية شاهقة ومنحدرات مياه شديدة. سار دى جارسيا عبر الممر ميلا بعد ميل، ينظر تارة إلى اليسار وتارة إلى اليمين، وأخرى إلى القمة الثلجية الضخمة. لكنه لم يتطلع خلفه أبداً لأنه كان يدرك ماذا كان هناك. الموت فى هيئة رجل!

واصلت طريقى بهدوء، وأنا أدخر قواى . فقد كنت متأكداً من الإمساك به أخيراً، ولايشغلنى ذلك كثيراً.

أخيراً وصل إلى حدود القمة الثلجية، حيث انتهى الممر، ولأول مرة تطلع إلى الخلف . كان بينى وبينه حوالى مائتى ياردة، كنت أنا موته. خلفه، وامامه كان الثلج المشع الناصع. توقف لحظة، وسمعت صوت لهاث حصانه فى هذا السكون المطبق.

بعد ذلك استدار وواجه المنحدر، دافعا بكعبيه جنبى الحصان. كان الثلج صلبا لأن درجة التجمد كانت عالية، وبدأ الحصان يسير برغم الانحدار الشديد بطريقة أفضل مما كان عليها فى الممر. لم يكن أمام دى جارسيا سوى طريق واحد يسلكه . كما من قبل، لأن كلا الجانبين الثلجيين كانا منحدرين انحداراً شديداً، بحيث لا يستطيع إنسان أو حيوان أن يطأها .

لم ينظر إلى ورائه.. وكان الموت يتبعه.

تابعته لمدة ساعتين أو أكثر، وبينما كنا نمضى خلال ذلك السكون والعزلة فى هذا الثلج اللانهائى. بدا لى وكأن روحى تغلغلت داخل روحه، وأن عينى إستطاعتا رؤية كل ما يجرى فى قلبه وأحسست بآلامه، ويأسه الأسود، وذكرياته وخوفه، من دنو الموت منه، وما يلى ذلك، الأمر الذى لايستطيع الإنسان أن يفعل حياله أى شىء، سوى أن يتألم بعمق.

ازداد الثلج انحداراً، وأصبح الحصان منهكا تماماً، لأنه كان يتفس بالكاد عند هذا الإرتفاع الكبير. وعبثاً حاول دى جارسيا دفع كعبيه فى جنبيه ، لم يعد فى استطاعة الحيوان الشجاع أن يفعل شيئاً. وفجأة سقط. ظننت بالتأكيد، أنه سوف ينتظرنى. ولأننى لم أتعرف على مكنون رعبه. لأن دى جارسيا خلص نفسه من الحصان الساقط، وأخذ يتطلع ناحيتى، ثم فر هارباً على قدميه، وهو يلقى أسلحته أثناء هربه، حتى يصبح أكثر خفة.

بمرور الوقت إستطاع عبور منطقة الثلوج ، حتى وصل إلى حافة نهر جليدى، صنعته الثلوج الذائبة من أثر النيران الداخلية، تجمدها خلال أشهر الشتاء، صعد دى جارسيا فوق هذه الثلوج وأخذ يتنقل متقفزاً من قمه مدببة كالإبرة، إلى قمة أخرى. وعندما رأيته يتعرض للخطر، ناديت عليه مرتين، لأنبهه أين يضع قدمه، حيث كنت على بعد عشرين خطوة منه. والغريب فى الأمر أنه كان

يطيعنى دون اعتراض، ناسياً كل شىء بسبب رعبه من الموت العاجل، أما أنا فلم يعترينى أى خوف، لأننى كنت أدرك أننى لا يجب، أن أسقط، رغم أن المكان واحد، ومن المؤكد أن الخوف كان سيعترينى لو أننى جئت إلى هذا المكان فى أى وقت آخر.

وفى تلك الأثناء كنا نتجه ناحية قمة إكساكا النارية، على ضوء القمر الساطع، وماإن طلع الفجر، حتى خبت ألسنة اللهب داخل أعمدة الدخان. كان من الرائع حقاً رؤية ذلك الوهج الأحمر ينعكس فوق القمة الثلجية، وعلينا نحن الأثنين اللذين نزحف كالذباب، فى الوقت الذى كان فيه جانب الجبل والناس فى أسفل بعيدين تحت ظلال الليل.

ناديت على دى جارسيا ، وقلت له: « الآن لدينا ضوء أفضل، حتى يمكننا التسلق. »تردد صوتى عبر النتوءات الثلجية، حيث لم يتردد هنا صوت انسان أبدا من قبل.

أثناء ماكنت أتكلم كان الجبل يدمدم مثل كلب غاضب، ويرتج مثل شجرة صدمتها الريح . كما لو كنا قد دخلنا مكاناً مقدساً، فأغضبنا الجبل، صاحب ذلك انهمار وابل من الركام فوقنا، وأخفى دى جارسيا عن ناظرى لوهله. سمعته يصرخ من الخوف، إذ كان يخشى السقوط، بعد ذلك انتهى الركام فرأيته يقف سالما، على حافة فوهة بركانية.

تصورت فى هذه اللحظة أنه سيقف بالتأكيد، لو كان لديه الشجاعة، فقد كان من السهل عليه أن يقتلنى بسيفه الذى كان مازال يتدلى من وسطه، لأننى كنت لحظتها أتسلق الجزء الثلجى إلى منطقة الصخور الذائبة ويبدو أنه فكر فى ذلك لإنه التفت إلى الى بشراسة مثل الشيطان، لكنه تقدم ثانية حائراً. حيث اعتقد انه من الممكن أن يجد مهرباً. على بعد ثلاثمائة خطوة تقريبا من الحافة الثلجية، كان الدخان والبخار يتصاعدان من الفوهة البركانية إلى السماء، وما بين الأثنين كانت تتساقط الحمم الساخنة فى أماكن كان من الصعب السير فوقها. فوق هذه الأرضية التى كانت تهتز عند ماكنت أمر فوقها، سار دى جارسيا ببطء لمسافة بسيطة، لأنه كان قد أنهك، فتتبعته براحتى، وقد التقطت أنفاسى ثانية.

فى تلك اللحظه رأيته وقد وصل إلى حافة الفوهة البركانية، وانحنى فوقها وأخذ يتطلع فيها، فاعتقدت أنه على وشك أن يهلك نفسه بالقاء نفسه فيها. لكن لو أن أفكاراً مثل هذه قد داهمته، فقد كان لابد أن ينساها، عندما رأى أى مكان ذلك ليستتر فيه، وعندما استدار إلى الخلف وجد نفسه أمامى والسيف فى يدى ولايفصل بيننا سوى عشرات الخطوات. قلت، لاقنى، لكننا لم نلتق، لأنه توقف بعيداً عن متناول سيفى جلست وأخذت أتطلع إليه، بدا

لى أننى لا أستطيع أن أثبت عينى على وجهه. ويالـه من من وجه: كان أكثر من وجه قاتل يتلقى جزاءه.

قلت: «أخيراً، يا دى جارسيا!.»

فسألنى بصوت أجش: «لماذا لا تقتلنى وتضع نهاية لذلك؟»

. «وفيما العجلة؟ منذ عشرين عاماً تقريبا وأنا أبحث عنك؛ فهل نفترق سريعاً وقد إجتمعنا؟ دعنا نتكلم قليلا، قبل أن نفترق ولا نلتقى ثانية، فربما يكون من مصلحتك أن تجيب على سؤالى، لأننى فضولى، لماذا تسببت فى كل هذه المصائب بالنسبة لى ولك؟ . لاشك أن هناك أسبابا، لكل هذا الهراء والحماقة والسفالة.»

كنت أتحدث إليه بمنتهى الهدوء والبرود، دونما إحساس بالغضب أو أى شىء. لأننى فى تلك الساعة الغريبة، لم أعد توماس وبنجفيلد الإنسان، انما كنت قوة، أستطيع أن أفكر فى ابنى دون حزن، فلم يكن يبدو ميتا بالنسبه لى، ولأننى مشارك فى الصفات المزاجية التى وضعها هو فى تبدل نظرتى للموت. بل وأفكر فى دى جارسيا دون كراهية، وفى كونه لاشىء سوى آلة فى يد الآخرين. زيادة على ذلك، فقد كنت على يقين بأنه تحت سيطرتى، جسدا وفكراً، ولابد أن يجيب على بصدق، تماما مثلما كنت متأكدا بأنه لابد أن يموت، عندما أقرر أن أقتله.

حاول ألا يفتح شفتيه، لكنهما إنفرجتا من تلقائهما، وكلمة كلمة بدأ الصدق يتدفق من قلبه الأسود، كما كما كان يقف بالفعل أمام منصة القضاء

قال ببطء وألم شديد: لقد أحببت أمك، أحببتها منذ الطفولة، دونا عن أى إنسان آخر، ومازلت أحبها حتى هذه الساعة، لكنها كانت تكرهنى لأننى كنت شريرا، وتخشانى لقسوتى. حدث أن رأت والدك فأحبته، ودبرت خطة لهربه ممن عهدت إليهم لتعذيبه وحرقه، وهربت معه إلى انجلترا . تملكتنى الغيرة وقررت أن يدفعا ثمن ذلك ، لكن لم أستطع. عشت حياة سيئة، وبعد مرور عشرين عاما ، تصادف أن قمت برحلة تجارية إلى انجلترا وعلمت بالصدفة أن والدك ووالدتك يعيشان بالقرب من يارموث، فصممت على رؤيتها، ولم يكن لدى فكرة عن قتلها. حالفنى الحظ، وقابلتها فى الغابة، وراعنى أنها مازالت جميلة، فإزداد حبى لها أكثر من ذى قبل. خيرتها مابين أن تهرب معى أو تموت. لكنها هربت منى داخل الأشجار الموجودة على سفح التل، ثم توقفت وقالت لى:

«اصغ إلى، ياجوان قبل أن تقتلنى. لقد رأيت نبوءة بموتك. وكما أهرب أنا منك، فسوف تهرب أنت كذلك أمام شخص من دمى فى منطقة مليئة بالنار والصخور والثلج، وكما تدفعنى أنت إلى بوابات السماء، سوف يدفعك هو إلى فوهة الجحيم.»

قلت: «فى مكان مثل هذا المكان.»

فتطلع حوله وقال بهمس: «فى مكان مثل هذا المكان.»

حاول أن يلتزم الصمت، لكن إرادتى سيطرت عليه ثانية فتكلم. «لقد فات الأوان لانقاذها، لو كنت أرغب فى خلاص نفسى. وهكذا قتلتها وفررت. لكن الرعب سكن قلبى، رعب لم يغادرنى حتى هذه اللحظة، لأن هذا الشخص الذى من دم أمك، كان شاخصاً أمامى دائماً، والذى يتحتم على أن أفر أمامه، كما فرت هى أمامى، والذى سيدفعنى إلى فوهة الجحيم.

- قلت وأنا أشير بسيفى إلى الفوهة البركانية: «لابد أن تكون مثل هذه.»

قال: «أعرف، لقد ألقيت عليها نظرة.»

- «لكنها من أجل الجسد فقط، وليست من أجل الروح»

فردد خلفى: «لكنها من أجل الجسد فقط، وليست من أجل الروح.»

فقلت: «استمر.»

«بعد ذلك وفى نفس اليوم قابلتك أنت، يا توماس وينجفيلد. كانت نبوءة أمك قد تملكتنى، وعندما رأيت شخصاً من دمها قررت أن أقتله قبل أن يقتلنى».

«كما سيفعل هو الآن.»

فردد خلفى كالببغاء: «كما سيفعل هو الآن.»

«أنت تعرف ماذا حدث بعد ذلك وكيف هربت. عدت إلى أسبانيا وحاولت أن أنسى لكنى لم استطع. ذات ليلة رأيت وجهاً فى أحد شوارع اشبيليه ذكرنى بوجهك. لم أتصور أبداً أن تكون أنت، إزداد خوفى فقررت أن أسافر إلى الهند الغربية، لكنك قابلتنى ليلة سفرى عند ما كنت أقوم بوداع سيدة.»

ارتعشت كل أطرافه ثم واصل حديثه: «وتقابلنا فوق سطح المحيط ثانية. خرجت لى من الماء. لم أجرؤ على قتلك على الفور؟ كنت أتصور أنك ولابد أن تموت فى محبس العبيد أسفل السفينة، حتى لا يكون هناك شهود ضدى وأتحمل جريرة دمك. لكنك لم تمت، حتى البحر لم يستطع أن يهلكك. كنت أظن أنك مت . جئت إلى أنا هوك بصحبة كورتس؛ وتقابلنا ثانية، وكدت أن تقتلنى فى ذلك الوقت . بعد ذلك، عاقبتك وعذبتك تماما، وكنت أنوى قتلك فى اليوم التالى، لكنك هربت. مرت أعوام طويلة سافرت هنا وهناك، إلى أسبانيا، وعدت ثانية إلى المكسيك، واماكن أخرى، لكن أينما كنت أذهب، كان خوفى وأشباح الموتى وأحلامى تلازمنى، ولم أهنأ على الاطلاق، إلا فى ذلك اليوم القريب، عندما انضممت إلى

دباز وحتى وصولى إلى مدينة بنيس لم أكن أعلم أنك قائد جيش أتومى، اذ قيل أنك مت منذ فترة طويلة. والباقى أنت تعرفه.»

سألته: «لماذا قتلت إبنى.»

«أليس هو من دم أمك، هذا الدم الذى سينفذ على قدرى المحتوم، ألست مدينا لك بمكافأة مقابل ما قدمته لى من متاعب طوال تلك السنوات العديدة؟ هذا بالاضافة إلى أنه يعد من الحماقة أن يسعى الانسان لقتل الآباء، والابقاء على الابناء . لقد مات، وأنا سعيد بقتله، رغم أن شبحه يزورنى الآن، مع أشباح أخرى.»

-«وسوف يزورك إلى الأبد، والآن دعنا ننهى الأمر. سيفك معك إستعمله إذا كان فى استطاعتك . سيكون من السهل عليك أن تموت وأنت تقاتل.

قال وهو يئن: «لا أستطيع، قدرى يلاحقنى.»

اقتربت منه وسيفى فى يدى، وقلت«كماتريد.»

فر من امامى متراجعاً إلى الخلف، وعيناه مثبتتان على، مثلما يفعل الأرنب المذعور عندما تكون أفعى على وشك قتله. أصبحنا فوق حافة الفوهة، كان المنظر رهيبا، والمسافة بيننا حوالى ثلاثين

قدما، والحمم البركانية تفور وتغلى كأنها كائن حى، بين ثنايا ستارة متحركة من الدخان.

تطلعت إليه وأنا أوجه إليه طرف سيفى، وضحكت؛ فتطلع إلى وصرخ صرخة عالية، فقد خانته رجولته، وكان فزعه فظيعا لما سيلاقيه بعد النهاية. نعم، كان هذا الاسبانى المتكبر المتغطرس، يبكى الآن ويطلب الرحمة؛ ذلك الذى قام بالعديد من الأعمال القذرة تتعدى حدود الرحمة. يتوسل مترحماً لعله يجد فرصة للتوبة. وقفت أراقبه، كان منظره مرعبا، لدرجة أن الرعب تملكنى، رغم هدوء قلبى المتجمد،

قلت: «هيا، فقد حان وقت النهاية» ورفعت سيفى، لكى أدعه يهوى عليه، وعلى حين فجأة فقد دى جارسيا عقله، واصابه الجنون أمام عينى!

عن باقى ماتلا ذلك فلن أكتب شيئا عنه. فمع إصابته بالجنون، انتابته نوبة من الشجاعة وبدأ يقاتل، لكن ليس معى.

لم يعد يرانى، لكنه كان يقاتل بشجاعة يائسه وأخذ يطعن الهواء. كان شيئاً فظيعاً أن تراه هكذا، يقيم معركة مع أعداء، لاأراهم، أسمع صرخاتة ولعناته وهو يتراجع بوصة بوصة حيث يدفعه أعداؤه إلى الخلف، حيث حافة الفوهة. فتوقف لبرهة، مثل

أصابه الجنون.. وبدأ يحارب فى الهواء.

شخص يستعد لهجمة أخيرة ضد القوى التى تهاجمه كاد أن يسقط مرتين، وكانه أصيب بجرح قاتل، لكنه استعاد قوته، وأخذ يقاتل لا شيء، بعد ذلك ، صرخ صرخة حادة، وفرد ذراعيه عن آخرهما مثلما يفعل أى شخص طعن فى القلب، وسقط سيفه من يده، وهوى إلى الخلف ليسقط داخل الفوهة!

أشحت ببصرى، فلم أكن أود فى رؤية المزيد؛ لكننى كنت غالباً ماأتساءل، عمن يكون ذلك الذى طعن دى جارسيا تلك الطعنة القاتلة؟!

الفصل السادس والعشرون

وداع أتومى

كان الوقت قبيل الغروب، عندما عدت إلى المدينة، فقد كان الطريق طويلا وكنت منهكا للغاية، بالقرب من القصر قابلت القائد «دباز» مع بعض رفاقه، فرفعوا قبعاتهم تحية لى، لأنهم كانوا يحترمون أحزانى. الوحيد الذى تكلم، هو القائد دباز، قال:

«هل مات المجرم؟»

هززت رأسى ومضيت. توجهت إلى حجرتنا، لأنى اعتقدت أنها المكان الذى يمكن أن أجد فيه أتومى.

كانت تجلس وحيدة ساكنة، وجميلة كما لوأنها تمثال من رخام.

قالت لى، إجابة على السؤال الذى طرحته عيناى: «لقد دفنته مع عظام أجداده وأسلافه. كان من الأفضل ألا تراه، وإلا تحطم قلبك.»

قلت: «هذا صحيح، لكن قلبى محطم فعلاً.»

سألت بنفس الكلمات التى سأل بها دباز: «هل مات المجرم؟».

«مات»

«كيف؟»

. قلت لها بكلمات قليلة:

«كان ينبغى أن تقتله بنفسك، فدماء ابننا لم يثأر لها.»

«كان بودى أن أسلخه، لكن فى تلك الساعة لم أرد الانتظام، لكن راقبت مافعلته السماء، وكنت راضياً تماماً.»

بعد ذلك أكلت،ثم ألقيت بنفسى على الفراش ونمت.

سمعت فى الظلام صوت أتومى تقول لى. إستيقظ، فأنا أريد التحدث معك.» كان فى صوتها نغمة غريبة أيقظتنى من نومى العميق.

قلت لها: «تكلمى. اين أنت، ياأتومى؟»

«أنا اجلس إلى جوارك. لم أستطع النوم، فجسلت هنا. أصغ إلى لقد مضت سنوات عديدة منذ أن إلتقينا، عندما أحضرك جواتيموك من توباسكو. أحببتك لحظتها، وحتى الآن.»

سألتها: «لماذا تتحدثين عن هذه الأمور، ياأتومى؟»

«لأن لى رغبة فى ذلك . ألا يمكن أن تعطى ساعة من وقت نومك، لمن وهبتك الكثير من وقتها؟. لقد ظفرت بك لأننى كنت شجاعة، ورقدت إلى جوارك على صخرة التضحية، حيث احتويتنى وقلت لى إنك أحببتنى، وأقسمت قسماً لى، وقد حافظت على هذا القسم بإخلاص. لقد تزوجتنى، لكنك لم تعرف من هى التى تزوجت ؛ كنت تظن أننى مجرد فتاة جميلة، حلوة، وصادقة، صحيح أن هذه الصفات كانت بى لكنك لم تدرك أن هناك فارقاً كبيراً بينى وبينك.. طوال هذه السنوات ظللت صادقاً معى وأصبحت أما لأولادك الذين أحببتهم، لكنك أحببتهم من أجل خاطرهم، وليس من أجلى، لأن حقيقة الأمر أنك تكره الدم الهندى من كل قلبك، الذى يمتزج بدمائهم. والآن مات الأولاد الذين كانوا يربطونا ببعضنا . ماتوا واحداً تلو الآخر بطريقة أو بأخرى، لأن اللعنة التى تطارد دمى حلت عليهما . ومات حبك لى بموتهما . وبقيت أنا أعيش وحيدة، مجرد ذكرى للأيام الماضية، وسوف أموت كذلك.. آه ! لقد كنت أراقبك ليل نهار، وإكتشفت مدى شوقك. فلتسعد، سوف تحصل على ذلك، لأن الصراع إنتهى. لقد ضعفت وليس لدى سوى القليل لأدخره. فلنفترق، وربما للأبد، لأن مابيننا ليس سوى أرواح ولدينا؟ وطالما أنك لم تعد ترغب فى، فأنا أفضل أن يكون فراقنا

كاملا، ومنذ الآن وحتى ساعة وفاتى، أنا أتخلى عن عقيدتك وأتمسك بآلهتى ، رغم أنى أحب عقيدتك، وأكره آلهة شعبى. نحن نفترق، وربما للأبد، لكنى أرجوك أن تفكر فى برقة، لأننى أحببتك، ومازلت أحبك؛ لقد كنت أم أولادك، الذين أصبحوا مسيحيين، وسوف تلاقيهم ثانية. أنا أحبك الآن ودائما أنا سعيدة لأنى عشت، لأجلك. احتويتنى على صخرة التضحية وبعد ذلك أصبحت أماً لولديك. إنهما يخصانك ولا يخصانى ويخيل لى أننى كنت أقوم برعايتهما فقط، لأنهما يخصانك، وقد أحباك أنت وليس أنا خذهما. خذ روحيهما مثلما أخذت كل شئ لقد أقسمت بألايفرق بيننا الا الموت، وقد حافظت على هذا القسم قولاً وفعلاً. وأنا الآن ماضية إلى بيوت الشمس لألحق بأهلى: أما بالنسبة لك، ياتويل، يامن عشت معه أعواماً عديدة: وعايشت الكثير من الأحزان، ويامن سأظل أدعوه بزوجى أقول لك، لاتسخر منى عندما تعود إلى وطنك ثانية. تكلم عنى بالقدر القليل، على قدر ما تستطيع. فلتسعد. وإلى اللقاء!!»

بينما كانت تتكلم بوهن شديد، كنت أصغى اليها باندهاش، وبدأ ضوء الفجر يغزو الحجرة ببطء. يجمع الضوء على وجهها الشاحب وهى جالسة على مقعد بجانب فراشى، فلاحظت أن ذراعيها متدليان إلى أسفل، وراسها ارتمى على ظهر المقعد. فقفزت

من سريرى وتطلعت إلى وجهها. كان بارداً شاحبا، ولم أستشعر أى أنفاس تصدر من شفتيها. أمسكت يدها، كانت باردة أيضا. تكلمت فى أذنها، قلبت حاجبها، لكنها لم تتحرك ولم تجب. ازداد الضوء بسرعة، واكتشفت كل شىء. لقد ماتت أتومى بكامل إرادتها.

كانت تلك هى الطريقة التى ماتت بها. شربت سماً يحتفظ الهنود بسره. سم يسرى ببطء ولايسبب ألما، ولايؤثر على الذهن حتى النهاية. وهذا ماجعلها تتكلم معى بهذا الأسلوب الحزين المرير، من جراء تلاشى حياتها أثناء كلامها. جلست على السرير وأخذت أنظر إليها. لم أبك ، لأن الدموع جفت، وكما قلت من قبل، مهما حدث فلا شىء يستطيع أن يثير هدوئى. وبينما كنت أتأملها تملكنى حزن وتعاطف شديد، وأحببت أتومى بشكل أفضل، الأن وهى ميتة أمامى، وأكثر مما كان أثناء حياتها، وهذا يعبر عن الكثير.

أخيراً نهضت وأنا أتنهد، وبينما كنت أنهض شعرت بأن هناك شيئاً حول رقبتى كانت القلادة الزمردية التى أعطاها لى جوايتموك، وأحديتها إلى أتومى. وضعتها حول رقبتى وأنا نائم ومعها محبس وأهديتها الطويل.

دفنتها فى المقبرة القديمة وسط عظام أبائها وبين جسدى ولديها، وبعد يومين رحلت إلى مدينة المكسيك بصحبة برنال دياز،

عند بداية الممر التفت وألقيت نظرة على حطام مدينة بينيس، حيث عشت عدة سنوات، وحيث دفن كل من أحببتهم؛ أخيرا وضع دباز يده على كتفى وقال: «أنت رجل وحيد الآن ، ماهى خططك للمستقبل؟»

أجبت: «لا شىء، فيما عدا الموت.»

قال: «لا تتكلم على هذا النحو. أنت بالكاد فى الأربعينيات، وأنا يا من فى الخمسينيات لا أتكلم عن الموت. اصغ إلى، لاشك أن لك أصدقاء فى بلدك إنجلترا؟.

«بالطبع.»

«الناس تعيش طويلاً فى البلاد الهادئة . اذهب والحق بهم؛ سوف أدير لك رحلة للسفر بالبحر إلى أسبانيا.»

أجبت: «سأفكر فى ذلك.»

الفصل السابع والعشرون

توماس يبعث من الموت

بعد عدة أيام جاء دياز لرؤيتى وقال لى: إن صديقا له يتولى قيادة سفينة، سوف تبحر إلى كاديز خلال عشرة أيام، وأن هذا الصديق على استعداد للسماح لى بالسفر معه، إذا أردت مغادرة المكسيك. فكرت لبرهة، ثم قلت: إننى على استعداد للسفر. فى نفس هذه الليلة ودعت القائد دياز، وخرجت من المدينة لآخر مرة، بصحبة مجموعة من التجار.

بعد عشرة ليال أبحرنا وكانت الريح معتدلة، وعند ابتلاج صباح اليوم التالى، لم يعد أمام أبصارنا من أرض أناهوك سوى القمة الثلجية لجبل أوريزابا المتوهج.

خلال رحلتى إلى أسبانيا لم يكن هناك شئ يستحق الذكر لأرويه، فبعد عشرة أسابيع زمن الرحلة أرسينا خطاف السفينة فى

ميناء كاريز. حيث كانت هناك سفينة انجليزية متجهة إلى لندن، فسافرت عليها، واضطررت لبيع أصغر زمردة فى القلادة، لكى أجد المال اللازم لسفرى. وقد بيعت هذه الزمردة بمبلغ كبير، فاشتريت بجزء منه ملابس تتناسب مع مكانتى وأخذت ما تبقى من الذهب معى..

أخيرا وصلت رحلتنا إلى نهايتها، وفى الثانى عشر من يونيو وجدت نفسى فى مدينة لندن الكبيرة.

وفى لندن اشتريت حصانا قويا، وفى باكورة صباح اليوم التالى إنطلقت على طريق إبوش.

سرت بسرعة طوال اليوم واليوم التالى، ولأن الحصان كان قويا وسريعا، فقد وصلت فى السابعة والنصف مساء إلى منطقة بنجاى، فوقفت قليلا وأخذت أتطلع إلى المكان الذى سافرت منه آخر مرة إلى يارموث مع والدى.

بعد عشر دقائق كنت عند بوابة الممر المتفرع من طريق توروش لمسافة ميل أو أكثر مارا بين منحدرات تكسوها الأشجار. كان هناك رجل يقف عند البوابة تحت أشعة الشمس الغاربة. تطلعت إليه فعرفته! كان بيلى مينز، ذلك الأحمق الذى فك قيود دى جارسيا عندما تركته مقيدا.

سألته وأنا أشير إلى الممر، وأنفاسى تتلاحق: «هل يعيش السيد وينجفيلد، هنا؟»

فأجاب «السيد ونجفيلد، يا سيدى، وينجفيلد، أيهم؟ فالرجل الكبير مات منذ عشرين عاما تقريبا، وقمت بالمساعدة فى حفر قبره بفناء الكنيسة، قمت بذلك فعلا، وأرقدناه بجوار زوجته تلك التى قتلت. وهناك أيضا السيد جيوفرى.»

سألته «وماذا عن السيد جيوفرى؟»

«لقد مات أيضا، منذ اثنى عشرة سنة أو أكثر. والسيد توماس، مات، غرق فى البحر، كما يقال، منذ عدة مواسم شتوية مضت، جميعهم ماتوا، جميعهم ماتوا! يا سلام، كان السيد توماس رجلا فريدا من نوعه أذكر جيدا عندما فككت رباط الرجل الأجنبى...» وأخذ يقص على الحكاية، وكيف ساعد دى جارسيا فى ركوب حصانه، بعد أن ضربته، وعدم إمكانى إعادته.

توجهت بحصانى ناحية الممر، وسرعان ماوصلت إلى منزل أبى. دخلته سيدة، يتبعها رجل وصبى وفتاة. كانت هذه شقيقتى مارى وزوجها وأولادهما، روجر وجوان. لم يتعرفوا على فى البداية، لاننى تغيرت كثيرا، كما أن الاضاءة داخل الحجرة كانت معتمة، فوقفوا يتساءلون عمن يكون ذلك الغريب.

أخيرا قلت«ماري، ماري، ألا تذكريني، يا أختي؟»

فصرخت صرخة عالية وألقت بنفسها بين ذراعي، وأخذت تبكي لفترة، وتقول حي يرزق!، وسلم على زوجها وهو يردد الايمانات باندهاش شديد، وتأثر شديد. لكن الأولاد وقفوا يتطلعون، حتى ناديت على الفتاة وقبلتها، وقلت لها إنني خالها، ذلك الخال التي سمعت بموته منذ عدة أعوام.

●●●

سرعان ما انتشرت أخبار عودتي، ومعاناتي الغريبة في بلاد الهند الغريبة الشاسعة، وجاء أناس لرؤيتي من على بعد عدة أميال. من نورويش ويارموث، وكنت أجبر على سرد حكايتي حتى ضجرت منها. كما أقيمت صلاة شكر لسلامتي ونجاتي في البر والبحر في كنيسة سانت ماري بدتشنجهام.

عندما انتهت صلاة الشكر وعاد الجميع لبيوتهم، عدت ثانية إلى الكنيسة، وهناك في فناء الكنيسة وتحت ضوء المساء الهادئ في شهر يونيو، ركعت أمام قبر أبي وأمي، وبعثت إليهما برسالة روحية، وابتهلت إلى الله أن يرحمهما.

الفهرس

مقدمة ٧

الفصل الأول: قدوم الأسبانى ١١

الفصل الثانى: قَسم توماس ٢٧

الفصل الثالث: الوداع ٣٩

الفصل الرابع: اللقاء الثانى ٤٣

الفصل الخامس: تحطم السفينة ٥٥

الفصل السادس: وصول توماس إلى الشاطئ ٧٣

الفصل السابع: صخرة التضحية ٨٩

الفصل الثامن: إنقاذ جواتيموك ١٠٣

الفصل التاسع: مجلس البلاط الإمبراطورى ١١١

الفصل العاشر: توماس يصبح إلهاً ١١٩

الفصل الحادى عشر: اختيار الزوجات ١٢٩

الفصل الثانى عشر: الفاتنات الأربعة ١٣٩

الفصل الثالث عشر: نصيحة أتومى ١٤٧
الفصل الرابع عشر: إنتصار الحب ١٦١
الفصل الخامس عشر: توماس يتزوج ١٧٣
الفصل السادس عشر: الليلة الرهيبة ١٨٧
الفصل السابع عشر: دفن كنوز مونتزيوما ١٩٧
الفصل الثامن عشر: سقوط المكسيك ٢٠٥
الفصل التاسع عشر: إدانة توماس ٢١٣
الفصل العشرون: دى جارسيا ينفذ ماتيدور فى ذهنه ٢٢٩
الفصل الحادى والعشرون: الهروب ٢٤١
الفصل الثانى والعشرون: أتومى تناشد مواطنيها من أجل حياتى ٢٥٣
الفصل الثالث والعشرون: حصار مدينة بنيس ٢٧١
الفصل الرابع والعشرون: الاستسلام ٢٨٣
الفصل الخامس والعشرون: الدماء من أجل الدماء ٢٩١
الفصل السادس والعشرون: وداع أتومى ٣٠٩
الفصل السابع والعشرون: توماس يبعث من الموت ٣١٥

رقم الايداع ١٧١٨٣ / ٢٠٠١

I.S.B.N. 977-01-7623-0

مطابع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعا ملموسا حيا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية منفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامى وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى أن السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانا ثقافيا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الابن البكر ونجاح هذا المشروع كان سببا قويا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرا أساسيا وخالدا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن على التوالى تضيف دائما من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادا ثقافيا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

2001

مهرجان القراءة للجميع

Bibliotheca Alexandrina
0436619

١٠٠
قرش
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب